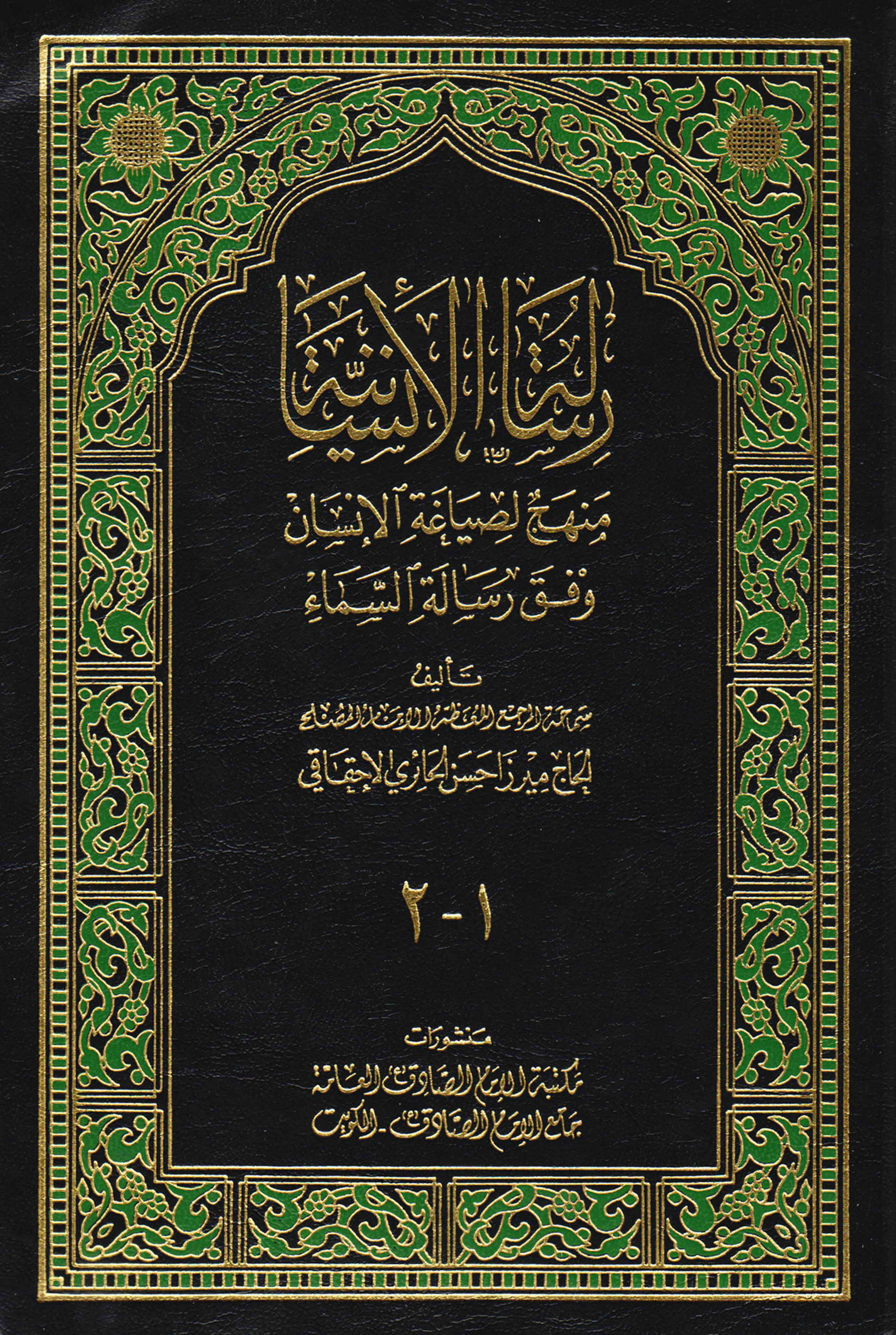
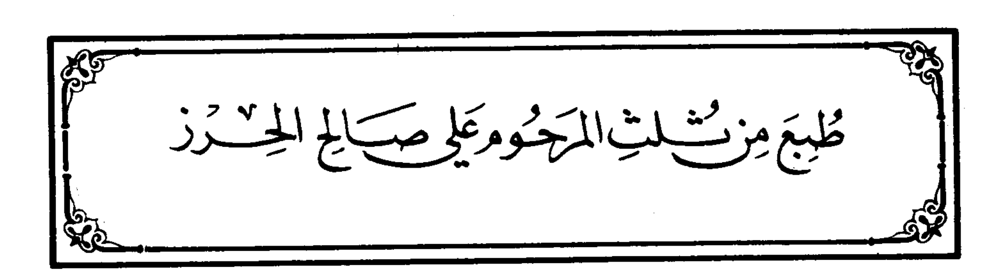
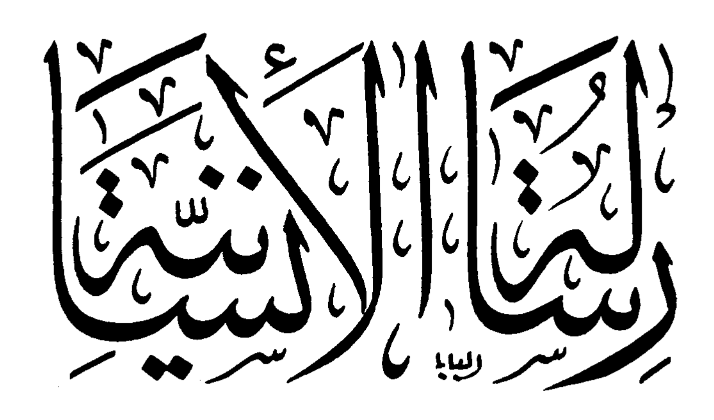

رسالة الإنسانية
منهج لصياغة الإنسان
وفق رسالة السماء
تأليف
سماحة المرجع المعظم الإمام المصلح
الحاج ميرزا حسن الحائري الإحقاقي
١ - ٢
منشورات
مكتبة الإمام الصادق ع العامة
جامع الإمام الصادق ع - الكويت


رسالة الإنسانية
منهج لصياغة الإنسان
وفق رسالة السماء


طُبِعَ مِن ثُلثِ المرحُومِ علي صَالِح الحـَرز



منهج لصياغة الإنسان
وفق رسالة السماء

تأليف

سماحة المرجع المعظم الإمام المصلح

الحاج ميرزا حسن الحائري الإحقاقي

١ - ٢

منشورات

مكتبة الإمام الصادق (ع) العامة

جامع الإمام الصادق (ع) - الكويت

اسم الكتاب : رسالة الإنسانيّة
المؤلف : سماحة المرجع المعظّم الإمام المصلح
الحاج ميرزا حسن الحائري الإحقاقي
الشارح : الخطيب البارع :
الشيخ حسن شمس كيلاني
الناشر : مكتبة الإمام الصادق (ع) العامّة - الكويت
الطبعة : الثانية
التاريخ : ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»

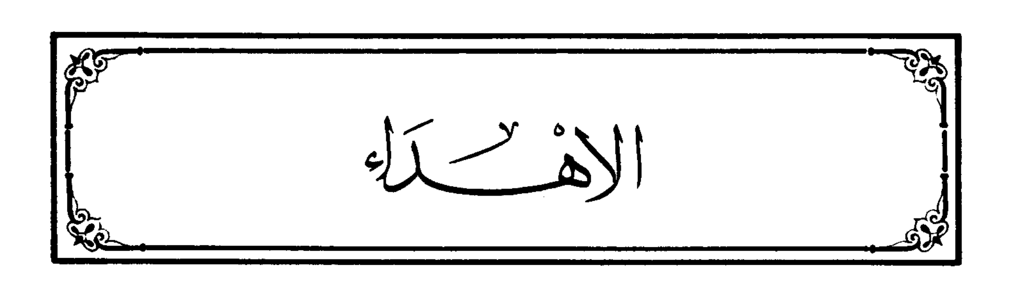
التين. آية ٤

« لا يَكُونُ العَبْدُ مُؤمِناً حَتى يُحاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحاسَبَةِ الشَرِيكِ شَرِيكَه »

رَسُول الله مُحَمّد صَلّى الله عَليهِ وَآلِه
الوَسَائِل ج ١١ ص ٣٨٠

قَال أَمِير المُؤمِنين عَلِيّ بن أَبي طالِب عَليهِ السّلام:
« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ في المَلائِكَةِ عَقْلاً بِلا شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ في البَهائِمِ شَهْوَةً بِلا عَقْلٍ، وَرَكَّبَ في بَنِي آدَمَ كِلَيهِما، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ المَلائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَه فَهُوَ شَرٌّ مِنَ البَهائِمِ . »

بحار الانوار ج ٥٧ ص ٢٩٩
علل الشرائع ج ١ ص ٥



الإهداء

إلى سدّة الولاية العظمى

والحجّة البالغة..

الذي بيُمنه رُزق الورى

وبوجوده ثبتت الأرض والسّماء!

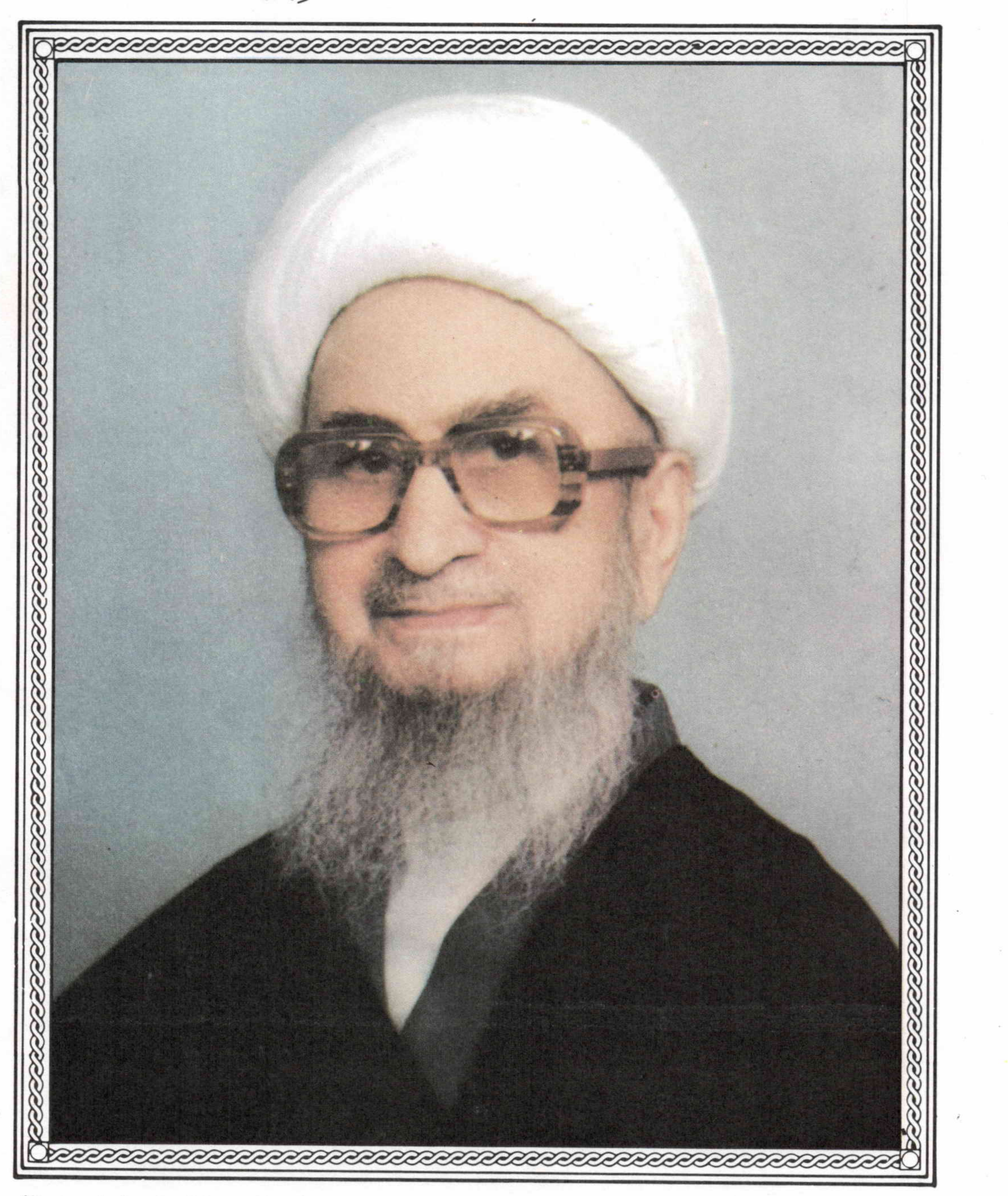
الإمام

المهديّ المنتظر

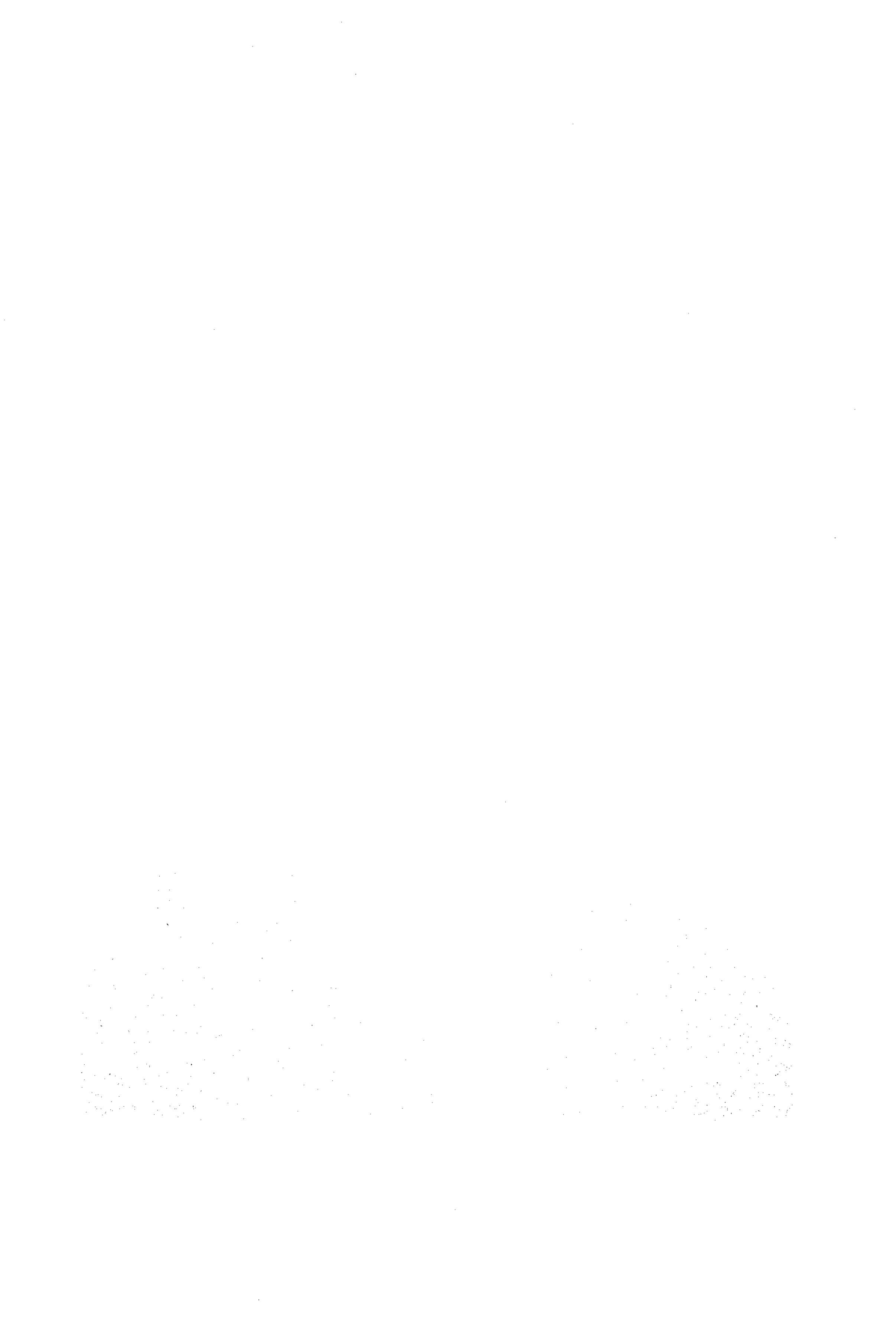
عجّل الله تعالى فرجه

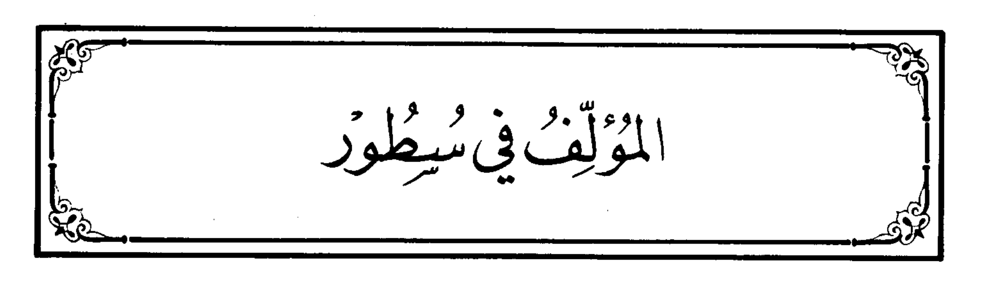


العلماء ورثة الأنبياء



سماحة المرجع المعظم الإمام المصلح المولى الحاج ميرزا حسن الحائري الإحقاقي دام ظله





المؤلف في سطور

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

١ ـ نسبـه :

هـو آيـة الله العـظمى الإمـام المصلح ميـرزا حسن بن ميـرزا موسى بن ميرزا محمد باقر بن ميرزا محمد سليم الاحقاقي الاسكوئي .

٢ ـ ولادتـه :

وُلد في اليوم الثـاني من شهر محـرّم الحرام سنـة (١٣١٨ هـ) في مدينة كربلاء المشرفة .

٣ ـ أولاده :

(أ) المـولى العـلامـة الجليـل آيـة الله العـظمى ميـرزا عبـد الـرسـول الاحقاقي . بلغ مرحلة الإجتهاد وهو في ريعان شبابـه . أجازه كثيـر من أعلام الشيعة وهم :

١ ـ آية الله المعظَّم الحاج ميرزا فتح الله ثقة الإسلام .

٢ ـ آية الله المعظَّم الحاج ميرزا خليل كمرەئي .

٣ ـ آية الله المعظَّم الحاج ميرزا جعفر زاهدي .

٤ ـ آية الله المعظَّم عمه الحاج ميرزا علي الحائري الاحقاقي .

٥ ـ آية الله المعظَّم الحاج السيّد إبراهيم علوي خوئي .

٦ ـ آية الله العظمى والده الميرزا حسن الحائري الاحقاقي .

٧ ـ آية الله المعظَّم الحاج السيّد مرتضى المستنبط الغروي .

٨ ـ آية الله المعظَّم الحاج ميرزا عبد الله ثقة الإسلام .

له مؤلفات كثيرة خدمت وستبقى تخدم وتعطي الشيعة الكثير ، وهي تزيد عن الثلاثة عشر كتاباً في مختلف العلوم ومن عمدتها كتاب : الولاية ويعتبر المولى ميرزا عبدالرسول الحائري الاحقاقي الساعد الأيمن لأبيه في جهاده لإصلاح المجتمع ، والحفاظ على مذهب الإمامية المظلومة.

(ب) الميرزا أحمد والميرزا محمد يعملان في التجارة ، وخدمة الدين ، ومساعدة المحتاجين .

٤ ـ دراسته :

(أ) عيّن له والده المقدس الميرزا موسى الحائري ، في صغره ، واحداً من أتقياء طلاب مدرسته بـ (كربلاء) لتعليمه ، وهو الشيخ التقي الملا علي فخر الإسلام الخسروشاهي (عليه شآبيب الرّحمة والرضوان) . فعلمه القرآن ، وختمه وهو في سن السادسة من عمره . ودرس عند الشيخ المذكور أيضاً بعضاً من الكتب الفارسية والعربية ، ومن جملتها ، الصرف والنحو .

(ب) أرسله والده المقدس إلى (النجف الأشرف) فالتحق بأخيه وشقيقه المقدس المرحوم آية الله العظمى الميرزا علي الحائري (طيّب الله تربته الزكية) ، ودرس عليه بعض المقدمات فيما يهم

المجتهد فيما بعد .

(جـ) رجع إلى (كربلاء) فأكمل درجة (السطوح) وهي «درجة يصلها الطالب قبل درجة الإجتهاد» من الفقه ، والأصول ، وحكمة آل البيت عليهم السلام ، عند والده المقدس .

(د) ثم حضر في خراسان (مشهد الإمام الرضا عليه السلام) زمان إقامته هناك ، بحث العلامة آية الله السيّد الفقيه السبزواري في الفقه ، وبحث آية الله العلامة الشيخ محمد حسن الطوسي أيضاً في الفقه ، وحضر بحث العلامة الميرزا أحمد الكفائي ابن المرحوم الأخوند الخراساني صاحب (الكفاية في الأصول) خمس سنين . كان مجتهداً قبل ذلك ولكن كان حضوره في بحثهم تفكهاً فقط .

وحصل على كثير من الإجازات الشاهدة بفضله ، وعلمه ، وبلوغه مرحلة استنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها التفصيلية .

٥ ـ إجازاته :

(أ) إجازة العلامة آية الله الغروي ، (النجفي) المشهور بـ (شيخ الشريعة) ، الذي كان مرجعاً كبيراً بعد آية الله المرحوم محمد تقي الشيرازي (قدّس الله سرّه) وهاك نصها :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان ، وسلك بهم سبل الهداية بأعلام الأدلة والبرهان ، وأرسل لهم رسلاً مبشّرين ومنذرين ، ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان .

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وسيد ولد عدنان ، محمد ، الذي بعثه علماً لعباده ، وناسخاً لجميع الشرائع

والأديـان ، وحجة بـالغة قـائمة على الإنس والجـان ، وكـافـة العـوالم والأكـوان ، وعلى آله وأوصيـائه الـطاهرين المعصـومين من كـل خـطأ ونسيـان . (عليهم أفضــل صلوات الملك المنــان ، ولعنــة الله على أعـدائهم ومخالفيهم مصـادر الفسوق والعصيـان ، والشرور والـطغيـان) وبعد :

فلمـا كان جنـاب العالم الفاضل ، والكـامـل الباذل، فخـر العلمـاء العظام ، وذخر الفضلاء الأعلام ، مروج الأحكام ، ثقـة الإسلام المـولى الألمعي المؤتمن الآغــا ميـرزا حسن (سلمــه الله تعـالىٰ) ، ابن حجــة الإسلام والمسلمين ، عماد الملة والـدين ، شيخ الفقهـاء والمجتهدين ، العـلامـة الحـاج ميـرزا مـوسى الآغـا الاسكـوئي الحـائــري ، متـع الله المسلمين بطول بقائه ، ونفع الله المؤمنين بـأنوار فيـوضاتـه ، في حداثـة سنه ، وعنفوان شبابه ، جامعاً للكمالات ، فاحصاً عن المشكلات ، قـد كمل الفقه والأُصول ، ونال درجـة رفيعة من المعقـول والمنقول ، وأتقن المتـون والسطوح بـالمذاكـرة والدرس والتـدريس والمبـاحثـة ، وشفعهـا بتحصيل العلوم الرياضية، والخوض في لجج الحكمـة الإلٰهية ، حصلت لـه بحمد الله ملكـة يقتدر بهـا على استنباط الأحكـام الشرعيـة من أدلتها التفصيليــة ، واستجــاز من الأحقــر الفاني ، للدخــول في زمــرة حملة الأخبـار ، وسلسلة رواة الآثار ، وحفـظاً لتلك الـروايـات بـالإتصـال عن الإرسـال ، وصونـاً لها عن الإنـدراس والإهمـال ، فـأجـزتـه ، وفقـه الله لمـرضاتـه ، وبلغه إلى أعلىٰ طـاعاتـه ، أن يروي ، عني وعن مشـايخي الآتي ذكر بعضهم في خاتمـة الإجازة ، كـلّ ما صـحّ لي روايته ، وجـاز لي إجـازته ، من روايـة الأخبـار السـاطعـة الأنـوار من الكتب المعـروفـة المشهـورة المتداولـة بين العلمـاء الأخيـار ، خصـوصـاً الكتب القـديمـة الأربعـة التي عليهـا المــدار ، في الأزمنـة والأعصــار ، وهي (الكـافي) و (الفقيـه) و (التهـذيب) و (الاستبصـار) ، والأربعـة الأُخـرى الحـديثـة الجـامعـة لشتـات الآثـار ، وهي (العـوالم) و (الـوافي) و (الــوسـائـل)

و (البحار) ، وسائر كتب الحديث ، والتـأليفات ، والتصنيفـات ، وجميع مـا خـرج من قلمي من مؤلفـاتي ، وتصنيفـاتي ، وتقـريـراتي ، وســائـر تصـانيف مشايخي وأسـاتذتي الأسـاطين ، أعلى الله مقامهم ، ورفـع في الخلد أعلامهم . وأوصيه سلّمه الله بالتمسك بحبل الإحتيـاط ، وملازمـة أقــوم الصـراط ، وممــارسـة كتب الإخبار ، وأحـاديث العتـرة الــطيبين الأطهـار ، وأن لا ينساني من صـالـح الـدعـوات في أوقـات الخلوات ، وأدبار الصلوات ، والله خليفتي عليه ، وهو الحفيظ ونعم الوكيل .

ولنختم الإجازة بذكر طريق واحد من طرقي ومشـايخ إجازتي ، لأنها كثيرة عديدة ، لا يسعني الوقت لذكرهـا كلاً وطـراً ، ونكتفي بذكـر أعلاهـا سنداً ، وأشرفها سلسلة ، تبركاً وتيمناً ، فأقول :

أجـزته ، سلّمـه الله ، أنْ يروي عني ، عن السيّـد العلامـة السيّـد مهـدي القزويني ، عن عمـه الجليل المعـظم صاحب الكـرامات السيـد باقر القزويني ، عن خاله العلامـة الطبـاطبائي بحـر العلوم ، عن الوحيـد المجـدد البهبهاني ، عن والـده الأجل المـولى الأكمل الأصبهـاني ، عن شيخنا المجلسي بطرقه المذكـورة في أول (الأربعين) ، وأول (البحار) ، وعن شيخنـا المجلسي ، عن المحـدث الحـر العـاملي بجميــع طـرقــه المـذكورة في آخـر (الوسائـل) ، ويكـون الـوصـل مـا علت الـطرق من الخاصة والعامة ، ممكناً بهذا الطريق .

حـرره الجاني فتـح الله الغـروي الأصبهـاني ، المشهـور بـ (شيـخ الشريعة) ، عُفي عنه ، (خامس من ربيع الأول ١٣٣٨ هـ) .

(ب) إجـازة من الشيـخ الجليـل العـلامـة آيـة الله الشيــخ محمـد حسن الطوسي (أعلى الله مقامه) .

(جـ) إجـازة من والده المقـدس ميرزا مـوسى الحائـري (قدس الله سـره) شهد له فيها بالإجتهاد والفضل والعلم .

(د) حصل على إجازة من أخيه العلامة المقدس الميرزا علي الحائري (قدس الله سره) وهذا نصّها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرمنا بالقلم ، وعلّمنا ما لم نعلم ، وفضّلنا بنبينا الأكرم ، على سائر الأمم ، صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين ، سادات العرب والعجم ، وأولياء النعم ، صلاة يعجز عن وصفها الواصفون ، وعدّها العادّون .

أما بعد : لما كان من أبلغ حكم الله ، وأسبغ نعمائه ، أنْ جعل علماء حكماء لحفظ دينه وأحكامه ، صائنين لشرائعه وحدوده عن الإندراس والتلف ، فجعل يتلقى الخلف منهم عن السلف ما تحملوا من علوم وأخبار ، وأسرار وآثار ، فنالوا بذلك أتمّ المواهب ، وبلغوا أسمى المراتب ، وكان ممن أخذ بالحظ الوافر ، وأعلى النصيب من أقداح المعلى والرقيب ، شقيقي ، وسندي ، وثقتي ، وعمادي ، الفاضل الكامل ، العلامة ، والعارف الباذل الفهّامة ، عضدي المؤتمن ، الحاج الميرزا حسن الحائري الاحقاقي ، بلغه الله مناه ، في عقباه ودنياه ، وجعله مرجعاً للأنام ، وكافلاً للأيتام ، فإنه قد تتلمذ عند والدنا المعظم روحاً وجسداً ، المولى الحاج الميرزا موسى الحائري (قدّس الله تربته الزكية) ، وحضر عندي ، وعند بعض الأساتذة الكرام ، فمنحه الله تعالىٰ وله الحمد ، ملكة يقتدر بها على إستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ، كما أشار بذلك والدنا المقدس المذكور ، أعلىٰ الله مقامه ، ورفع في جنان الخلد أعلامه ، في إجازته له ، سلمه الله تعالىٰ ، فبلغ مبالغ الرجال ، وصار أهلاً لأن تحطّ لديه الرحال ، ويميز عنده صريح الحق من سخيف المقال ، ويطلب منه حل المشكلات من الآيات والروايات . وقد أجزته أنْ

يـروي عني جميع مقـرواتـي ومسموعـاتي ، ورسائلي وتـأليفـاتي ، ممـا ظهــر من قلمي ، أو يـظهــر ، وأن يـروي عن ســائـر الكتب والأخبــار السـاطعة الأنـوار ، والأدعية والمـواعظ والأذكار ، سيمـا (نهج البـلاغـة) و (الصحيفـة العلوية) و (الصحيفـة السجـاديـة) العليـة المنـار ، والكتب الأربعـة المشهـورة التي عليهـا المـدار في جميـع الأعصـار والأمصـار ، (الكــافي) و (من لا يحضـــره الفقيــه) و (التهــذيب) و (الإستبصـــار) ، والجـوامع الثـلاثة المعـروفة : (الـوافي) و (الوسـائـل) و (بحـار الأنـوار) وسائر ما صنّف وألّف في الإسلام من العلماء الأعلام .

ولضعف بصري وضعف مزاجي معـذور من ذكر تفصيـل مشيخة إجازاتي ، وبعضها مذكور في إجـازة والدي المقـدس المفصلة إياي . فالتفصيل موكول إليها ، وقد تقدم له مني إجازة ووكالة مطلقـة عامـة ، وفيها ذكر بعض مشايخي ، وفيه الكفاية عن التفصيل .

تحـريـراً في سنـة الخمس والستين بعـد الألف والثـلاثمـائـة من الهجـرة النبويـة ، على هاجـرها آلاف الصلوات والتحيـة ، وأنـا الأحقـر الفاني علي بن موسى بن محمد باقر بن محمد سليم الحائري .

وأوصيه سلمه الله وجعلني وقـاه ، بالـورع ، والتقوى ، والإحتيـاط في التحديث والفتوى ، فإنه المنجي من الوقوع في المهـالك عنـد ضيق المسالك . قال عليه السلام : «أخوك دينـك فأحتط لـدينك» ، والتجنب عن مجـالسة أهـل الدنيـا والأغنيـاء ، فـإنهـا تقسي القلوب ، وتنسي دار البقاء . وعليه بـالرأفـة والتحنن على الأيتام ، ومـرافقة الفقـراء حتى ينال الـرضى والثواب يـوم الجـزاء ، ولا ينسـاني من دعـاء الخيـر في الحيـاة والممـات ، وأسـأل الله لي ولـه حسن العـاقبـة والتـوفيق خيـر صـاحب ورفيق ، وأنا الأحقر الفـاني أخوه وشقيقـه علي بن موسى الحـائري عُفي عنهما ، وجعل ما لهما خيراً مما مضى من أيامهما (انتهى) .

ولنختم أخيـراً ذكر هـذه الإجازات بهـذه الآية الشـريفة وهي قـوله

تعالىٰ في كتابه المجيد : ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إنَّ السمع ، والبصر ، والفؤاد ، كل أُولئك كان عنه مسؤولا**﴾ .

٦ ـ مؤلفاته :

إن مؤلفات هذا العالم العليم ، والبحر الخضم ، بالنسبة إلى توجهه في إصلاح هذه الأُمة المظلومة ، شرقاً وغرباً ، بقلمه ولسانه ، وبكل ما لديه من فكر وقاد ، قليلة . ولكن هذا النزر البسيط أثرى وأخصب الفكر الشيعي . ومن بعض مؤلفاته :

١ ـ أحكام الشيعة :

في العبادات والمعاملات . وهي رسالة عملية تفيد الناس في الحلال والحرام .

٢ ـ رسالة الإنسانيّة في الأخلاق :

وهذه الرسالة لم يؤلف مثلها في أُسلوبها ، وجزالة معانيها . ومن قرأها وجد نفسه كأنه خرج من هذا العالم إلى عالم النور والسعة ، وارتقى باتباعها مدارج الإيمان واليقين ، وهي تتألف من جزءين طبعت في بيروت سنة ١٩٨٨ م .

٣ ـ الدين بين السائل والمجيب :

وهو يمثل إجابته عن كثير من المسائل التي وردت عليه من كل مكان ، بالجواب الشافي ، والمفيد . طبع في «الكويت» في ستة أجزاء وفي بيروت في مجلدين ١٩٩٢ م .

٤ ـ منسك الحج :

وفيه ما يهم الحاج في مكة والمدينة .

٥ ـ منظرة الدقائق :

٦ ـ كتاب تفسير المشكلات من الآيات :

وقد أودع فيه تفسير بعض الآيات الصعبة بأوضح بيان .

٧ ـ رسالة الإيمان : ترجمة (نامه شيعيان) :

وهـو كتاب يـرد فيه على دعـاوى الكسـروي ، دفـاعـاً عن الحق والحقائق ، كما أنَّـهُ يدور حـول بحوث التـوحيد ، والعـدل ، والنبوة ، والإمامة ، والمعاد ، وفي إثبات حقيقـة التشيع ، والـدفاع عن الـطائفة الإمـاميـة ، طبـع بـالفـارسيـة مـراراً ، وعُـرّب ، وطبـع ، وتـرجم إلى الأردية ، وأمّا بالإنجليزية ، فطبع منه ثلاثون ألف نسخة ، في (أمريكا ـ سـان فـرانسيسكـو) كمـا نشـر في المكتبـات العـامـة بـ (أمـريكـا) ، و (أوروبـا) ، و (أفريقيـة) ، و (آسيا) ، وجميـع السفارات في الأقـطار الإسلامية كافة ، وغيرها .

٨ ـ أصــول الشيعــة :

وهو كتاب فريد يحوي شرح أصـول الدين الخمسـة ، طبع مفـرداً ومقروناً برسالته (أحكام الشيعه) .

٩ ـ كتاب حاكم عــدل :

وهو رد على كتاب (شاهد صدق) مفصل (فارسي) .

١٠ ـ منهــج الرشــد :

وهو رد على إزالة الغي (فارسي) .

١١ ـ سرمايــه سعــادت :

وهي رحلة من كربلاء إلى خراسان . (فارسي) .

١٢ ـ بعض رسائل بالفارسيـة ، ومجموعـة مسائـل كثيرة بـالعربيـة والفارسية ، في مختلف العلوم والمعارف .

١٣ ـ رسالــة في القبلــة :

وقـد ألّفهـا أوان بـلوغـه . وهي رسـالـة مفصّلة جعلهـا في دائــرة عظيمة ، وصـوّر الكعبة المكـرمة في وسـطها ، وسـائر البلدان حـولها ، وأطـرافهـا ، وعيّن قبلة أكثـر بقـاع الأرض ورؤوس جبـالهـا ، وبــطون

أوديتها ، وبحارها ، وأنهارها ، ومقدار إنحراف كل منها إلى أي جهة من الجهات الأربع ، بحيث إذا جعلتها على الأرض وطبقت كل جهة معلومة منها إلى الجهات الحقيقية ، ووقفت بإزاء أي بلدة تريدها ، وتوجهت إلى تلك الكعبة المصوَّرة ، كان وقوفك إلى القبلة الواقعية من غير شك ولا تردد .

ولقد أشار المرحوم المقدس الميرزا علي (قدس الله سره) إلى هذه الرسالة في رسالته العملية (منهاج الشيعة) ومجد حسن نظامها وسهولة مأخذها . وقد أشار أيضاً إعجاب والده المقدس بهذه الرسالة الفريدة من نوعها في هذه السِّن المبكرة التي قلما تفرز مثل هذا الإنتاج العظيم .

وكان المولى الميرزا حسن المترجم ، نابغة في الفلك ، ومولعاً به إلى حد كبير . وهذا الذي جعل مسائل القبلة في رسالته العملية (أحكام الشيعة) أكثر شمولاً وتفصيلاً عن باقي الرسائل العملية لعلمائنا الأجلاء ، رحم الله الماضين منهم ، وحفظ الباقين منهم ، آمين يا رب العالمين .

وكان لهذا النبوغ العظيم السبب لجعله محل ثقة والده ، وجميع الأفاضل حوله ، لتحديد القبلة لهم في أي بلد وردوا فيها ، من غير مطالبته بدليل ، لثقتهم بإطلاعه ، وعظمته ، وإحاطته ، والحمد لله رب العالمين .

٧ ـ أعماله :

ما زال ولا يزال دؤوباً في إصلاح شؤون هذه الطائفة المظلومة (الشيعة) ، وتربية عوامها هنا وهناك . فأرسله والده العلامة المقدس الميرزا موسى الحائري منذ أوان بلوغه إلى (آذربيجان) (بلدة تبريز

ونـواحيها) . وكـان هذا الإرسـال بعد طلب من أهلهـا بإيفـاد أحد أولاده لتدريسهم ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكـر ، وينشر فضـائل أهل البيت ومناقبهم ، عليهم السلام .

فلمـا وصل الميـرزا حسن وجـد المجتمـع الإسـلامي الشيعي في حـالة الإحتضـار . وبالـطبع هـذا الوضـع لا يـرضى بـه قلب هـذا الأب الـروحاني الـرؤوف على أولاده ، وقد أحسَّ بـه مولانـا الإمام الحجـة ، وعزم على مشاطـرته همـومه . فهـذا واجب كل عـالم على مذهب أهـل البيت ، عليهم السـلام ، فبـدأ بقـريـة (أسكـو) وهي مسقط رأس جـده العلامة المرحوم ، المقدس المبرور ، الميـرزا محمد بـاقر الاسكـوئي ، أعلى الله مقامه ، ونشر في دار الخلد أعلامه ، ولـم ينس مضافـات قريـة (أسكو) وأطرافها ، ونجح بحمـد الله نجاحـاً باهـراً في إصلاحهـا ، في بضع سنين ، ولما دخل الروس عند سقوط دولة پهلوي إلى آذر بايجان وتشكلت هناك دولة شيوعية سافر سماحته إلى خراسان وأقام في جـوار : الإمام الثامن عليه السلام خمس سنين .

وبينما هو كذلك ، إذ جاءه وفد من (تبريز) بعـد هلاك الشيـوعية ورجـوع الروس إلى بـلادهم وطلبـوا منـه الهجـرة إليهـا ، بـدعـوة من رجالها ، فأجاب دعوتهم ، حيث رأى الذهاب إليها فـرضاً من فـرائضه الخاصة ، فشرع في الإصلاح ، وكانت أعماله فيها كالتالي :

(أ) تأسيس مدرسة دينية :

وهـذا التـأسيس تعميـر وتجـديـد مـدرسـة المقـام (مـدرسـة صـاحب الأمـر) بعدمـا كانت خـربة ، ومخـزناً لبقـاقيل الميـدان ، فأسكن فيهـا الشبـاب الصـالحين ، وأخـذ في تـدريسهم وتـدريبهم حتى ظهـر منهم فضلاء ، وخطباء ، مبرزين مجاهـدين ، وعلى رأسهم الفاضـل المجاهـد ، والعالم المجاهد ، قـرة عينه ونـاصره ، ومساعده ، ولـده الأرشد العـلامة آيـة الله

حجـة الإسلام، الحاج الشيخ ميـرزا عبد الـرسول (أدام الله ظله العـالي) وسلّمه زمام أمور المجتمع ، فأداره إدارة صالحـة ناميـة ، فتوسعت دائـرة المشـاريع بفضـل نبوغ هـذا الـولـد العـظيم ، وأصبحت من أسمـاهـا ، وأعـلاهـا ، وأقـواهـا ، وأرقـاهـا ، وأكثـرهـا مبلغـاً ، وأوسعهـا تبليغـاً ، وأجمعها للفرقة الناجية الإمامية في تلك المنطقة .

(ب) تعميـر المساجـد :

عمّر المساجد فيها ، وكان أعظمها مسجد حجـة الإسلام صـاحب كتاب (صحيفة الأبرار) الذي كـان مغلقاً بـابه مـدة (١٥ عامـاً) فشرع في تعميـره ، فـأصبـح جـديـداً في الصـورة والمعنى . وهـو الآن أجمـل المسـاجـد وأجمعهـا ، فيمتلىء بعض الأيـام من مختلف الـطبقـات في أوقات الصلوات ، وإلقاء الخـطب من الباب إلى المحـراب مع سعتـه ، (وهـو ذو الأربعين عمـوداً من الحجـر الأزرق ، وقبـة ، وعشـرات من الصفـة) . وكـان هـو إمـام المسجـد والخـطيب طيلة مـدَّة إقـامتـه في (تبريز) ، ويليه ولده في سفره .

واختص هـذا المسجد العـظيم بنشر فضـائل أهـل بيت العصمة ، عليهم السـلام ، والحمـد لله رب العـالمين وذلـك فضـل الله يؤتيـه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(جـ) الإنتصـار :

ومن أعمـالـه البـارزة في هـذه البلدة (أسكـوا) ، إنتصـاره على الطائفة البهائية المغوية المخـربة ، فوقف في وجههم وجعـل يعمل فيهم بقوة الإيمان واليقين ، حتى هدم صرحهم ، وقـطع دابرهم ، ولـه الحمد على ذلك كما قال تعالىٰ **﴿يـريدون أن يـطفئوا نـور الله بأفـواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره المشركون﴾**[1] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٢ .

(د) تنويــر المجتمــع :

يوم وفاة أخيه العلامـة المقدس الميـرزا علي الحائـري (قدس الله سـره)، توجـه إلى الكويت وسـافر مـع جنازة المقـدس إلى العتبات المقـدسة وبعـد دفنـه رجـع إلى (الكـويت) فـدعي من قبـل المؤمنين أنْ يتحمـل أعبـاء المرجعية ، فـرفض وأصرَّ على البقـاء والتدريس في (تبـريز) ، وإصـلاح هذه الأُمة . ولكن إصرارهم وشكايتهم له باحتيـاجهم إليه خـاصة ، وأنـه مسؤول عنهم أمـام الإمام الحجـة المهدي المنتـظر (عجل الله فـرجه) ، فـرضي بعد جهـد جهيد، وهو الآن مرجعـاً لنسمة كبيـرة من الشيعـة ولـه مقلدون في (الأحساء) و (الكويت) و (البحرين) و (القطيف) و (العـراق) و (إيـران) و (بـاكستـان) و (أمـريكـا) و (الهنـد) و (سـورية) و (أفـريقيـة) و (تـايلند) و (أوستـراليا) ومن ذلـك الوقت استقـر وما يـزال في الكويت، وعكف على التدريس مدة من الـزمن فيها ، ولكن مشـاغله وإجابتـه على الـرسائـل الواردة عليـه ، من الشرق والغـرب ، بنفسـه ، وإدارة أعمـالـه الخيرية الضاربة شـرقاً وغـرباً ، جعلتـه يترك التـدريس لأهل الفضـل من تلامذته، ويتفرغ لشؤون الناس .

٨ ـ شعــره :

إلى جانب تعمّقه في الأدب ، كان خلّاقـاً في الشعر ، بـــارعاً في سبكه ونظمه . وكانت بداية نظمه للشعـر في مقتبل عمـره . فلما عـرض إحدى قصائده على والده المقـدس الميرزا مـوسى الحائـري (قده) نهـاه عن الإستمرار في نظـم الشعر، وأمـره بأنْ لا يجعله شـاغلاً لـه عن تحصيل العلم ، وهـو الغايـة العظمى ، والأنشـودة المطلوبـة . ونفذ مـا أمـره بـه والده ، وانقطع عن نظم الشعر ، ولكن له نماذج شعرية قليلة سنـذكرهـا له،وهي خير شاهد على شاعريته :

أ ـ وفاء بالعهد وهي قصيدة وفيها مقدمة له هي التالية :

بسم الله الرّحمن الرّحيم

هذه ترجمة قصيدتي الفارسية التي أنشدتها في صحن الإمام أبي الحسن الرضا ، عليه السلام ، مقابل القبلة ، أمام قبته المنوَّرة ، وضريحه المقدس ، فوهب لي ربي جلّ وعلا بخدمة وليه الإمام المنتظر المهدي ، روحي فداه ، فوق ما طلبت ، وأسبغ عليّ نعمة ظاهرة وباطنة لم أكن أتصورها . وقد وفَى هذا العبد المسكين بعهده وميثاقه ، وها أنا ذا واقف نفسي وكل ما عندي في سبيل دينه ، ونشر فضائل أوليائه ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وقضاء حوائج المؤمنين بكل ما في إمكانياتي وقوتي ، والحمد لله ، والسلام على حبيبه محمد ، وآله الطيبين الطاهرين . (وأنا الداعي الحاج ميرزا حسن السليمي المعروف بالحائري الاحقاقي) .

ملاحظة :

عرَّب هذه القصيدة من الفارسية الشاعر الأديب (عبد العزيز العندليب) جزاه الله خير جزاء المحسنين .

تقاذف القلب بلبال وأشجان ... فبت مضطرباً والفكر حيران
وهاجمتني جيوش الحزن مطبقة ... عليّ حيث أهاج النفس هجران
وبعد داري من ولدي وعائلتي ... وما على البعد لي صبر وسلوان
وأحدق الغم كالسحب الكثيفة بي ... فليس يؤنسني روض وبستان
وما المروج سوى سجن أضيق به ... ذرعاً وأحسب أنَّ الدهر سجان
ولا ترى العين إلَّا ما يزيد أسىً ... وليس غير طيوف الحزن وجدان
ولا صديقاً حنوناً قد يخفف من ... كربي وثمَّة أصحاب وخلان
وليس يوصف ما في الجسم من نَصَبٍ ... ولا يحيط بحال القلب تبيان
ماذا أقول إلٰهي أنْتَ أعلم بي ... وأنت بالمبتلى يا رب رحمان
ورحت أسبح في بحر الهموم وقد ... طمى وأمسى يضل الدرب ربان

حتى سمعت من الأعماق يهتف بي والعقل صوت قويّ الجرس رنان
حتـام أنت رهين للتحسـريـا هذا وفكرك في ذا الغور غرقان
ألست تعرف من يهدي السفين إلى بـرّ الأمـان إذا ما ماج طوفان
ألست تعرف من يأوي الأنام إلى رحابـهِ ويلوذ الإنس والجـان
ومن يؤم النبيـون الكـرام ذرى مقـامه حيث أفضـال وإحسـان
فقـد دعـا آدم قـدماً بـه فنجـا وعـاد يشمله عفـو وغـفـران
ولاذ أيوب في الكرب العظيم به فقـدر اللّه أنْ يغشـاه رضـوان
كذاك نوح نجا في الفلك حين دعا بـه فكـان لـه روح وريحـان
وقـرّ يعقوب عينـاً فاطمـأن وقد رأى ابنه وهو بعد السجن سلطان
أعني بذاك إمام العصر من هو في هذا الزمان لرب العرش برهان
وأنه قطب أفـلاك الوجـود ومن لـولاه ما كـان للأمكـان امكان
ونبع فضل عـطاياه تفيض على من في الوجود ولا يعروه نقصان
فكيف تغفـل عنه وهـو معتمـد ولا يصيب الذي يرجوه حرمان
مولى الورى يا إمام العصر مكرمة وأنت للفضل والألطاف عنـوان
إلامَ يا سنـدي يوهي الأسى جلدي حتّـام يـا كبدي تكويـك نيران
لقد كفاني هـوانا أنْ يضـايقني عسر ولي في نعيم العيش أقران
أنظر بعطف إلى الأحباب إذ شمتت بهم عداك على الأيام إذ هـانوا
وعهدنا بك لا تغضي الجفون إذا دهـى أحبتـكـم ذلّ وخـذلان
حتّـام تـغفـل عنـايـا مؤملنـا وهـل سواك لنـا غوث ومعـوان
هلا تلطفت يا وجه المهيمن بي وجادني غيث عطف منك هتان
لا سيما أنني ضيف بحضرتكم أتيت أسعى وملء القلب إيقان
بأنَّ باب الرضا باب الإله، وفي طـواف مـرقـده للّه قـربـان
وإن حـبّكـمُ فخر ، وبـغضـكمُ كفرٌ ، وطـاعتكم دين وإيمـان
وأنتم العـروة الوثقى يفـوز بهـا مستمسكوها ونعم العزّ والشان
وقد وفدت عليكم للسلام ولي فيكم صنوف من الآمال ألـوان

فلتسألوا اللّه تحقيق السعادة لي … تفضلاً من لدنه وهو منّان

وأنْ يوفّقني في برّ والدتي … ووالدي دون شيء فيه عصيان

وأنْ أؤدي من مالي ديون أبي … جمعاً إلى دائنيه حيث ما كانوا

نذراً علي وعهد لا رجوع به … لكم وذلك تقدير وعرفان

أني سأبقى بعون اللّه أنشر من … أفضالكم ما طوى جهل وأضغان

وسوف أرفع في الآفاق رايتكم … شرقاً وغرباً، ومنها الكون يزدان

ليرغم الحق كل المبطلين بما … أجليه متضّحاً ما فيه كتمان

وسوف أخزي أعاديكم وأخذلهم … وشأنهم دائماً خزي وخسران

إني سأرجع من طوس إلى بلدي … فجراً وقلبي بكأس البشر نشوان

وقد تحقق لي ما كنت أطلبه … وهل يخيب لدى الأجواد ضيفان

ذي تحفة النمل أهديها الحضرة من … سلمانهم بعد تصغير سُلَيْمان

خريدة من بنات الفكر فاتنة … لها من الحسن والإبداع ريعان

إنّي السليميُّ مولاكم وعبدكم … يا من لديهم ملوك الأرض عبدان

عليكمُ صلوات لا حدود لها … ولا يحيط بها حصر وحسبان

تدوم ما دامت الأفلاك دائرة … وما بدا قمر فيها ، وكيوان

ب ـ القصيدة الثانية وهي المسماة «شكاية وندبة» وفيها مقدمة منه أيضاً :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين ، وبعد : هذه قصيدة متواضعة ، باقية من أيام بلوغي ، تذكّرني زمان شبابي . ولما عرضتها على والدي الماجد أعلى الله مقامه ، فرح أولاً ، واستبشر ورحّب بي . ولكنه قال لي : «يا ولدي ، إنَّ الشعر شغل شاغل عن العلم والتعلم . إني أريد منك أن تكون عالماً مجتهداً ، خادماً للدين ،

ومرجعاً للمؤمنين ، ومرشداً لهم بقلمك ، ولسانك ، وأخلاقك !» .

وإليك القصيــدة :

لي رتبـة فـوق الثـريـا تــزهـر	كـالشمس دون العـالمين تنوّر
ما لي شبيه في الـزمان ممـاثل	حتى العلى في رتبتي مـتبهـر
أنا والكمال مساوقان ومجدي السّـ	ـسّامي على الأكوان أمسى يزهر
الدهر كالصدف الحقيـر وإنني	كـاللؤلؤ المكنـون فيـه مقـرر
مـا هذه الحشـرات حتى إن أبا	شـرُهُمْ وإني جـوهـر متصـور
أيسـوغ لي حتى أعاشـرهم فلا	أيعـاشر الفحم الـدني الجوهـر
لكنني أتجـرَّع الغصص التي	فيهـا يحـار العـاقـل المتـدبـر
ولأصبرنّ لـوقعهـا حتى يقــو	م ويظهر المهـدي ذاك الأطهـر
ولأشكــونّ ظليمتي لجنـــابـه	ولأدعــونّ بــه وقـلبي يسعــر
يا صاحبي والعصر عجل قم وخذ	ثـاري من البهم التي لا تشعـر
(يـا نقـطة الأمكـان والأكوان يا	مــن للنهــار وللظلام مـدبـر)
(لك ملك ما في العالمين وأنت في الـ	أشيــاء تفعل مـا تشاء وتقـدر)
(قد حزت دون الكائنات مراتباً(*)	فيهــا عقــول الأنبيــا تتحيـر)
(يا أول ، يا آخر ، يا ظاهر ،	يا باطن ، يا مهلك ، يا منشر)

ملاحظــة :

(*) هـذه الأبيات الستـة من بعض مقـامـاتهم الملكـوتيـة سـلام الله عليهم ، وإنهم محـالّ مشيئته ، وألسن إرادته ، جلّ وعلا ، كما في الزيارة المروية عن الكافي : (إرادة الرب في مقـاديـر أمـوره تهبط إليكم ، وتصـدر إليكم من بيـوتكم) . ومن جملة الأدعيـة الرجبية :

بسم الله الـرّحمن الرّحيم : (اللّهمَّ إني أسـألك بمعـاني جميـع مـا يـدعـوك بـه ولاة أمـرك . . إني أسألـك بما نـطق فيهم من مشيئتك ، فجعلتهم معـادن لكلماتك ، وأركـانـاً لتـوحيدك ، وآياتك ، ومقـامـاتـك التي لا تعطيـل لها في كـل مكـان ، يعـرفـك بهـا من عرفك ، لا فرق بينك وبينها ، إلاّ أنهم عبادك وخلقـك) كالقلم بيد الكاتب ، لا يجـري إلاّ بـإرادة الكاتب . والعقـل الكلي هو القلم الأعلى وأعـظم الأسباب في الأمـور كلها و (أبى الله أنْ يجري الأمور إلاّ بأسبابها) .

(يا من تفرّد بالبيان مجرّداً حتى عن التجريد وهو مصور)
(أنت الصفات وليس مثلك في العلى شيء أيا من في العلى متصدر)
مالي أراك مغمداً سيف الذي ما دام في قتل النواصب يظهر
ماذا يهيجك سيدي أوماترى الـ إسلام بين الكفر كيف محقر
أو ما كفاك شهادة الآباء والـ أجداد يا ليث الغيور القَسْوَرُ
سلْ سيفك البتّار وانهض آخذاً ثاراً بيوم الطف أمسى يوتر
هذا الحسين وأنجم من هاشم وقفوا محلاً دونه والمحشر
يتسابقون إلى المنيّة مسرعيـ ـنَ كأن ذاك اليوم عيد أكبر
وتعانقوا الأرماح والأسياف حتـ ـتى قد مضوا وبكاهم المتصور
بأبي بدوراً من سما مجد الرسو ل هوت على حرّ الثرى تتدثر
فبقى حسين بعدهم متفرداً متحيراً بين العدى يتحسّر
ويصيح هل من ناصرٍ ومجاهد وأنا ابن بنت نبيكم الأطهر
فبقى فداه أبي بغير مجاوب إلّا الرماح مجيبة والبُتَّرُ
فمضى إليهم قابضاً بالصارم الـ هندي وهو مقاتل ومكبّر
حتى قضى عطشاً على حرّ الثرى ولأمه أنهارها والكوثر
فبقتله انهدم العلى فمحدّب الـ ـكرسي صار من القضا يتقعّر
ونعى الأمين منادياً بين السما والأرض للأكوان وهو يكرّر
قتل الإمام ابن الإمام أخو الإما م أبو الأئمة وهوذا متعفر
وبقتله انثلم العلى فغدت بنو عدنان ليس لهم سراج نيّر
إلّا العليل مقيّداً فوق الهزيـ ـل وقد غدا بيد العدى يتأسّر
بأبي ذبيحاً قد فُدي عن جدّه بوجوده وهو الذبيح الأكبر
بأبي قتيلاً واقعاً فوق الثرى عاري اللباس مرمّل ومعفّر
طحنوا ضلوعاً كامنٌ في طيّها علم العليم وسره المتستّرُ
وأمرّ يوم للورى يوماً غدت فيه بنات المرتضى تتأسّر
أمست بلا خدر ولا خمر[1] عن الـ أنظار وهي بكفّها تتستّر

(١) خمر : خمار أي حجاب .

ومساقة نحو الدعيّ بذلّة فانظر أيا مولى الغيور القسور
حاشا لغيرتك العلية أنْ ترى تلك المصائب وهي لا تتأثر
عجّل أيا مولى الموالي مسرعاً نحو الموالي إنهم قد دُمّروا
صلّى الإله عليكمُ ما دام بَدْ رُ الليل ينور والكواكب تزهر
حسن بن موسى الحائريُّ عبيدكم يرجو النجاة إذا أتاه المحشر

ج ـ وله هذا التخميس :

بأبي وأُمي بنت سيدة الورى أمست أسيرة شرّ أنذال الثرى
تدعو ابن والدها أيا سامي الذُرى أنعم جواباً يا حسين أما ترى
شمر الخنا بالسوط كسّر أُضلعي

قد غبت عنا يا أخي فتركتنا بين اللئام أيا فقيداً عزّنا
أرضيت يا عزّ الكرام بذلّنا فأجابها من فوق شاهقة القنا
قضي القضا يا زينب فاسترجعي

أُختاه ما هذا البكاء بمنظري فبحقّ شيبتي الخضيبة إصبري
لا تحرقي قلبي ولا تتضجّري وتكفلي حال اليتامى وانظري
ما كنت أصنع في حماهم فاصنعي

د ـ وله أيضاً هذا التشطير البليغ :

وقبل ذكره ، نروي لكم حوله قصة من لسانه حفظه الله ، وأدام ظله العالي .

يقول في أحد مجالسه العلمية بأن سيداً من الأشراف والأعلام دخل ذات يوم إلى مجلس وفيه العلماء والأدباء وقال : «إني رأيت البارحة أحد الأئمة في منامي ، وقال لي أبياتاً شعرية نسيتها ، ولم أحفظ منها إلاّ الشطر الثاني من البيت الأخير وهو (ومنا المنادي ومنا السميع)» . وقال : «من منكم يستطيع أن يأتي على وزنها بأبيات في نفس المعنى

والمضمون» . فقال أحد الأدباء : أنا أستطيع . فقال له السيّد قدس الله سره : أنشدناها . فقال :

سبقنا الأَنام فلا قبلنا سوى من برانا فمنا الصنيع
فذا الخلق منا إلينا لنا ومنا المنادي ومنا السميع

فقال له السيد : «لا فضّ فوك إنها والله ما سمعته من الإمام في منامي بالحرف الواحد» . فجزى الله هذا الأديب العظيم ، وقدس الله سر السيّد ، وأسكنه الله فسيح جنانه ، فشطرها بعد ذلك الميرزا حسن الحائري حفظه الله بقوله :

سبقنا الأنام فلا قبلنا (وجود فذاك مقام منيع)
(تعالىٰ علانا فما فوقنا) سوى من برانا فمنا الصنيع
فذا الخلق منا إلينا لنا (علينا يكون حساب الجميع)
(وينفخ في الصور من أمرنا) ومنا المنادي ومنا السميع

٩ ـ أوراده :

ومن أوراد هذا العالم الجليل، الزاهد المتهجد ، ما كتبه بطلب أحد المؤمنين، أوراد خاصة وعامة ، وهذا نصّه :

(أ) قبل الفجر بعد صلاة الليل تقول : «لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم (١١٠ مرّات) . ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله» (١١٠ مرّات . «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلاَّ الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم» (٤٠ مرة) .

(ب) بعد صلاة الفجر مباشرة بعد تسبيح الزهراء (ع) تقول : «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلٰه إلاَّ الله ، والله أكبر» (٤٠ مرّة) . وتصلّي على محمد وآل محمد (١٠٠ مرّة) وبعد طلوع الشمس لا حول ولا قوة ، إلاَّ بالله (١١٠ مرّات) . أفوض أمري إلى الله إن

الله بصير بالعباد (١١٠ مرات) . تـوكلت على الله (١١٠ مرات) . يا غفور يا رحيم (١١٠ مرات) .

(جـ) وقبـل الزوال : «لا إلٰـه إلّا أنت سبحانـك إني كنت من الـظالمين» (١١٠ مرّات) ولا حول ولا قوة إلّا بالله (١١٠ مـرّات) . استغفر الله وأتوب إليه (١١٠ مرّات) .

(د) وقبـل غـروب الشمس : «اللّهمَّ إلعن أول ظـالم ظلم حق محمـد وآل محمد ، وآخر تـابع لـه على ذلك» (١١٠ مرات) . و «لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم» (١١٠ مرّات) .

(هـ) وأما الدعوات بعضها من المذكورات في كتب الأدعية .

(و) وأمـا السور المبـاركة : فبعـد صلاة الفْجـر : (إذا وقعت الواقعـة ، والشمس وضحاها ، والفجر وليال عشر ، وسورة يس) .

وبعـد صـلاة العصـر : (عم يتسـاءلـون ، والشمس وضحـاهـا ، والفجر وليال عشر) .

وبعـد صلاة العشـاء : (إذا وقعت الواقعـة ، والشمس وضحاهـا ، والفجر وليال عشر ، وسورة يس) .

وقبـل النوم : «إذا وقعت الـواقعة ، والشمس وضحـاها ، والفجـر وليـال عشر ، وسـورة الجمعة» ولـذكـر (اللّهم صـلِّ على فـاطمـة وأبيها وبعلها وبنيها) أوقات خاصة مباركة .

ملحـوظـة :

بعد صلاة نافلة العشاء (الـوتيرة) مبـاشرة سـورة الحشر **﴿سبّح لله مـا في السمٰوات ومـا في الأرض وهـو العـزيـز الحكيم﴾** . وبعـده بقيـة السـورة المذكـورة . تلاوة القـرآن الكريم قبـل صلاة الفجـر أو بعدهـا ، طبقاً لوظيفة كل مؤمن ومؤمنة .

الصفحة المشرقة لأعمال وجهود المترجم دام ظله

١ ـ مسجد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في (جنينة/ سورية) .

٢ ـ مسجد الإمام الصادق عليه السلام في (صافيتا/ سورية) .

٣ ـ الحسينية السجادية على مشرفها ألف صلاة وتحية في خراسان (مشهد) إيران .

٤ ـ الحسينية الفاطمية في قرية (السيدة زينب ـ سورية) .

٥ ـ حسينية الإمام السجّاد عليه السلام في محلة ليس فيها مسجد ولا حسينية بقشي أباد (طهران/ إيران) .

٦ ـ حسينية فاطمة الزهراء سلام الله عليها الوحيدة للجعفرية في (بومباي/ الهند) .

٧ ـ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام المعظمة (كراتشي/ باكستان) .

٨ ـ بناء مدرسة مجللة (درس آل محمد) صلّى الله عليه وآله وسلّم مساحتها (٨٠٠٠ م٢) (فيصل آباد/ باكستان) .

٩ ـ بناء مسجد عظيم فرع (درس آل محمد) صلّى الله عليه وآله وسلّم (فيصل آباد/ باكستان) .

١٠ ـ مكتبة معظمة ـ فرع (درس آل محمد) صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ومساكن للمدرّسين (فيصل آباد/ باكستان) .

١١ ـ بناء مدرسة (الثقلين) للذكور (ملتان/باكستان) .

١٢ ـ بناء مدرسة (الثقلين) للإناث (ملتان/ باكستان) .

١٣ ـ مسجد فرع (الثقلين) (ملتان/ باكستان) .

١٤ ـ بناء مدرسة ضخمة (درسگاه فاطمة زهراء) عليها السلام للإناث (فيصل آباد/ باكستان) .

١٥ ـ بناء دار الأيتام فرع (درسگاه فاطمه زهراء) لأيتام الإمام علي ،

وفاطمة الزهراء ، عليهما السلام (فيصل آباد/ باكستان) .

١٦ ـ إدارة مدرسة باقر العلوم المفوّضة إلى سماحته من قبل العلماء (مكهنا نوالي / باكستان) .

١٧ ـ بناء مدرسة الزينبية للإناث فرع باقر العلوم (مكهنا نوالي / باكستان) .

١٨ ـ إدارة مدرسة حوزة الصالحين المفوّضة إلى سماحته (فيصل آباد/ باكستان) .

١٩ ـ تأسيس دار العلوم الدينية (فيصل آباد/ باكستان) .

٢٠ ـ (إدارة القائم) أرواحنا فداه ـ مركز التبليغات الإسلامية في (مكهنا نوالي / باكستان) .

٢١ ـ عدة عمارات (دور الأيتام) لأبناء علي وفاطمة عليهما السلام في (الهند) و (باكستان) .

٢٢ ـ تزويج العلويين والعلويات ، حوالي ألف نسمة ، والأمر جارٍ حتى الآن في (الهند) و (باكستان) .

٢٣ ـ بناء مركز للوعظ والإرشاد (ساحل العاج/ أفريقية) .

٢٤ ـ بناء مدرسة دينية للأطفال ، وتكميل ما تحتاج إليه المساجد (تايلند) .

٢٥ ـ مساهمة في تأسيس المساجد والحسينيات في مختلف المناطق الجعفرية في (أمريكا) و (أوروبا) و (أوستراليا) .

٢٦ ـ تأسيس مجلة (الثقلين) في نشر فضائل أهل العصمة والطهارة عليهم السلام (ملتان/ باكستان) .

٢٧ ـ تأسيس مجلة (المودّة) في نشر فضائل أهل بيت العصمة عليهم السلام (فيصل آباد/ باكستان) .

٢٨ ـ تأسيس مجلة (الخاتون) (نسائية) في نشر فضائل أهل بيت العصمة عليهم السلام (فيصل آباد/ باكستان) .

٢٩ ـ مساهمة في مجلة (نداء الشيعة) الأسبوعية في نشر فضائل أهل بيت العصمة عليهم السلام (لاهور/ باكستان) .

٣٠ ـ طبع عشرات من الكتب والرسائل في فضائل أهل بيت العصمة عليهم السلام ، ونشرها في (الباكستان) .

كل هذه المشاريع تمّت في مدة أقل من عشر سنين ، والحمد لله رب العالمين .

٣١ ـ وقد ترجمت رسالته دام ظله (أحكام الشيعة) إلى الفارسية والأردية ، والسندية ، والانجليزية ، والفرنسية ، ونشرت في المناطق الجعفرية في الدول الاسلامية كافة وجميع أنحاء العالم .

وقامت جمعية (لجنة المساجد والخدمات الدينية) التي أسسها سماحته (حفظه الله) بما يلي :

١ ـ الإشراف على الحسينية الجعفرية ـ في مدينة (الكويت) .

٢ ـ الإشراف على مسجد الصحاف ـ في مدينة (الكويت) .

٣ ـ الإشراف على جامع الإمام الصادق (ع) في مدينة (الكويت) .

٤ ـ الإشراف على الحسينية العباسية (المنصورية) الكويت .

٥ ـ الإشراف على مقر الإمام الباقر (ع) في مدينة (الكويت) .

٦ ـ الإشراف على مسجد سيدنا جعفر بن أبي طالب (رض) (الصليبخات) الكويت .

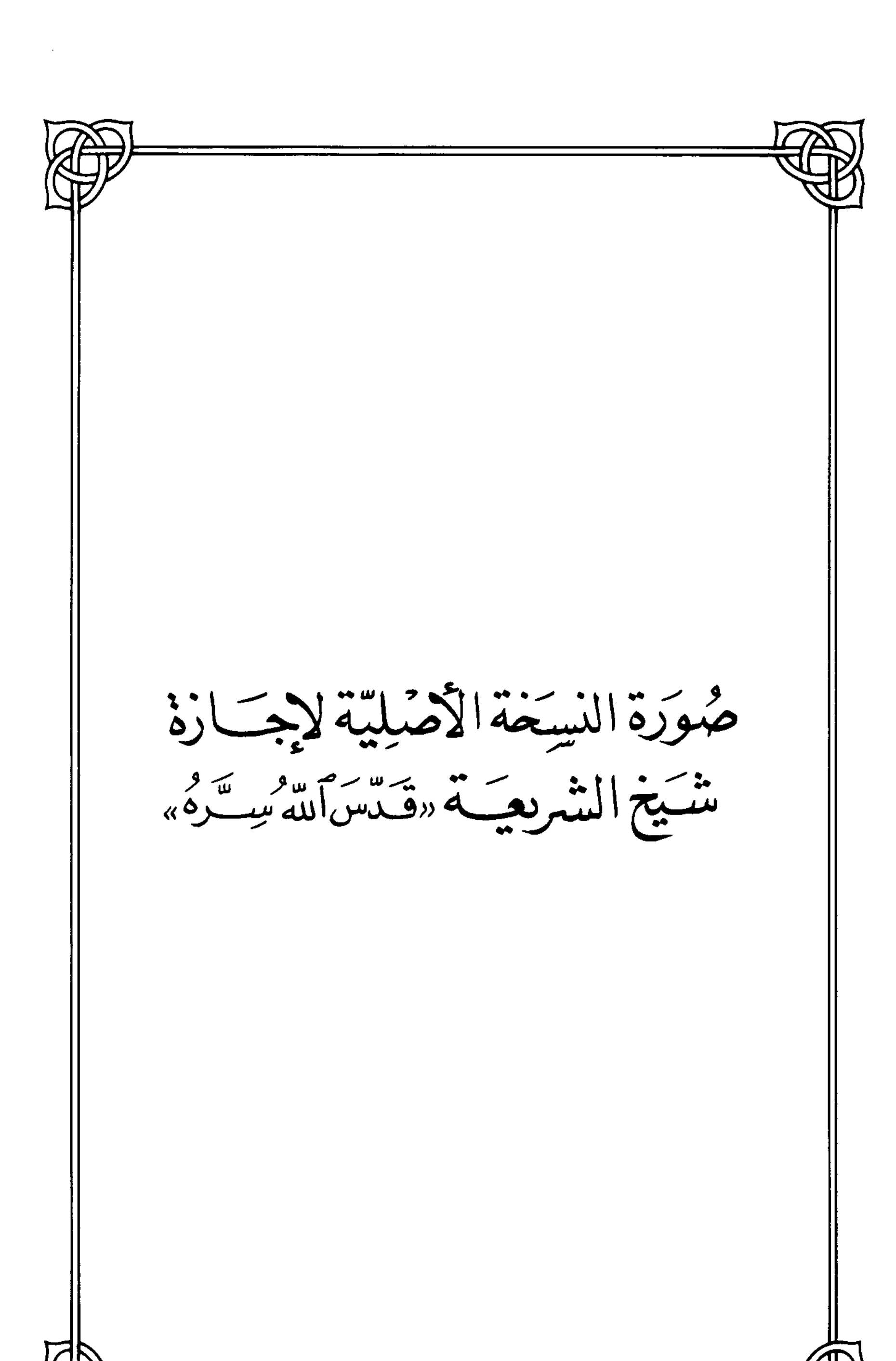
٧ ـ الإشراف على مسجد الأمير في (منطقة الشعب) الكويت .

٨ ـ الإشراف على حسينية الحائري ، والإمام المصلح هو المتولي على جميعها .

والحمد لله رب العالمين

هَيئَة المَسَاجِد والخَدمَات العَامّة
جَامِع الإمَام الصَّادِق (ع) ـ الكويت





صُورَة النسخة الأصليّة لإجازة شيخ الشريعة «قدّس الله سِرَّهُ»



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي خلق الانسان علمه البيان وسلك بهم

سبل الهداية باعلام الادلة والبرهان وارسل اليهم رسلا مبشرين

ومنذرين ليخرجهم من ظلمات الكفر الى انوار الايمان والصلوة والسلام

على اشرف الانبياء والمرسلين وسيد ولد عدنان محمد الذي بعثه

على العباد ناسخا لجميع الشرائع والاديان وحجة بالغة قائمة

على الانس والجان [illegible] كافة العوالم والاكوان وعلى آله اوصيائه

الطاهرين المعصومين من كل خطا ونسيان عليهم افضل صلوات

الملك المنان ولعنة الله على اعدائهم ومخالفيهم مقتضى الفسوق

والعصيان والتمرد والطغيان وبعد فلما كان جنابه

العالم الفاضل والكامل الباذل فخر العلماء العظام وذخر الفضلاء

الاعلام مروج الاحكام ثقة الاسلام المولى الالمعي [illegible]

١

الآغا ميرزا حسن سلمه الله تعالى ابن حجة الاسلام والمسلمين
عماد الملة والدين شيخ الفقهاء والمجتهدين العلامة الحاج ميرزا ابو القاسم
الاسكوئي الحائري متع الله المسلمين بطول بقائه ونفع الله المؤمنين بانوار
فيوضاته فرحا ابتداء سنه وعنفوان شبابه جامعا للكمالات وفاحصا
عن المشكلات تدرك الفقه والاصول ونال درجة رفيعة من المعقول
والمنقول واتقن الفنون وتطلع بالمذاكرة والدرس والتدريس والكتابة
وتشغف بتحصيل العلوم الرياضية والخوض في لجج [illegible] حصلت له
بحمد الله ملكة يقتدر بها على استنباط الاحكام الشرعية عن ادلتها
استجاز من الاحقر الجاني للدخول في زمرة حملة الاخبار وسلسلة
رواة الآثار وحفظا لسلسلة الروايات بالاتصال من الارسال
وصونا لها عن الاندراس والاهمال فاجزته وفقه الله لمرضاته
وبلغه الى اعلى [illegible] ان يروي عني بما عن مشايخي الآتي ذكر بعضهم
في خاتمة الاجازة كلما صح لي روايته وجاز لي اجازته من روايتي

الأخبار الساطعة الأنوار من الكتب المعروفة المشهورة المتداولة

بين العلماء الأخيار خصوصاً الكتب الأربعة التي عليها المدار

في الأعصار والأمصار وهي الكافي والفقيه والاستبصار والأربعة

الأخيرة الحديثة الجامعة لشتات الآثار وهي العوالم والوافي والوسائل

والبحار وسائر كتب الشيعة من التأليفات والتصنيفات

وجميع ما خرج من قلمي من مؤلفاتي وتصنيفاتي وتقريراتي

وسائر تصانيف مشايخي وأساتيذي الأساطين

أعلى الله مقامهم ورفع في الخلد أعلامهم وأوصيه سلمه الله

بالتمسك بحبل الاحتياط وملازمة أقوم الصراط وممارسة

كتب الأخبار وأحاديث العترة الطيبين الأطهار

وأن لا ينساني من صالح الدعوات في أوقات الخلوات

وأدبار الصلوات والله خليفتي عليه وهو الحفيظ نعم الوكيل

ولنختم الإجازة بذكر طريق واحد من طرقي ومشايخ

إجازاتي

اجازاتي لأنها كثيرة عندي لا يسع الوقت ذكرها

وطرقها ونكتفي بذكر أعلاها سنداً وأشرفها سلسلة

فأقول أجزته سلمه الله أن يروي عني عن السيد السند [illegible]

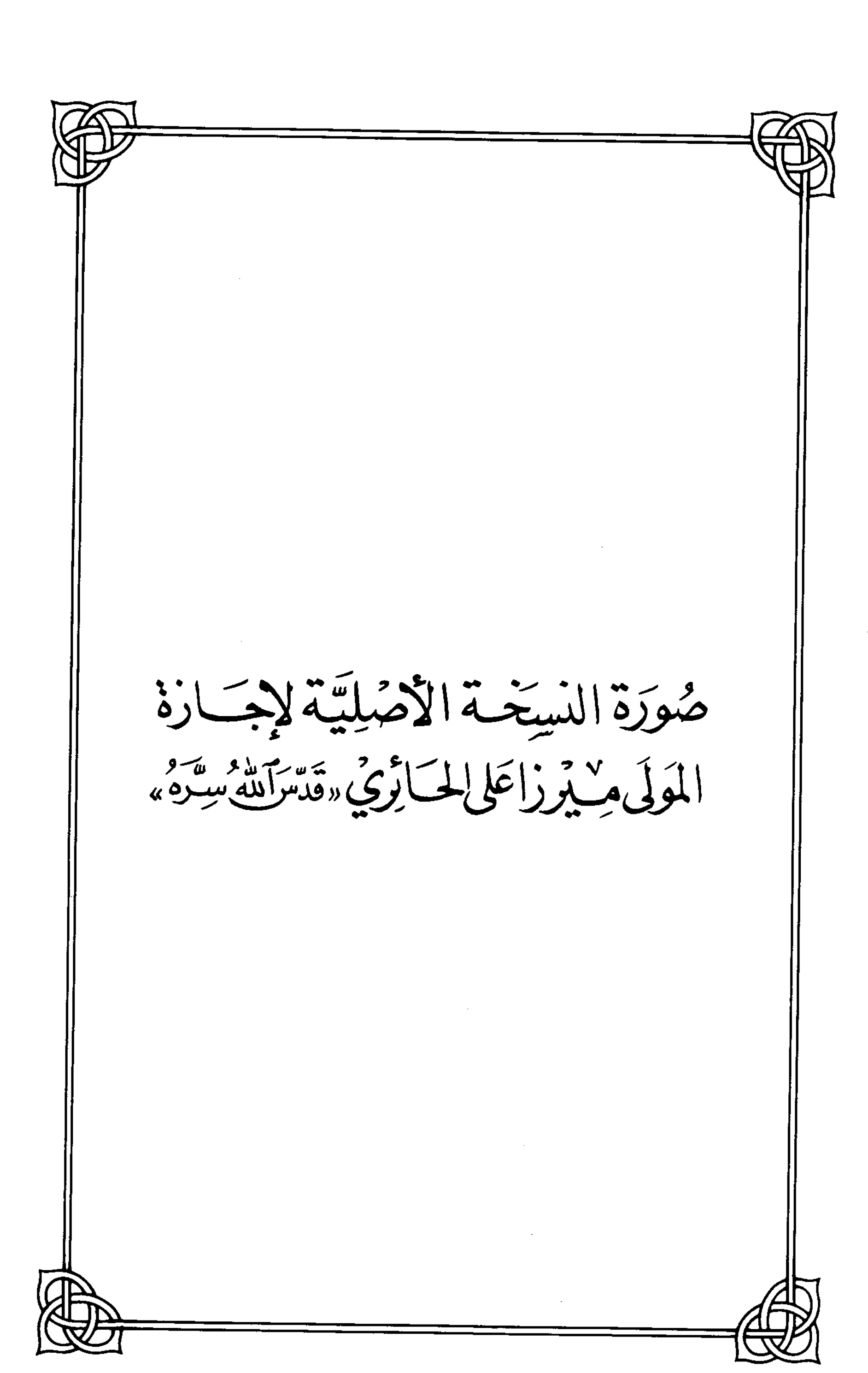
عن جده الجليل العظيم صاحب الكرامات السيد [illegible] عن [illegible]

بحر العلوم عن الوحيد البهبهاني عن والده الأجل المولى أكمل عن [illegible]

المجلسي بطرقه المذكورة في أوائل الأربعين وأوائل البحار [illegible] المجلسي

الحر العاملي بجميع طرقه المذكورة في آخر الوسائل ويكون الوصل [illegible]

[illegible]



صُورَة النسخة الأصليّة لإجازة
المولى ميرزا علي الحائري «قدّس الله سرّه»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرمنا بالقلم . وعلّمنا ما لم نعلم وفضّلنا بنبينا الأكرم
على سائر الأمم صلى الله عليه وسلم وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين سادات
العرب والعجم وأولياء النعم صلاة يعجز عن وصفها الواصفون وعدّها العادّون
أما بعد فلمّا كان من أبلغ حِكَم الله وأسبغ نعمه أن
جعل علماء حكماء لحفظ دينه وأحكامه صائنين لشرائعه وحدوده عن
الاندراس والتلف فجعل يتلقى الخلف منهم عن السلف ما حملوا من
علوم وأخبار وأسرار وآثار فنالوا بذلك أتمّ المواهب وبلغوا أسنى
المراتب .. وكان ممن أخذ بالحظ الوافر وأعلى النصيب من أقداح
المعلّى والرقيب شقيقي وسنادي وثقتي وعمادي الفاضل الكامل
العلامة والعارف الباذل الفهّامة عضدي المؤتمن الحاج الأمير حسن
الحائري الأصفهاني بلّغه الله مناه في عقباه ودنياه وجعله مرجعاً للأنام و
كافلاً للأيتام فإنه قد تلمّذ عند والدنا المعظم روحاً وجسداً المولى الحاج الميرزا
موسى الحائري قدس الله تربته الزكية وحضر عندي وعند بعض الأساتذة
الكرام فحصل بحمد الله تعالى ولله الحمد ملكة يقتدر بها على استنباط الأحكام الشرعية
عن أدلتها التفصيلية كما أشار لذلك والدنا المقدس المذكور أعلى الله مقامه
ورفع في جنان الخلد أعلامه في إجازته له سلّمه الرحيم فبلغ مبالغ الرجال
وصار أهلاً لأن تحط لديه الرحال ويتميز عنده صحيح الحق من سخيف المقال
ويطلب منه حل المشكلات من الآيات والروايات .. وقد أجزته أن يروي
عني جميع مقروءاتي ومسموعاتي ورسائلي وتأليفاتي مما ظهر من قلمي

أو يظهر

او يظهر. وان يروي عن سائر الكتب والاخبار اتا لمصنفا الانوار والادعية و
المواعظ والاذكار سيما نهج البلاغة والصحيفة العلوية والصحيفة السجادية العلية المنار
والكتب الاربعة المشهورة التي عليها المدار في جميع الاعصار والامصار الكافي ومن
لا يحضره الفقيه والتهذيب والاستبصار والجوامع الثلثة المعروفة الوافي والوسائل
وبحار الانوار وسائر ما صنف والف في الاسلام من العلماء الاعلام ولضعف
بصري وضعف قواي معتذر من ذكر تفصيل مشيخة اجازاتي وبعضها مذكور
في اجازة والدي المقصر المفصلة اياي فالتفصيل موكول اليها وقد تقدم ذكره في الاجازة
وكان الترخيص لعامة اهله تحريرا في سنة الخمس والستين بعد الالف والثلثمائة من الهجرة
النبوية على هاجرها الف الصلوة والتحية وانا الاحقر الفاني علي محسن بن محمد باقر بن محمد سليم الرازي

واوصيه سلمه وجعلني فداه بالورع والتقوى والاحتياط في التحديث والفتوى فانه المنجي
من الوقوع في المهالك عند ضيق المسالك قال عليه السلام اخوك دينك فاحتط لدينك
والتجنب عن مجالسة اهل الدنيا الاغنياء فانها تقسي القلوب وتنسي دار البقاء وعليه بالرأفة
والتحنن على الايتام ومرافقة الفقراء حتى ينال الرضا والثواب يوم الجزاء ولا ينساني من دعاء
الخير في الحيوة والممات واسئل الله لي وله التوفيق وحسن العاقبة والتوفيق خيرها حسن ورفيق
وانا الاحقر الفاني اخوه وشقيقه علي محسن الكاظمي عفي عنهما وجعل مآلهما خيرا من ماضيهما



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على أرباب الفضل والحجى أنّ ما أتوخّاه من الموضوعات المندرجة في (رسالة الإنسانية) سواءً في هذا الجزء، وفي الجزء الثاني، والأجزاء التي ستطبع بعدئذٍ إن شاء الله هو بيان مكارم الأخلاق. وإذا تطرقنا استطراداً إلى بعض المواضيع العلميّة والفلسفيّة، أو تحدّثنا عن الطب والصّحة العامّة، أو أوردنا شيئاً من العلوم الأخرى فذلك لمجرّد التمهيد إلى الأغراض الخلقية... ولهذا لم أكن بصدد التحقيق في تلك المسائل العلميّة، وفي الحقيقة فإنها عبارة عن الخطب والمواعظ التي كنت ألقيها في الجامع بعد صلاة الجماعة، بين ثلّة من إخوتي في الإيمان.

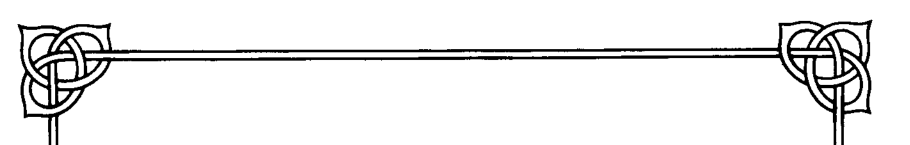
وحيث كان أغلب الحائزين على الحدّ المتوسّط من الثقافة، من روّاد المساجد والمجالس الدينيّة، لا يملكون أرضيّة لتلقّي الأبحاث العلميّة العميقة، فإنّهم يملّون من غور هذه الأبحاث.

وهذا ما دعاني إلى جعل أسلوب البحث منسجماً مع المستوى العام لجميع المستمعين والقرّاء الكرام، كي لا يختصّ بطبقة معيّنة.

وقد تخلّيت عن سرد القصص والأمثلة المطوّلة، ولولا ذلك لأصبح الكتاب ضخماً... لذا فإني أترك الأشعار المناسبة والقصص والحكايات المؤيّدة، إلى ذوق القارئ الكريم، وبخاصّة إذا كان من أهل الخطابة حيث صدره مليء بمثل ذلك.

الحائري الإحقاقي



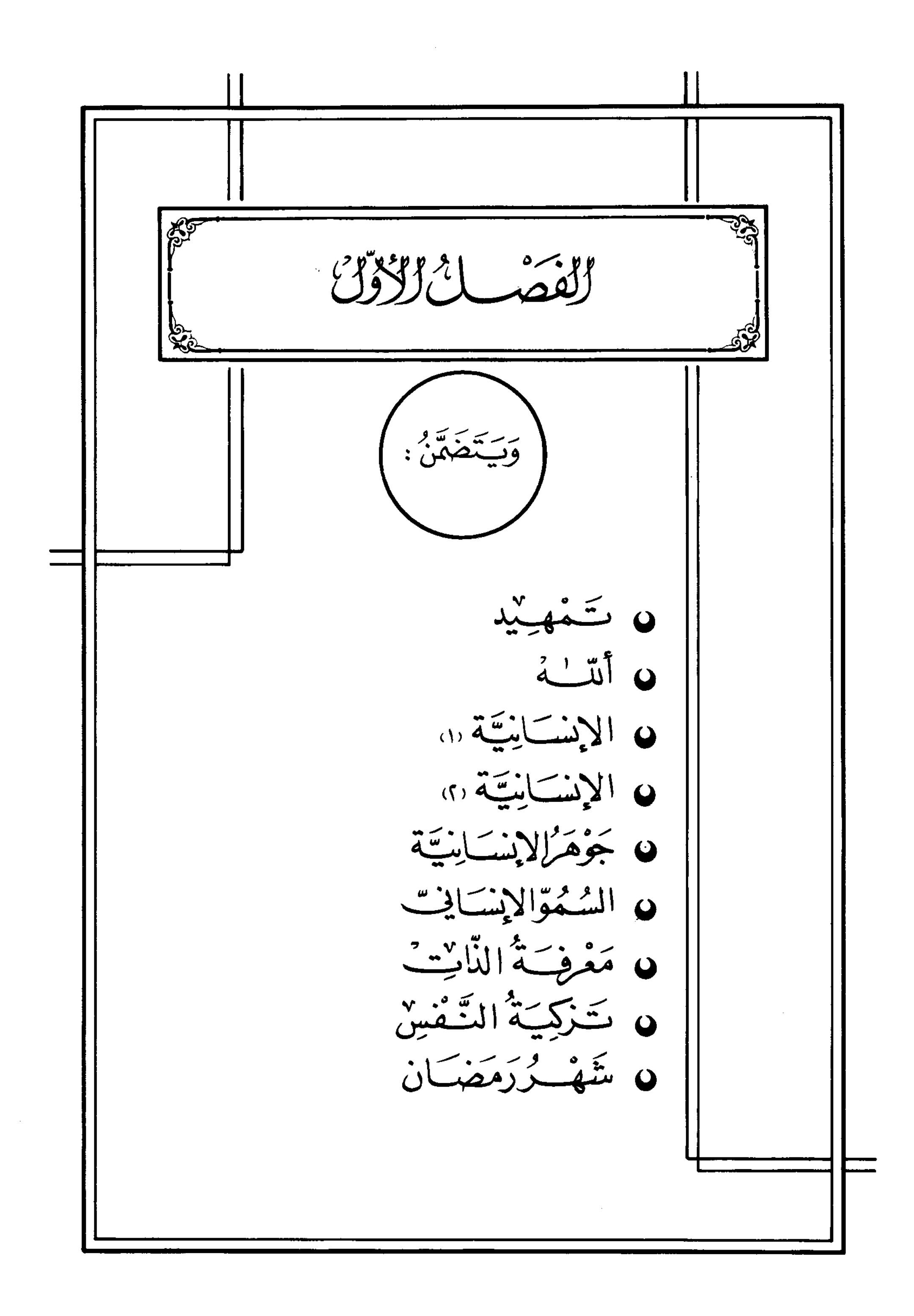


رسالة الإنسانية

الجزء الأول

وتشتمل على أربعة فصول

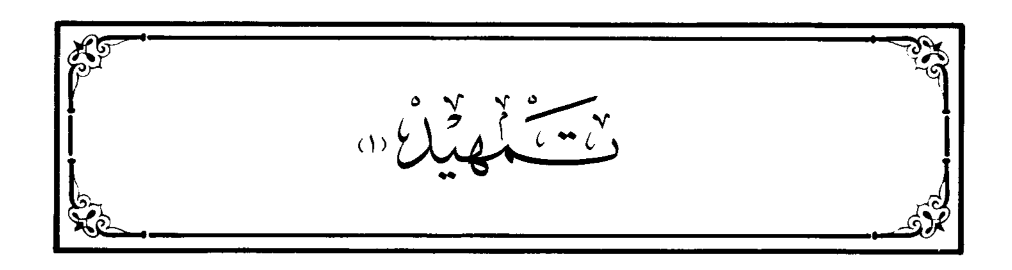




الفصل الأوّل

ويتضمّن:

- تمهيد
- ألله
- الإنسانيّة (١)
- الإنسانيّة (٢)
- جوهر الإنسانيّة
- السموّ الإنسانيّ
- معرفة الذات
- تزكية النفس
- شهر رمضان



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلَق الإنسان بقدرته ، وجعل هذا المظهر التوحيدي أعظم حججه ، والثناء الذي لا يحدّه شيء

---

(١) الكتاب الحاضر الذي يحمل عنوان (رسالة الإنسانية) واحد من عشرات الآثار العلمية التي صاغها قلم المحقق العظيم والعارف الجليل **سماحة آية الله العظمىٰ الميرزا حسن الحائري الإحقاقي** .

يتألّف هذا الكتاب من جزءين، يتحدث كل منهما عن الإنسان وعوارضه النفسانية ، وأفكاره المتناقضة . ولقد قام المحقّق الجليل بغور أعماق هذا الكائن العجيب ، متعرضاً ـ ضمن عناوين بارزة ـ إلىٰ الوجود الظاهري والباطني له ، كي يستفيد الجميع من ذلك ، ويقفوا على المقدرة الأدبية والرشحات الفكرية لهذا الفقيه العارف .

لذا فقد قمت بكتابة شرح وافٍ على هذين الجزءين ، موضحاً أسس التربية الأخلاقية في الإسلام حسبما أوضحه المؤلف .

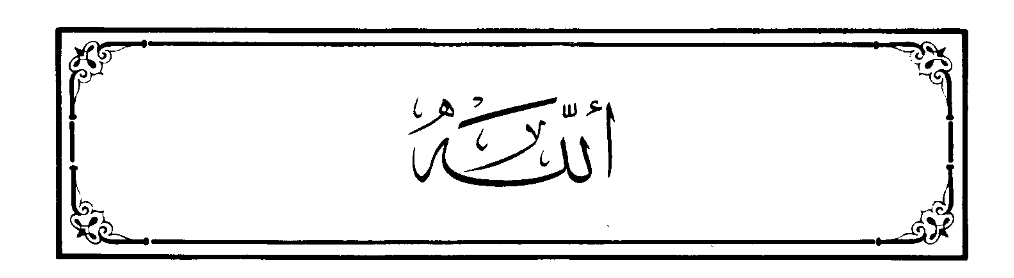
ولا تقتصر جهود المؤلّف على الحقل العلمي ، فإنّه يتصدّىٰ لمسؤوليات جسيمة ، فبينما يهتمُّ للإجابة على مئات الرسائل يومياً ، ويشرف على مشاريع ضخمة أنشأها في مختلف البلدان الإسلامية ، ويقوم بجهود جبارة في سبيل خدمة الدين والمذهب ونشر أحكام أهل البيت عليهم السلام ، يصرف شطراً من وقته في مجال التأليف وإسعاف القراء الكرام بآثاره القيّمة .

الشارح

على أشرف ولد آدم ، وخاتم الأنبياء والرسل ، الذي أتىٰ بني الإنسان بأحكام الإنسانية ، وشرَّع قانونها في إطار التعاليم الإسلامية ، وأكمل السلام والتحية على من تجلت الولاية الكبرىٰ في جبهته وتزيَّنت الخلافة العظمىٰ بالإستقرار على أعطافه ، وعلى زوجته الطاهرة ، وأولاده الكرام البررة ، الذين تولّوا تربية الوجود بأسره ، والبشرية خاصة ، والذين هم كالشمس والقمر والنجوم ، مشاعل الهداية ، وقادة الأمَّة .

. . . وعلى شيْعتهم ومحبّيهم الذين يكمن وراء مظهرهم البشري المتألّق ، واقعهم الإنساني الناصع ، ويحملون من أشعة ولاء مولاهم ، وفي ظلال حبّه ، بين جوانحهم قلباً متيّماً ، وفي طلعتهم نوراً ساطعاً .

. . . واللعنة الدائمة والغضب الأبدي على أعدائهم ، أبالسة العالم ، وبؤرة الشرّ والشّقاء ، والمتعطشين إلى دماء بني الإنسان .



باسمك المقدس ، يا واهب الوجود ، أزيّن الصفحة الأولى من رسالة الإنسانية ، وقد شدَّني الشوق للقاء المحبوب إلى سلوك طريق الحق والحقيقة في أتمّ النشاط .

ها هو جمالك الفتَّان الذي سخَّر روحي القويّة بجاذبيّته الإعجازية ، وها هو حسنك الأخَّاذ الذي ضمن وجودي بتجلّيه الوديع .

إنَّ فؤادي ينظر إليك بعين البصيرة ، وقلبي يسمع نَغَمك الربوبي في كل آن[1] ،

---

(١) هذا الفقيه العارف منشدٌّ إلى الباري جلَّ وعلا ، بحيث يرىٰ الشوق نحو لقاء الله أعلىٰ درجة في الكمال وغاية الخلق والإبداع . وهذا هو خطّ جميع العرفاء من الشيعة الذين يرجّحون طريق السير والسلوك والتصفية والتزكية ويلتزمون به .

إنَّ المعرفة الاستدلالية التي يبحث عنها الحكيم لا تتجاوز حدّ التصورات والمفاهيم الذهنية ، ولكن المعرفة الإفاضيّة التي يبحث عنها العارف نوع من = الوصول والتذوّق .

لقــد دنَّس هؤلاء الفــلاسفــة ، ذوو النـظرة القصيرة ، الجمال الطبيعي والحسن الأصيل لمعرفة الله بغبار الاستدلال ، وبذلك أسدلوا من البراهين الفلسفية والمنطقية حجـاباً على أنفسهم دون الحقيقة[1] .

= في المعـرفة الاستـدلالية يقتنـع العقل في بـاطن الشخص ، أمَّا في المعـرفـة الإفاضية فإنَّ النشاط يدبّ في جميع أجزاء الإنسان وأعضائه ويتقـرَّب إلى الله . هذا النوع من المعرفة ينير الوجود الإنساني ، ويمنحه القـدرة والجرأة والمحبـة ، يعطيـه الرقّة واللطافة والخشوع ، ويقلّب جميع كيانه .

وعلى هـذا الأساس فـإنَّ المؤلّف المحقّق يقول : إنَّ فؤادي ينـظر إليـك بعين البصيرة ، وقلبي يسمع نغمك الربوبي في كلٍّ آن .

(١) البحث عن الله :

يـرىٰ بعضهم : أنَّ الرمـوز المتعلقة بمـا وراء الطبيعة مجهولـة وتستعصي على الكشف إلى درجة أنهم يزعمـون أنَّ البشريـة يجب أن تغضّ النظر عن حـلّ لغز مـا وراء الطبيعة وإبداء النتيجة الحاسمة في ذلك إيجابـاً أو سلباً . من وجهـة نظر هؤلاء فإنَّ يد العقل قصيرة ونخلة المعرفة باسقة ، ويعبّر عنهم باللاّأدريّين ، وأتباع مـذهب الشك .

ويرى آخرون : أنَّ المجال مفتوح أمام الإنسان ، وله المقدرة على السير نحو الملكـوت الأعلىٰ ، ولكن أقـدام البـرهـان والاستـدلال لا تقـوىٰ على السيـر ، وأن الاعتماد على المنهج العقلي الخالص أمر لا يطمأنُّ إليه .

هؤلاء يعتبرون القلب الأداة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في قطع مفـاوز هــذا الــطريق ، ويــرون في المنهــج القلبي الأسلوب الصحيــح للوصــول إلى المحبوب ، دون الاعتماد على المنهج العقلي .

العـرفاء هم أنصـار هذه النـظرية ومؤيّـدوها ، ونـرى المؤلّف معتمداً عليهـا أيضاً ، ذلك أنَّ الفلاسفة ذوي النظرة القصيرة غيّروا الحقيقة باستـدلالاتهم وصنعوا من تلك البراهين الفلسفية حجـاباً حـاجزاً بينهم وبين الحقيقـة . ولهذا حقَّ للمؤلف أن يعبّـر =

أيّهـا الغافلون ! الذين قصرتم هممكم على الصغـرى والكبرىٰ ، ورُحتم تنتـظرون النتيجـة ، متى قويتم على النـظر إلى جمال البـاري تعالىٰ ، وأنَّىٰ لكم بمشـاهدة أشعّـة

= عنهم بالغافلين .

في قبـال هـاتين الـطائفتين تـوجـد طـائفـة ثـالثـة تقـول : أين التــراب وربّ الأربـاب ؟! أنّىٰ للإنسـان ، هذا المـوجود الأرضي ، أن يسيـر ـ بقلبه أو عقله ـ في وادي ما وراء الحسّ والطبيعة ؟

إنَّ المسائل الإلـٰهية كلها سماوية ، ولا يمكن الاستماع إلى الخبـر السماوي إلا من أهل السماء .

كيف يمكن أن يكون موجوداً إلهاً ، أي لم يخلقه شيء ، ونحن لا نستطيع أن نـدرك بـعـقـولـنـا أنـه واحـد أو أكـثـر ، بـسـيط أو مـركّـب ، جـسـم أو ليس بجسم ، ينام أو لا ينـام ، يتحـرّك أو ثـابت . . . هـذه كلهـا أمـور مجهـولـة لـلإنسان ، ولا طـريق لمعرفتهـا سوى الاستنـاد إلى الإيمان ، عليـه في جميع هـذه المسـائـل أن يُسلم قيـاده إلى الـوحي ، وأن يتخلىٰ عن الاستـدلال والبـرهـان والاستنتاجات الشخصيـة . لقد جـرى بيان هــذه المسائـل بتفصيل ودقّـة في القرآن الكـريم ، وعبارات أئمـة الدين ، سـواء في صيـاغـة الحـديث ، أو بعبـارة الـدعـاء والمناجاة ، أو في أسلوب الخطبة والوصيّة .

فمثلاً تعرّض (نهج البلاغة) لهذا الموضوع في أربعين مـوضعاً ، وقـد فصّل في بعضهـا بحيث استغـرق صفحتيـن أو ثـلاثـاً . وفي (الكـافي) أكثـر من مـائتي حديث في أبواب التوحيد حول إثبات الخـالق ، وأقلّ المعـرفة ، والصفـات الثبوتيـة كـالعلم والقـدرة ، والصفـات السلبيـة كنفي الجسمية وغيـره وكتـاب (التـوحيـد) للصدوق يعدّ بحد ذاته بحراً من المعرفة ، فقد أشبع البحث في مسائل التوحيـد في حوالى ٤٥٠ صفحة .

لذا فإنَّ المؤلف القدير يقول : تعالوا نتحرَّر من حيـرة الجدل الفـارغ ، ونترك الصخب والضوضاء ، وننظر بعين الفؤاد إلى خالق الكون .

الشارح

كبرياء الملِك العدل الذي بيده أزمّة كل شيء ؟!

كيف يمكن للجمال الطاهر أن يُنظر إليه بعين غير طاهرة ؟! وأنّىٰ يتسنّىٰ الوصول إلى ذلك النور البسيط بتركيب العقل ؟!

إنَّ معرفة الشمس الساطعة التي غمرت العالم بضيائها لا تفتقر إلى دليل وبرهان . وأنتم لا ترون غير المنطق الذي هو أداة مصنوعة بيد الفكر البشري والخيال الآدمي شيئاً . إنكم لا تملكون مرآةً غير البرهان الذي هو نتيجة مجموعة من أوهام المخلوقين .

تعالوا نرفع هذا الحصار الحديدي الصلب ! حتى ندرك ـ معاينةً ـ بالقلوب الطاهرة أشعّة الأنوار الخالدة .

تعالوا نتحرّر من حيرة الجدل الفارغ ، ونترك الصخب والضوضاء ، انظروا بعين الفؤاد ، وتصفّحوا الوجود بالبصيرة ، وشاهدوا تلألؤ شمس الشموس على صفحات الكون وعالم الخلق .

إنكم تتصوّرون الإلٰه ـ المجهول لديكم ـ في أبعد زوايا الإمكان ، حيث تظنون أنه ينبغي ـ لمعرفته ـ أن تعبروا من

الدهاليز الملتوية للفلسفة ، وتقطعوا الأزقّة الضيقة للمنطق ، حتى تصلوا إليه .

أفٍّ لكم !

حين أتصفّح كتاب الآفاق أراه جامعاً لفضائله ، وشاهداً لجماله .

هذا الكون الفسيح الذي رُسمت رموز التوحيد على صفحاته بحروف فضّية ونقاط وهّاجة . . .

وهذا الفضاء اللاّمتناهي الذي يقوم ممثّلوه السماويّون برقصاتٍ فنّية ، وغمزات ساحرة ، في حركة دائبة وسريعة ، وهياجٍ مستمر ، حول محور الوحدة . . .

ألا يكفي كل ذلك شاهداً على اليد العظيمة القادرة في عالم الوجود ؟!

عفواً ، فقد أخطأت . . .

ذلك أن تجلّيات ذلك الشاهد الجذّاب ، والمَلِك الخالق المهيمن لا تترك مجالاً للإلتفات إلى هذه المرائي [أ] .

(أ) المرائي والمرايا جمع المرآة ، وهي إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق ﴾ .

سورة فصلت / الآية : ٥٣ .

المؤلف

وأنتم أيّها المساكين[1] !!

لا تذهبوا بعيداً ، تعالوا وانظروا إلى حقائق الآفاق في إطار حقيقة ذاتكم ، فإنَّ مرآة الذات الإنسانية تعكس جمال الباري الذي صوّر الإنسان بصورة أصفى وأجلى ، وإن عين البصيرة تشاهد قوام المحبوب الأخّاذ أوضح من أي عين أخرى .

---

(١) يخاطب المؤلّف المساكين والغافلين قائلاً : تعلّموا حقائق الآفاق من العجوز التي تغزل الصوف ، فإنّها تنظر إلى النظام العام بدورته المنظمة من خلال مغزلها .

عليكم أن تدركوا هذه الحقيقة في ذاتكم .

إنَّ الشيخ محمد اللاهيجي يحاول توضيح جملة (عليكم بدين العجائز) في (شرح كلشن راز) ، ويقول : كما أنَّ العجائز تنفّذ الأوامر الموجّهة إليها بدون نقاش ، علينا أن نفعل كذلك . ليس المقصود من ذلك أن يكون مستوى التفكير والفهم عندنا في معرفة الله على مستوى الأفكار العجائزية ، بل المقصود فهم الحركة الدائرية المنظمة للكون لفهم الذات ونظام الخليقة .

أمّا جلال الدين الرومي فإنه يفسّر الحديث بشكل آخر ، إنّه يُعنىٰ بمادة (عجز) ليقول : عليكم بالاعتراف بالعجز واستشعار الانكسار والضعف ، فإنَّ البضاعة المطلوبة في هذا الطريق هي الشعور بالعجز .

ولعلَّ تلك المرأة العجوز أدركت بفطرتها الساذجة برهان المحرّك الأول لأرسطو وعبّرت عنه بعبارتها الساذجة البسيطة .

وهو طريق إبراهيم الخليل حيث يتحدث عنه القرآن الكريم في سورة الأنعام الآيات ٧٧ إلى ٨١ حيث يقول : ﴿ **فلمّا جنَّ عليه الليل رأىٰ كوكباً قال هذا ربِّي فلمّا أفل قال : لا أحبُّ الآفلين** ﴾ .

الشارح:

يا إلـٰهي . . .

لقد عجنت طينتي الطاهرة بحبّك منذ أن خلقتنّي ، وعــرّفـت البـلبــل الغــرّيــد لحقيقتي بــألف اسم واسم من أسمــائــك الـحسنىٰ . والآن رغم مــرور السنــوات الطويلة ، أشكـرك يـا إلـٰهي على أن طبعي الهرم لا يزال فتياً في طريق عشقك الفتّان ، وعلى أنَّ شجـرة محبّتك ومعـرفتك لا تـزال ضاربة بجذورها في أعماق وجودي ، تنشـر أغصــانهــا الــوارفــة ، وتتفتّــح أوراقهــا الخضــراء ، فتمدّ بـالثمار الـطيبة والفـواكـه الناضجة[1] .

انـظر ، كيف تحـوم حمــامـة روحي حول شجرة الـطور[2] . تحطّ كلّ حين على

---

(١) إنَّ النـظام الدقيق الحـاكم على الكون بـأسره هـو الـذي ينشـر الأغصـان الوارفة ، ويمدّ بالثمار الطيبـة والفواكـه الناضجـة ، على حدّ تعبيـر المؤلف . . . هو الذي يزهّد العاشقين في الدنيا وما فيها ، وبهذه المناسبـة نجد الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام يقول : إنَّ هذه الحيـاة وممارسة السلطة والحكومة فيهـا أرخص وأتفه من عفطة عنز .

(٢) يقولون : إنَّ معرفة الله فطرية لدى كل إنســان ، يعني أنَّ كل إنســان ميّال بمقتضىٰ خلقته وكيانـه الروحي إلى الإيمـان بالله ومعـرفته ، من دون أن يحتـاج إلى دراسة العلوم النظرية .

والمقصود من الفطرة : فطرة القلب .

=

غصن أخضر مشعّ بالأنوار ، تطلق الضحكات ، وتزغرد بالألحان ، وتحكي عن وحدانيتك وكبريائك القصص والحكايات .

إنَّ المتبجّحين بحبّك سلكوا جميعاً الطرق الملتوية ، وأطلقوا الآهات والحسرات . . . أمَّا أنا فأحكي ـ كالبلبل المتعلّم حديثاً ـ نغمة وصالك بابتسامة مرضية ، وألحان خلاّبة ، وأتقدَّم كفراشةٍ ماهرة ، في صمت وهدوء ، لإحراق ريشة أنانيتي في لهيب العشق ، والفناء .

يا واهب الوجود ، ليس عجيباً أن تمنح الهدهدَ الحقير جناحَ جبرئيل ، أو تهب النملة الضعيفة مُلك سليمان . أجل ، فأيَّة قيمة للقصور الفخمة والعمارات ناطحة

= أي أنَّ الإنسان بحسب كيانه المعنوي الخاص ميّال نحو الله ، فالبحث عن الله ، والانجذاب نحوه أمر مودع في غريزة كل فرد ، كما أودعت غريزة البحث عن الأم في طبيعة كل طفل . . . إنَّه يريد أمه ويبحث عنها .

أمَّا في مسلك أهل العرفان ، ونهج الحكمة المتعالية التي أرسىٰ قواعدها صدر المتألّهين الشيرازي ، والذي يؤيّدهما البرهان القويم، فإنَّ وجود الأشياء إذا قيس إلى العدم ، فهو وجود . ولكن إذا قيس إلى ذات الباري سبحانه فإنه لا وجود .

إنه من قبيل الظلّ بالنسبة لصاحب الظل .

الشارح

السحاب تجاه طبعي المحلّق والمستقرّ في (القصر المشيد)[1] لمعرفتك . . . تلك العمارات التي شيّدتها يد المجرمين المغرورين بقدرتهم . وليت شعري ! أية قيمة للكنوز الملأى بالذهب والفضة ، التي يمتلكها عدد من البخلاء المتظاهرين بلباس البشر في قبال الثروة العظيمة التي أمتلكها حيث أملك أعظم الأحجار الكريمة في الوجود وهو استشعار حبّك في قلبي .

وعيني التي لا يرضيها إلَّا النمط العالي ، والتي اعتادت على النظر إلى الحبيب ، وهو مستغرق في الجمال والكمال ، هل يقنعها الغول الممتلىء أنانية وغروراً ؟!

أيّتها الحقيقة المطلقة !!

حيث أجدكِ ، فليكن العالم كلّه مجازاً ، وحيث أرتبط بسلاسل حبّك ، فلتتناثر حلقات السلاسل الأخرى التي تشدّني إليها وتمنعني عنك .

ويا قاهر الوجود ، والمهيمن على كل

---

(١) هو القصر العالي ! مقتبس من التعبير القرآني في سورة الحج / الآية : ٤٥ .

شيء !!

لقد تجاوزت عناياتك لي وألطافك في حقي عن حدّ الإحصاء ، فما أكثر ما تملأ زوايا صدري من نور أسمائك ، وصفاء صفاتك ، وتملأ أعماق قلبي من الأفراح والمسرّات ، خصوصاً عندما أمسح يد الحنان على رأس يتيم ، أو أمدّ يداً لإغاثة بائس مسكين ، أو أرشد طالباً حائراً إلى حمىٰ الحبيب ، أو أنقذ ضالاً إلى الصراط المستقيم .

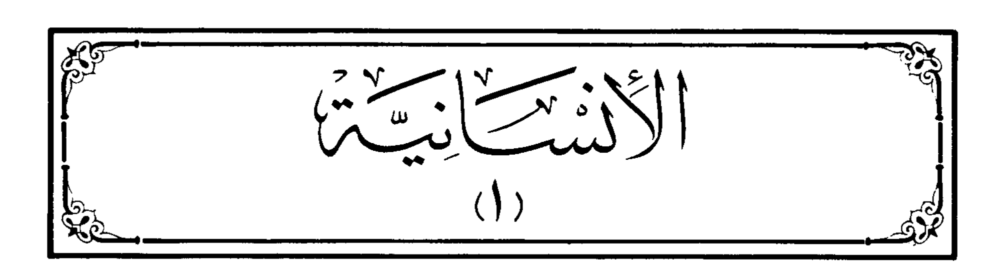
وبين الفينة والأخرى حيث أخلو إلى زاوية متذكراً وجه الحبيب ، ترفع ستار الإثنينيّة فجأة ، فتشرق آيات جمالك محرقة حصاد أنانيتي ، وإذا بذاتي المشتعلة في هذا الهيام تتحوّل إلى كومة رماد . . .

هنا تسود الوحدة في ظاهري وباطني ، وتلهج جميع ذرّات جسمي وروحي في طرب وألحان جذّابة قائلة : سُبحان ربّي العظيم وبحمده[1] .

---

(١) كما أسلفنا فإنَّ المنهج التحقيقي يثبت أن وجود الأشياء إذا قيس إلى ذات الباري عزّ اسمه فهو لا وجود ، فهي كالظلال بالنسبة إلى صاحب الظل .

الشارح



الإنسانية (١)

الموضوع الذي نبحث عنه في هذا الكتاب هو (الإنسانية) ، ولهذا أسميناه بـ (رسالة الإنسانية)(١) .

---

(١) اختار المحقّق الجليل لكتابه هذا كلمتي : (الإنسانية) و (الآدميّة) ولقد استعملت هاتان الكلمتان في كثير من التعابير بالمفهوم العام ، في حين أن القرآن الكريم يستعمل كلمة الإنسان للمفهوم العام ، ويعتبر لفظة آدم اسماً خاصاً .

فمثلاً نجد في هاتين الآيتين : ﴿ لَيس للإنسان إلَّا مَا سَعىٰ ﴾ ﴿ وَوَصَّينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ أنَّه يفهم من لفظة الإنسان المفهوم العام . في حين نجد في الآية ٣٥ من سورة البقرة : ﴿ وقُلنا يا آدم اسكن أنتَ وزوجك الجنة ﴾ وفي الآية ١٢١ من سورة طَه : ﴿ وَعَصىٰ آدم ربه فغوىٰ ﴾ .

ففي الآيتين التاليتين ورد ذكر آدم علماً لشخص ، ولم يُقصد بهما المفهوم العام ، وكذا في قوله تعالىٰ : ﴿ وقال يا آدم أنبِئهم بأسمائهم ﴾ وقوله في الآية ٥٩ من سورة آل عمران : ﴿ إنَّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم ﴾ .

وللشاعر الإيراني الخالد (سعدي الشيرازي) أبيات يستخدم فيها الآدمية بالمفهوم العام فيقول :

أوهل تكون الآدمية بالعين واللسان والأذن والأنف ؟

إذن فما الفرق بين الرسم المصوّر على لوحة ، والآدمية ؟

كن آدمياً حقيقياً ، وإلَّا فإنِّي أعرف طيراً .

يتكلّم ـ بأحسن أداءٍ ـ بلسان الآدمية !! =

هذا الكتاب لا يبحث عن أصل خلقة الإنسان ، ولا يتصدّىٰ للتحقيق في حقيقة الإنسانية وواقعها ، لأنَّ باع التحقيقات البشرية أقصر من أن تقتطف رُطبة من هذا النخل الباسق ، وناظر الإنسان ـ مهما دقَّ ـ أضعف من أن يبصر الصورة الواقعية لهذا المحبوب ، فلا صَخب الحكماء القدماء بلغ بزورق أحدٍ إلى ساحل اليقين ، ولا ضجيج الفلاسفة المُحَدثين انتشل غريقاً من هذه الورطة المهلكة . فلا أولئك استطاعوا أن يزيحوا الستار عن الوجه الجميل للمحبوب ، ولا هؤلاء قدروا على أن يشقّوا طريقاً إلى ديار المعشوق . فمحبوب أولئك فرضيّ وخياليّ ، ومطلوب هؤلاء صوري ووهمي .

إذا أردنا أن نلتزم بفكرةٍ حول الجوهر الحقيقي للإنسان[1] ، ومادّته الأصيلة ، فإنَّ

= لو يموت الطبع الوحشي في كيانك .
ستبقىٰ حياً طيلة حياتك بروح الآدمية .
أوَلَم تكن آدمياً إذ صرت أسيراً للغول ؟!
فإنَّ الملائكة لا تملك طريقاً نحو مقام الآدمية .

(١) يتكلَّم المحقق الجليل هنا عن الجوهر الحقيقي للإنسان ومادته الأصيلة ، وكما رأينا في أشعار سعدي الشيرازي ، التي هي مقتبسة من أحاديث أهل البيت عليهم =

محكمات الآيات ، والنصوص والأحاديث التي يتعبّد بها الإمامية ، تعدّ من الوجهة الدينية ، مرشداً قديراً ، ومعلّماً أميناً[أ] حتى نصل إلى مرحلة التكامل ، ونصلح أنفسنا عن طريق الرياضات الأخلاقية ، ونشاهد الحقائق بعين القلب والفؤاد الكامل[1] ، ونعرف أنفسنا[2] ، ونحلّق في الأجواء

(أ) يقول العالم الرياضي الشهير (أنيشتاين) : إنَّ البحوث والتحقيقات التي اعتمدت الحقائق الدينية وسيلة لفهم ألغاز الكون أقوى وأشرف العتلات في ميدان الأبحاث العلمية ، (نقلاً عن كتاب : أنيشتاين والعالم ص ١٢٣) .

المؤلف

= السلام ، فإنَّ على الإنسان أن يستعين بالرياضة النفسية وتسخير النفس الأمّارة لهداية أهل بيت العصمة والطهارة حتى يتسنّىٰ له الحفاظ على جوهر الإنسانية ، ويحلّق في الأجواء بجناحي العلم والعمل ، ويستقرّ على أريكة علم اليقين ، ويتعرف من خلال عين اليقين على عالم (أو أدنىٰ) ، ويوجّه قلبه نحو الخالق العظيم .

(١) يطلق الفؤاد على القلب والعقل أيضاً . **(المنجد)**

(٢) هناك روايات كثيرة واردة عن الأئمة المعصومين حول ضرورة (معرفة النفس) واعتبارها أساس السعادة الإنسانية . فقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « أفضل المعرفة معرفة الإنسان لنفسه ، وأعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه » غرر الحكم ص ١٧٩ .

وحين يسأل كميل بن زياد من أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً :

أريد أن تعرّفني نفسي .

يجيبه بقوله : يا كميل ، أي النفس تريد أن أعرّفك ؟ =

بجنـاحيّ العلم والعمـل ، وتعتلي أقــدامنـا عرش علم اليقين ، ونعبر قاب قوسي[أ] عين اليقين ، فنتعرّف على عـالم ـ أو أدنىٰ ـ[ب] حق اليقين ، فنصل ، ونشاهد ، ونعرف .

مقصدنا الوحيد ـ إذن ـ هو الكلام عن آثار الإنسانية ، يعني بيان الأخـلاق الفاضلة والصفـات الحميـدة ، ومـزايـا هــذا النـوع الشـريف ، الـذي يعتبـر الـطريق الــوحيـد لمعرفة النفس ، وبـه تحصل سعـادة الأفراد والجمـاعـات ، ويصلح أمـر المجتمـع ، ويكون منشأً للسعادة الدائمة[١] .

(أ) (ب) قـال تعـالىٰ : ﴿ ثمَّ دنىٰ فتدلّىٰ فكـان قَـابَ قـوسين أو أدنىٰ ﴾ سورة النجم/ الآية : ٨ و ٩ . يستشهد بهاتين الآيتين غالباً لتصوير أعلىٰ الـدرجات الممكنة للرقي والكمال ، فيقولون مثلاً : إنَّ فلاناً بلغ مقام (قاب قوسين) أو وصل إلى مـرحلة (أو أدنىٰ) ويقصـدون بذلـك أنـه طـوىٰ أعلىٰ رُتب الـرقيّ في فــرعـه الخاص .

المؤلف

= قلت : يا مولاي ، وهل هي إلّا نفسٌ واحدة ؟

فقـال : يا كميـل ، إنّها هي أربعـة : النامية النباتيـة ، والحسيـة الحيـوانية ، والناطقة القدسية ، والملكيّة الإلـهية .

(١) السعـادة الحقيقيـة تكمن في الاهتمـام بصفـاء البـاطن وإحيـاء النـزعـات المعنوية إلى جانب الاهتمام باللذائذ الجسمية .

الشارح

الكلّ يعلم أنَّ علماء الأخلاق ، والحكماء من أهل التوحيد ألّفوا كتباً قيّمة في هذا المجال ، وأشبعوا البحث في هذا الوادي ، ولم تترك الكتب السماوية ، والقرآن الكريم بالخصوص ، في آياته البيّنات ، والرسول الأعظم(ص) والأئمة المعصومون ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ بكلامهم وسلوكهم ، جزءاً يسيراً من أصول الحكمة العملية (أ) وفروعها ، والرموز الدقيقة لها ، إلّا وكشفوا الستار عنه .

وتبعهم على ذلك علماء الدين ، فكان ما صدر منهم شرحاً وبسطاً لتلك الحقائق ، وكأنهم عبّروا عن مطالب المعصومين بتعبيرات أخرى ، وألبسوا تلك المضامين العالية لباساً آخر ، فألّفوا حسب

(أ) يقسّم الفلاسفة الحكمة إلى قسمين : الحكمة النظرية ، والحكمة العملية . ويقصدون من الحكمة العملية : الموضوعات التي تقع ضمن إطار الاختيار الإنساني ، بحيث يملك الإنسان حرية التصرف فيها ، كعلم الأخلاق الذي يرسم خطوط السلوك والجهد الإنساني باتجاه الخير والسعادة .

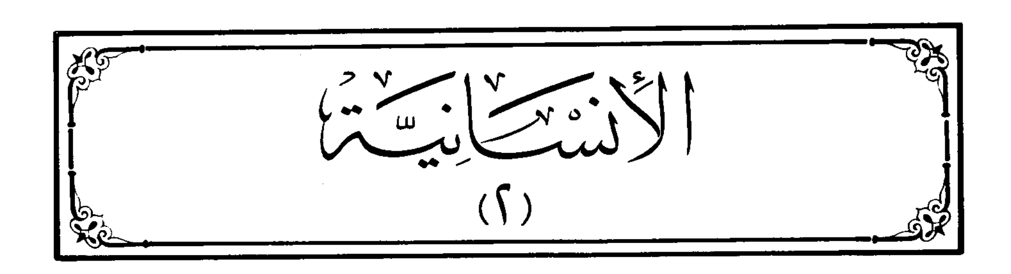
المؤلف

مذاقهم ومتطلّبات كل عصر مدوّنات في هذا الموضوع [1] .

(١) يحـاول بعض المؤلفين تطبيق نصـوص أئمة الـدين على العصر المتمـدّن المُهلهل . إذ بعد أن غـزت المدنيّـة الحديثـة العالم ، تغيّـرت حياة النـاس ، فحل محلّ البغال والحمير والعربات دويّ الطائرات وصوت القاطرات وقـرقعة المعـامل ، وبهرت الناس حتى سلختهم عن جوهر الإنسانية . . .

وكـان من نتائـج الاتجـاه نحـو اللذائـذ والشهـوات ، والتخلّي عن الفضـائـل الإنسانية ، أن ازدادت الأمراض النفسية والعصبية وتفشّت بين الناس بشكـل لا مثيل له .

الشارح



قال تعالى :

﴿ والعَصْرِ إنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ، إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ وتَواصَوْا بِالحقّ وتواصَوْا بِالصبر ﴾[1] .

قسماً بالعصر الحاضر ، والعصور السالفة .

قسماً بالدهر والزمان .

قسماً بوقت العصر من النهار .

قسماً بعليٍّ ولي الله (الذي هو تأويل صلاة العصر) .

قسماً بكلّ هذه الأمور العظيمة الجليلة . . .

كلّ لحظة ودقيقة وساعة تنقضي من عمر الإنسان وحياته ، فإنما يقضي ذلك في خُسران وضياع ، يُستثنى من ذلك أولئك الذين عوّضوا عن هذه الخسارة بالأعمال

---

(١) سورة العصر / الآية : ١ ـ ٣ .

الصالحة ، وضمنوا الحياة الأخرى بذلك .

إذا ألقينا نظرة سريعة على الأحداث العلميـة والفنيّة والسيـاسية في هـذا العصـر فسنجد من الرقّي والتقدّم والإزدهار ما يبعث على الدهشة والحيرة[1] .

---

(١) **الإنسان المتجرّد عن الإنسانية حيوان مفترس .**

يمتاز العصر الحاضر بالتطّور السريع والتقدّم الهائل في الجوانب المادية . لقد صنعت التكنولوجيا المتطوّرة والأجهزة الميكانيكيـة الحديثـة مئات الأجهـزة والأدوات للنّاس ، وجعلتهم يعيشون من الناحية المادية في رفاه وترفٍ وراحة ، فصاروا ينعمون بالدعة والإستقرار والهدوء ، وفي منجى من الأمراض والأوبئة الفتاكة . . . أما الجانب المعنوي فانه يسير نحو الإنحدار والتسافل .

إن اتّبـاع الميـول والأهـواء والشهـوات التي تتنـاقض مـع القـوانين التكـوينيـة والإجتمـاعية والصحيـة جرّت البشـرية من حـدود الإنسانيـة إلى منحدر الحيـوانـات المفترسة .

أجل ، فانّ المعـاصي والذنـوب ، بغضّ النظر عن الأخـطار التي تتضمّنها في زعـزعة النـظام العام ، والإسـاءة إلى الفرد والمجتمـع ، أعظم العـوامل في تحـطيم الإنسانية ، وفي ذلـك يقول أميـر المؤمنين عليه السـلام :« من أحبّ المكارم اجتنب المحارم» .

يقول أحد علماء الغرب : كل ذنب يتسبّب في حدوث الإضطرابات العضـوية والروحية والإجتماعية . وان الرسول القائد للإسلام حين اعتبر بعض الأعمال ذنـوباً ومنـع منها ، فـلا بـدّ أن يكـون مضـرّاً بجـانب من الجـوانب المـاديـة أو المعنـويـة للبشر ، غاية الأمر أن الإنسان لا يحيط بجميع هذه الأضرار .

هذه الحقيقة يؤكد عليها القرآن الكريم في هذه الآية بصراحة :

﴿ **والعصر ، إنَّ الإنسان لفي خُسر**﴾ .

كـل ذنب يترك أثـراً سيئاً في المجتمـع بلا ريب ، وسيلقى المـذنب جـزاءه حتمـاً . كلّ مـا في الأمر أن جـزاء بعض الـذنـوب عـاجـل ، وجـزاء البعض الآخـر آجل . . . شأنها في ذلك شأن الأمراض الجسمية . فعندما يقول الـطبيب : إن جزاء التخلّف عن الدّقة في معـالجة المـرض آنيّ وعاجـل يلتزم المـريض بأوامـر الطبيب ويطيعه بصورة كاملة ، أمـا حين يقول الـطبيب : إنّ آثار الإدمـان على الخمر تـظهر =

فروّاد الفضاء يقومون بجـولات واسعة في اختــراق أعمـاق الفضــاء ، والشمـوس العـظيمة ، ترتعش خوفاً[أ] من سيطرة علمـاء الفلك والـرياضيـات ، وفراراً من مجـاهرهم المعقّدة التركيب .

(أ) هذا التعبير كناية عن أن الثوابت والشموس تُرى مرتعشة من بعيد . إذ أننا حين نتفحّص السمـاء ليلاً ، نـرى الأجرام السمـاوية على نـوعين : فما يلحظ منهـا ويرتعش يشكّل الثوابت ، وهي القسم الأعظم من هذه النجوم ، وأما الباقي وهـو ما يُرى ثابتاً ساكناً فهو الكواكب والسيّارات التي تشكل مجموعتنا الشمسية .

وفي هذا يقول الشاعر :

الشمس كالمرآة في كفّ الأشلّ

المؤلّف

=على الشخص بعد سنوات عديدة ، فان المريض يتماهل في التقيّد بأوامر الطبيب .

إنَّ القرآن الكريم يخاطب المصابين بحبّ الجاه والرئاسة ، الذين يُشعلون نار الفتن ويقتلون النَّاس ويتغافلون عن العقاب الذي ينتظرهم في الآخرة بقوله :

﴿ إنّهم يَرَوْنَه بعيداً ونَراه قريباً﴾ [سورة المعارج / الآيـة : ٦ ـ ٧] .

فلن يمضي زمن طويل حتى يُعاقبَ المعتدون بأشدّ أنواع الجزاء .

في بعض الأحيان يصبح حبّ الجاه والمقام والثروة داءً أصيلاً في باطن بعض الأشخـاص ، شـأنـه في ذلـك شـأن الجـراثيم الفتـاكـة التي تستـولي عـلى الجسم ، حينذاك يفلت زمام الصبـر من يد هؤلاء ، ويـرتكبون أفـظع الجرائم لعلّهم يصلون إلى أهدافهم ومقاصدهم .

من هؤلاء (عمـر بن سعد) الـذي كـان يـرى في حكـومـة الـري أمـراً محققّاً جاهزاً ، في حين كان يتصوّر العقاب الأخروي على ارتكابه الجريمة النكراء ، وهي قتـل سبط الـرسـول (ص) : الإمـام الحسين بن علي عـليهـمـا السـلام أمـراً مؤجلاً ، وزعم أنه يصل إلى حكومة الري عن هذا الطريق . لكنـه ألقي القبض عليه من قبل شرطة المختار الثقفي ، وتحقّق فيه قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام :

«إنك لن تدرك ما تحبّ إلاّ بالصبر عمّا تشتهي» .

الشارح

وأما علماء الطبيعة واختصاصيو الكيمياء فانهم إلى جانب اختراعهم للأسلحة الفتاكة والوسائل المبيدة للبشر ، يصنعون الأدوية والعقاقير المفيدة في علاج الأمراض ، ويكافحون الأوبئة والأمراض الخطرة ، ويقضون على الجراثيم .

مهما صُغّرت الحيوانات المجهرية ، ودقّت . . . ومهما خفّت حركتها ونشطت فانها لا تستطيع الفرار من الميكروسكوب الذي صنعه الإنسان ، ولا تقدر على الِاحتماء دونه في زاوية من زوايا الطبيعة .

الأجهزة الفيزيائية ، والمصانع الميكانيكية تمدّ البشرية كل يوم بصناعة حديثة واختراعات عجيبة وآثار خلّابة وجميلة .

لقد غيّر الِانفجار الذرّي والِانشطار النووي جميع المعادلات في العالم ، وأثار ضجّة كبيرة . . .

وأمّا الغوّاصات العملاقة التي سبقت الحيتان والتماسيح معترضة عرض البحار فحدّث عنها ولا حرج .

الطائرات النفّاثة ، وروّاد الفضاء في

العالم العلوي يمثلون دور الأبالسة والشياطين ، والصواريخ والسفن الفضائية والأقمار الصناعية تجاوزت حدّ السحر إلى مرتبة الإعجاز والكرامات .

والقادة السياسيون يتسابقون في مجال الخطط المدروسة للفتوحات ، ودحر الأعداء ، وسحق الشعوب الأخرى باستخدام الأساليب الحديثة ، والأسرار العجيبة . . .

ولا تقلّ التحوّلات التي نشاهدها اليوم في بعض المجتمعات الدينية عن دور السياسيّين !!

إنَّ أصحاب هذه العمليات يستقطبون أنظار الجميع ، ويبهرون أعين المتفرّجين . . . لقد أذهلوا الشعوب والأمم ، وسلبوا النَّاس عقولهم وبصيرتهم ، إلى درجةٍ نجد المثقّفين المرموقين يحاولون تناسي عظمة الخلق والإبداع ، وعظمة الخالق المُبدع !!

أقول : هذه الصناعات ، وهذه المظاهر وان كانت مثيرة للإعجاب ، إلاَّ أنها فنون وأساليب سهلة المنال ، وهي في طريقها إلى التطوّر والتكامل ، وباستطاعة كلّ فرد أن يصل إلى الدرجات العليا فيها

بالدراسة والتعلّم والممارسة . وكما نلاحظ فان الإكتشافات والإختراعات تزداد يوماً بعد يوم ، وستكون الأجيال القادمة أشدّ إتقاناً منا ، وأدّق في اختراع الصناعات البديعة .

لكن الدرس الصعب الثقيل، والجدير بالإهتمام، والذي يصعب على كثير من الناس تلقيه هو درس الإنسانية فحسب !!

لقد جاء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، مع أوصيائهم وخلفائهم ، والعلماء والحكماء العظام ، وفتحوا المدارس العظيمة لأحكام الإنسانية وآدابها ، ابتداءً من روضة الأطفال حتَّى مراحل الدراسات العُليا . . . وقد ضحّوا في سبيل التعليم والتربية ، ليعلّموا الناس دروس معرفة الله وتوحيده ، ويلقّنوهم (**رسالة الإنسانية**) .

لقد كرّس هؤلاء الأساتذة القديرون كلّ جهودهم لتكرار هذه الكلمة وتفسيرها وتحليلها ، ومع ذلك فإن الإنسان عاجز عن تعلّم هذا الدرس ومعرفة نفسه وكيفية استخدام الأساليب الإنسانية .

ومن الصعوبة بمكان أن تجد واحداً من بين الملايين ، شاقّاً طريقه ، مخترقاً الحواجز والموانع ، ليصبح نصف

إنسـان ، أو شبه إنسـان ، ويستثمـر المـزايـا العالية لحقيقته.

أجل يستطيع الشخص بكل سهولة أن يكـون فلكيّاً ، طبيبـاً ، مهندسـاً، كيمياوياً، سياسياً، مليـونيراً، مجتهـداً، بابـاً، شيخاً، مـرشداً، قطبـاً ، خـطيبـاً، مـربيـاً، ورئيسـاً جسمياً أو روحياً. . . ولكن ما يشقّ الوصول إليه هو أن يكون إنساناً !!

إنَّ اجتياز عقبات الحيوانية ، ومكافحة شـهـوات النـفس الأمّـارة ، مـن أصـعـب المشاقّ.

وصـــدق رسـول الله صلَّى الله عليــه وآله حيث يقـول :

« **بقي عليـكم الـجهـادُ الأكبر** ».

يعني بذلك أن الظفر بـالعدّو والتغلّب عليه هو الجهاد الأصغر في حين أن الجهـاد الأكبر هو الكفاح مع النفس الأمّارة بالسوء.

وهــذا مــا يــدعــو مــكــتــشــف البخـار، ومخترع الطاقة الكهـربائيـة إلى أن يـركعـا أمـام تمثـال السيّـد المسيـح ـ عليـه السلام ـ ، ويدعو مفجّر الذرّة إلى أن ينحني إجــلالاً أمــام أميــر المؤمنين علي بن أبي طــالب عليـه الســلام . . . لأنهم عـرفــوا الإنسان وتمنّوا الإنسانية واعترفوا بـأن المقام

السامي للإنسانية أرفع وأعلى قدراً من هذه المراتب العلمية التي توصّلوا إليها .

قال علي عليه السلام :

« **نحن النَّاس ، وشيعتنا أشباهُ النَّاس ، وباقي النَّاس نسناس**»[أ] .

لقد شهد الصدر الأول للإسلام افتتاح مدرسة للإنسانية ، كان المعلِّم فيها خاتم الأنبياء والرسل ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وكان الكتاب الجامع هو القرآن الكريم ، وقد قامت هذه المدرسة بتربية النَّاس وتهذيبهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، وكانت النتيجة أن تخرّج منها إنسان واحد هو (أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) ، وعدد من أشباه النَّاس (كسلمان وأبي ذر وغيرهما) ، إذن فعلّي وشيعته ومحبوه الحقيقيّون هم خرّيجو هذه المدرسة .

وحتَّى الخلفاء الذين خالفوا نصّ الله ورسوله ، واجتهدوا في قبال تلك النصوص ، فجلسوا على دست الخلافة ، وتولّوا رعاية شؤون المسلمين

(أ) أي إن الذين اقتدوا بالرسول والإمام عليهما السلام في عقيدتهم وأعمالهم وإيمانهم وأخلاقهم ، كلّ حسب طاقته ، فهم المشابهون للنسخة الكاملة للإنسان ، أمثال سلمان وأبي ذر . أمّا الإنسان الكامل فهو الرسول والإمام .

المؤلف

كـانوا بعيـدين عن هـذه المـراحـل سنـواتٍ طويلة .

إنَّ مـا يُـعـاب عليـه هـؤلاء بـلا جـدال ، والذي كـان العلّة الأصليـة لسـائـر العيوب فيهم هو جهلهم وقلّة معرفتهم بأحكام الشـريعـة وآداب الإنسـانيـة . . . وكلّمـا استعصىٰ عليهم أمر قرعـوا باب مـدينة علم الـرسـول صـلّى الله عـليـه وآلـه وسلّم [أ] ، حتّى أن الخليفة الثاني عمر بن الخـطاب قـال في سبعين مـوضعـاً بـأعلى

(أ) أنظر الحديث المتواتر الذي أورده علماء الفريقين حيث قال رسـول الله (ص) : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها» في المصادر الآتية :

١ ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ج ٣ ص ١٢٦ .

٢ ـ المنـاقب لابن المغـازلي ص ٨٠ ـ ٨٥ ، دار الأضـواء ـ بيـروت ١٤٠٣ هجرية .

٣ ـ الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٢٢ ، مكتبة القاهـرة ، الطبعـة الثانيـة ١٣٨٥ هجرية .

٤ ـ ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج ٢ ص ٤٦٦ .

٥ ـ نظم درر السمطين للزرندي ص ١١٣ .

٦ ـ فرائد السمطين للحمويني (الجويني) ج ١ ص ٩٨ .

٧ ـ كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص ٢٢٠ .

٨ ـ كنز العمال للمتقي الهندي ج ١١ ص ٤٠٣ طبع حلب .

٩ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١١ ص ٢٠٤ .

١٠ ـ تذكرة الخواص لسبط بـن الجوزي ص ٤٨ .

المؤلّف

صوته :

« **لولا عليٌّ لهلك عمر** »[أ].

* * *

إذن ، ليست الإنسانية عملاً ميسوراً لكل أحد ، انها تتطّلب نكران الذات ، والرياضة النفسية ، والتهيّؤ الكامل ، والإيمان العميق بالله العظيم ويوم الحساب.

وإذا استطاع أن يصل إلى المقام الأسنىٰ للإنسانية ، بتخلّصه عن الأخلاق الذميمة ، والتخلّي عن البهيّمية ، والاتصاف بالصفات والكمالات اللائقة بالإنسان ، عند ذاك يحقّ له أن يفخر ويزهو.

أجل !

هذا الإيمان بالله والعمل الصالح هو الذي يتدارك ويتلافى الخسارة التي تلحق بالإنسان.

(أ) أخرجه أحمد ، والعقيلي ، وابن السمّان ، ويوجد في الاِستيعاب ج ٣ ص ٣٩ . ولزيادة التفصيل راجع المصادر الآتية :

١ ـ المناقب للخوارزمي ، الفصل السابع ص ٣٩.

٢ ـ معارج العُلىٰ في مناقب المرتضى لمحمد صدر العالم ص ٥٢.

٣ ـ إرشاد السارى ج ٣ ص ١٩٥ .

٤ ـ الرياض النضره لمحبّ الدين الطبري ج ٢ ص ١٩٧ .

٥ ـ فيض القدير ج ٤ ص ٣٥٧ .

المؤلف

إن رأس المال الذي يملكه الإنسان هو عمره الثمين ، والدقائق التي تفوت من عمره مجرّدة عن الإيمان والعمل الصالح تعود عليه بالخسران.

فالإيمان والعمل الصالح يمثّلان الربح الذي يحصل عليه الفرد في الاتّجار برأس ماله ، ضامناً لنفسه السعادة الدائمة ، والحياة الأبديّة في الآخرة.





جوهر الإنسانيّة

يا جوهر الإنسانية ، أبحث عنك ، وأتكلّم معك . . . فأنت غاية مناي ، وأنت محبوبي الوحيد ، أنت الذي أمرني ربي بمعرفتك ، واعتبر ذلك طريقاً لمعرفته (أ) .

أيُّها الطائر المحلّق في عالم الإمكان . . .

أيّتها الدرّة المشعَّة في عالم الوجود . . .

أيَّتها المرآة العاكسة لصفات الأحديّة . . .

يا مرآة جمال الحق ! !

يا من تقيمين في كل زاوية من

(أ) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « من عَرَف نفسه فقد عرف ربّه » .
المؤلف

روحي[1] وجسدي ، وتتحدَّثين معي بين الفينة والأخرى بلا حاجب وستار . . [2] .

إليك أتحدَّث !

أنتِ أقرب إليَّ من كل قريب وصديق ، تُسدينَ إليَّ النصائح أحياناً بلسان أشدّ حناناً من الوالدين ، وترشدينني بمواعظك القيّمة إلى التزام الخصال الحميدة واجتناب الرذائل ، وقد تطلبين مني

---

(١) الروح الإنسانية ، أو الجوهر الحقيقي للإنسان ، لو سلمت من الرذائل ، فإنها خيرِ مرشد ودليل للفرد .

ذلك أنَّ أجهزة البدن قد ركّبت بصورة حلقات متّصلة ، بأمرٍ من الله تعالىٰ ، وحسب نظام دقيق . هذه الأجهزة كلها تتحرك تنفيذاً لأوامر الروح ، وأيّة روح ؟! تلك القدرة اللاّمحدودة التي تستمدّ عظمتها من عالم الأمر ، حيث يقول جلَّ وعلا : ﴿ **يسألونك عن الروح ، قُلْ الرُّوح من أمرِ ربِّي** ﴾ .

كل شيءٍ في هذا الكون خامد هامد ، وجثة لا حراك فيها ، حتى تلج الروح ، وتتجلىٰ النفس . . . هذه النفس التي يخاطبها المؤلف القدير بكونها الطائر المحلّق في عالم الإمكان ، والمرآة العاكسة لصفات الأحدية ، ويناديها بأنَّها تقيم في كل زاوية من روحه وجسده .

(٢) إنَّ الحواسّ الباطنة تنبعث من هذا المقام ، فالإحساس بالحبّ والعشق ، والانجذاب والذوبان ، والتطلّع إلى عالم اللاّنهاية ، والحاجة إلى التفكير ، والتأمُّل ، والإحساس بالوعي والإدراك ، وعشرات من الرؤىٰ والتأملات الباطنية نماذج لهذه الحواس الباطنة .

الشارح

أن أترفّع حتى عن تصوّر الخصال الذميمة والانحرافات .

وأحياناً تكونين لي صديقاً حميماً يؤنسني في ساعات الوحشة والسأم .

أنتِ القائد الصادق . . .
أنتِ الطبيب الحاذق . . .

تملكين الرأي الصائب ، والكلام العذب ، والنظرة البصيرة ، والصوت المُنعش .

إنَّكِ ترافقينني في ساعات الفرح والحزن ، في زمان الحرب والسلم ، في أوقات الإشتغال والفراغ ، في اليقظة والنوم . . .

أنتِ معي في كلّ آن ، بلا غيبة أو توانٍ .
أنتِ الصاحب والزميل والصديق والجليس ! !
يا جوهر الإنسانية :
في الليلة التي يلفّني (تيه)(أ)

(أ) التيه : الأرض التي يتيه فيها الناس ولا يهتدون إلى الطريق .
المؤلف

الأوهـام المُرعبـة ، وتتقاذفني أمـواج الحيرة في صحاري الخيال ، والظلمات المتـراكمة التي هي ظلمـات بعضهـا فـوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها. . .

في مثـل هذه الليلة الحـالكـة السـواد تنقذني وتهديني إلى الجادّة ، كالخضر[1] .

في اليــوم الـذي يسيــطر عليّ الملل ويكشّـر عفريت اليـأس عن أسنانـه محـاولاً السيـطرة عليّ ، وأوشِكُ على الانهيـار أمام حملات الشياطين والأبالسة ، فتكـاد روحي تفارق الحياة ، تطلّ عليّ من سماء الـرحمة بوجهك الملكـوتي المُشرق ، وتفتـح أبواب

---

(١) يشير المؤلف القدير إلى الظلمات التي تحيط بالنفس الإنسانية ، والتي لا يهتدي فيها الفرد إلى طريق ، حيث يصبح مأسوراً لأوهام وتخيّلات صنعها بنفسـه ، ويحصـر نفسه في إطـار الحيرة والقـلق . . . وإذا بجـوهر الإنسـانية ، ومقـام النفس المطمئنّة للبشر ينقذانه من هذه الأوهام ، ومن الصحاري الموحشة ، فيشـرق قلبه ، ويمتلىء أملاً وتفاؤلاً .

هذه الجمل الفصار في كلام الأستاذ الجليلِ والمحقّق الخبيـر العارف تتضمن أعظم المعاني المسطورة على القرطاس . ذلك أنَّ أي حكم لا يصـل إلى الفرد عن طـريق جوهـر الضمير الإنسـاني فإنـه واهٍ وتـافـه ، بينمـا الفـطرة هي الضميـر الحي الخالد ، المتوجّه إلى الله ، والله تعالىٰ هو المرشد والهادي .

لذلك فإنَّ الله يخاطب الإنسان الكامـل وخاتم الـرسل في سـورة الإخلاص : **﴿ قل : هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يَلد ولم يولد ، ولم يكن لَهُ كُفُواً أحد ﴾** .

الشارح

الأمــل عليّ ، وتـربــطني بعـالم رحبٍ من الألـطاف الإلـٰهية والإمـدادات الملكوتيـة ، فتملأ قلبي المنقبض نوراً وأملاً ورجاءً .

أنا لا أعلم من أنتِ ؟!

فمهمـا كنت ، أعلم يقيناً أنَّـكِ لست غريبة عليّ . . .

أجل ، يا حقيقتي الطاهرة . . .

أنتِ مصداق الإنسانية والآدميّة !

أنتِ خليفة الحق والحقيقة . . .

أنتِ التي خلق الله الـرَّحمٰن الـرَّحيم كل شيءٍ لأجلكِ ، وخلقكِ لأجل نفسه .

يا روح الأمين الكامن في ذاتي :

وقـد تُـطلعني على خبـايـا الكــون ، وتخبرني عن خير المستقبل وشرّه ، وربحـه وخسـارته ، وكـأنـك على صلة بقـرَّاء اللوح المحفـوظ ، أو أنـك من تلك الأسـرة . . . الواعية اليقِظة !!

أيّتها الجوهرة الغالية :

لكــلّ فـرد في العــالم حبيب ينتعش بذكره ، ويحيا باسمـه . . . لكنكِ محبـوبي الوحيد ، ولا أتوجّه إلى سواكِ .

لقــد دُهِش الآخـرون بــالإحســاس

المجـازي الفـاني تجــاه من عليهم جلبـاب الإنسـانيـة ، وانشــدّوا إلى تلك المـظاهــر الخـاويـة ، لكني ـ أنــا ـ أتـطلّع إلى بهــاء الحق ، وجمـال الحبيب الأخَّاذ في غـرتّـكِ الناصعة المشرقة .

أيَّتها الأمثولة المستغرقـة في الدلال ، وأيَّتها الظبيـة الممتلئة خيـلاء . . . أي خطأ شاهدتـه مني حيث تعرضين بوجهكِ عني ، وكأنك استنكـرت هذا الخـطأ مني ، فرُحتِ تختبئين في زوايـا روحي وجسمي كسـاحـرٍ مـاهــر ، وتسلمينني إلـى ألسـنــة اللهـب المشتعلة للفراق ؟!

تعالي أيَّتها النجمة المتألّقة !

فـإنَّ سماء العشق والانجـذاب ـ على رحابتها ـ مظلمة حالكة من دونك. . . أطلّي عليّ دوماً ، وآنسي وحشتي في هذه الطبيعة الصمَّاء . . . أذهبي الروع عني بصحبتك ، بهمساتكِ ، بغمزاتك .

إيهاً يا ملاكي الطاهر !

لقد طهر أشـرف جارحـة في كياني [أ]

(أ) نقصد بذلك : القلب . المؤلف

من الـوسواس الخنّـاس ، ولـم يحـرق لهيب عشقـك الغربـاء فحسب ، بل أفنى التـوجّه إلى ذاتي ونفسي .

أيُّها الطائر الملكوتي !

عُــد إلى عشّـك ، واسكنُ في عيني وقلبي إلى الأبـد !! ماذا يضيـرك لـو رحمت ضـرّي ومسكنتي ووحـدتي ، وسمحت لي بـأن أضمّ صـوتي إلى صـوتـك مـع لحنـك المُنعش أبداً .

قسمـاً بخالقـك المحبّ للجمال[أ] ، إنّي عـرفت إحاطتـك بالبيّنـات ، والفـوائـد الناجمـة من التعـرّف عليك ومصـاحبتـك ، والسعادة الكامنة في ملازمتك .

أجـل ، فإنَّ معـرفـة السلطان العـظيم الذي خلق العالـم بأسره ، مرتبطة بمعـرفتك أيُّها المحبوب ، ولا طريق إلى التعرّف على المعلّم الأزلي غيـر الحضـور في درسـك والتلمّذ عليك[١] .

(أ) إشارة إلى الحديث المشهور : « إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال » .
المؤلف

---

(١) من عَرَف نفسه فقد عرف ربّه .

أيُّها القارىء العزيز !

ولا بدّ أنَّك تحسّ في أعماق وجودك بوجود هذا الصاحب القرين ، ومتى كنت غافلاً عنه فإنَّك - بصورة لا إرادية - تسمع صوته العذب يتردّد في مسمعك .

وإن لم تكن قد تعرّفت على ملاك الرحمة هذا ، حيث يتجلَّىٰ لك في كلّ آنٍ بحلّةٍ قشيبة ومظهر جميل ، فأنت معذور . . . لأنَّ صخب الوسط المادي الذي تعيشه ، وأمواج الأهواء التي تتقاذفك ، وطوفان الشهوات الجارف . . . كل ذلك يشكل ستاراً ضخماً وحصاراً حديدياً أمامك ، فيمنعك من مشاهدة هذا الصديق الحميم .

أزح ستائر الأنانية . . . وارفع حجاب الأهواء والميول ، وشاهد الطلعة الغرّاء لذاتك .

أعرض عن عشق المعدمين الصعاليك ، وأجِلْ فرسك في ميدان سلطان الروح والجسم ، وتلقّ الأوامر منه في كل حال، وتخلَّ عن هذه الحياة الطفولية ، ووجّه فكرك نحو الحياة الخالدة . فكلّ أمرٍ يرد

على قلبـك على سبيـل الإلهــام ، ويؤيّـده العقل والشرع فهو صوت الحقيقـة ، وهمسة المحبوب السرمـدي . فإن اتَّبعت أوامـره ، ولـم تخـالفها ، فـإنك ستسمـع ـ تدريجيـاً ـ صــوتـه الــرخيم وأصـداءه المنعشــة بكـل وضـوح ، وبعد ذلـك لن تضلّ ، ولن تتعب أبداً .

كن على ثقة بأنَّ ألحـانه الجبـروتيّة ، وصوته الرنّان ، ستتـرك في أعماقـك أسراراً ثمينة ، وذكريات خالدة .

إنَّ حقيقــة الإنســانيــة هي الحجّــة الكبرىٰ للإلـٰه ، والمرآة الصافية التي تعكس الولاية المطلقة ، وهي التي تستلهم من وليّ عصـرها وإمـام زمـانهـا ، وهي مستمـرة في إرشادك وتربيتك دائماً .

شمّر عن ساعد الجدّ ، واعقد عزمك بـإرادة حديـدية لا تنثني على معـرفـة ذاتـك التي تشـاهـد خــالقهـا ، كي تتعــرف على المربّي الأعظم لعالم الإمكان ، وعن طريق وليّ الله تعالىٰ ، تصل في معرفة الخالق عزَّ وجــلّ إلى مـرتبـة حق اليقين ، وعنـدهــا تتخلص وتنجو من الغصص والآلام . . .

إنَّ سلطان وجــودنـا ، وسلطان هــذا

العالم الأصغر ، الذي هو خليفة الحق ومثال الوليّ المطلق يضطلع بمسؤوليات جسيمة أخرى . . . فهو مربّي الروح والنفس ، ومراقب الجسم والمعنى . . . وهو الربّان القدير لمملكة وجودنا عندما تتلاطم أمواج الطبيعة ويثور طوفان الحياة .

إنَّه يأمر دوماً بالعمل والاعتدال والرقيّ والتكامل والسعي وراء السعادة الأبدية وخدمة المجتمع الإنساني والعطف والحنان والسير في طريق الفلاح والنجاح . . .

أجل ، فإنَّ أسلوبه التربوي الجدّي ، ومدرسته المتقنة ، يصنعان الإنسان الفذّ ، ويصوغان الملَك ، ويقدّمان إلى المجتمع موجوداً نبيلاً شريفاً حائزاً لأعلى رتب الكمال .

لكن الشرط الأساسي لتعلّم كيف يكون الفرد إنساناً ؟ وكيف يصل إلى مستوى الآدمية ؟! هو التعرف على لغته وإطاعة أوامره، وهذا ما نحاول أن نكشف الستار عنه في الأبحاث القادمة إن شاء الله تعالىٰ .

السُّمُوّ الإنساني

قال تعالىٰ :

﴿ أَلَم يروا إلى الطير مسخّراتٍ في جوّ السماء ﴾[1] .

لقد أنزل الله تعالىٰ آياتٍ في القرآن الكريم بالصيغة الاستفهامية ، مشيراً بذلك إلى أهميّتها ، مثل :

﴿ أَفَلم يَنظرُوا إلى السَّماءِ فَوقهم كيف بَنَيْنَاها ﴾[2] .

﴿ أفلا يَنظُرون إلى الإبلِ كيف خُلِقَتْ ، وإلىٰ السَّماءِ كيف رُفِعَتْ ؟ ﴾[3] .

﴿ أَلَم تَرَ كيف فَعَلَ رَبُّك بأصحابِ الفيل ؟ ﴾[4] .

---

(١) سورة النحل/ الآية :٧٩ .

(٢) سورة قٓ/ الآية :٦ .

(٣) سورة الغاشية/ الآية :١٧ ـ ١٨ .

(٤) سورة الفيل/ الآية :١ .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشعر بأهمية الموضوع ، وأهمية الخلقة ، وأهميّة المقام .

وفي الآية التي نحن بصددها نجد تأكيد القرآن الكريم على أهمية كفاح الطيور مع جاذبية الأرض . هذا الأمر يبدو سهلاً واعتيادياً جداً ، ولكنه في الواقع أمر غريب ومُلفت للنظر .

كيف يتغلّب موجود ضعيف على قانون الجاذبيّة العام الذي يسيطر على الكرة الأرضية ؟!

أتراه كيف يسخر من هذه الجاذبية ، ويستهين بها ، محلّقاً في الأجواء العالية بكل حرية ؟!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إلىٰ الطَّيرِ فوقَهم صافّاتٍ ويقبضن ما يُمسكهنَّ إلاَّ الرَّحمٰنُ إنَّه بِكُلِّ شيءٍ بصير ﴾[1] .

إنَّ الجسم الثقيل حين يهبط من الأعلىٰ إلى الأسفل ، فإنَّه لا يلاقي مانعاً ، لذلك فلا يتصوَّر له عامل يصدّه عن الهويّ

---

(١) سورة الملك/ الآية :١٩ .

والسقوط . . . بل على العكس فإنَّه تزداد سرعة نزوله لحظة بعد أخرى ، وذلك لشدّة انجذابه نحو مركز الجاذبية (قوّة الجذب نحو المركز) .

أمَّا حين نرمي بجسم ثقيل نحو الفضاء ، علينا أن نبذل شيئاً من طاقة أجسامنا ، ولهذا فإنَّ الجسم يسلك مساره بصعوبة وإكراه ، وتخفّ سرعته لحظة بعد أخرى وتتضاءل ، إلى أن تصل إلى نقطة الصفر ، وعندها يسقط الجسم ، ويتجه إلى الأسفل .

وبناءً على هذا القانون ، فإنَّ الإنسان حين يميل إلى إرضاء غرائزه وشهواته ، ويرغب في الكسل والبطالة ، ويقترب من النزهة والترفيه عن نفسه ، وحين ينشدّ إلى الأكل والراحة وإرضاء الميول الظاهرية . . . فذلك مقتضىٰ طبعه الحيواني . فلا حاجة إلى أن يدعوه أحد إلى إرضاء هذه الميول أو يكرهه أو يشعره بواجبه تجاهها .

حين يجوع فإنَّه يبحث عن الطعام تلقائياً ، وعندما يسيطر عليه النعاس يأوي إلى فراشه كما يأوي الطائر إلىٰ عشّه . . . إنَّه في استجابته لحاجاته الطبيعية الجسّمية ،

لا يحتاج إلى قائد أو سائق ،ولا يعوزه أمر رسول أو حكم سلطان .

أمَّا الالتزام بالطاعة ، والتخلّق بالأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، والانصياع للقانون . . . فإنَّه يحتاج إلى الضغط والقوة التنفيذية ، يحتاج إلى التذكير والنصح والموعظة ، الحاجة إلى الحاكم والآمر ضرورية هنا ، ولا بدّ من جزاء وحساب وعقاب .

لماذا ؟!

لأنَّ الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة من صفات الإنسانية الواقعة في المستوىٰ الأعلىٰ ، ولا بدّ من الاستعانة بقوّة غير عادية للرقيّ نحوها .

يحتاج الإنسان إلى إعداد الأدوات والوسائل المعنوية والروحية ليُعرض عن الميول المادية ، ويسلك طريقه نحو (الإنسانية) . . . يحتاج إلى جناحي العلم والعمل ، حتى يحلّق في سماء الكمال . . .

أن لا يأكل ويطعم الآخرين !

أن لا يلبس ليكسو عرياناً !

أن يؤثر غيره على نفسه . . . يعفّ ، يسخو ، يُعرض عن الملاذّ الظاهرية ، ويهتم بتحصيل المكارم والمعارف .

أجل ، فإنَّ الإنسان الحقيقي ، والمؤمن المتّقي هو ذلك الطائر المحلّق الذي يكافح جاذبية النفس الأمَّارة ، ويعارض مشتهيات الشهوة الحيوانية ، كي يسمو في سماء الإنسانية .

إنَّ الخطوة التي قام بها الأنبياء هي أعظم الخُطىٰ التي يعجز القوّاد العظماء ، والرؤساء الكبار من مجاراتهم فيها ، إنَّ العبء التربوي الثقيل الذي تصدَّىٰ لحمله الرجال الإلٰهيون وأساتذة الأخلاق على عواتقهم ، يعجز أبطال العالم عن تحمّله .

ذلك أن رسل السماء وأوصياءهم وخلفاءهم الأطهار ، يحافظون على عصمة أنفسهم ، كما يعصمون غيرهم . يُسرعون باتجاه التكامل ، ويبعثون الهمَّة في الآخرين على المسارعة أيضاً .

كلّ قوّة خارقة تتصورونها فإنَّ لها حداً ونهاية . . . الطلقة ، الطائرة النفّاثة ، سرعة الضوء ، وأي شيء آخر يندفع بسرعة

وقوّة ، فلا بدّ له من الإجهاد والإعياء بعد الاستمرار في مسافة طويلة . . . أمّا القدرة الفائقة للأنبياء ورجال الأخلاق فإنها لا تعرف حدّاً ومقداراً ، إنّهم ينتشلون كل موجود لائق ومستعدّ ليأخذوا بيده نحو الكمال . . .

وما دامت الحياة ، وما دام الوجود فإنّ هذه الطاقة لا تعرف الكلل والملل ، ولا تتوقف عن التحليق ، بل تزداد سرعتها لحظة بعد أخرى .

ولا يخفىٰ أنّ صعوبة السير في العناصر التي تنفصل من الأرض إنما هي في حدود الجاذبية التي تسيطر على الأرض ، فبمجرّد أن تخترق مجال الأرض وجاذبيتها لا يوجد ما يمنع سيرها وحركتها الدائبة ، بل إنها تواصل السير بحرية حتى تقترب من هدفها ، وإذا وصلت إلى جاذبية المقصد (القمر أو المرّيخ مثلاً) فإنّ سرعتها ستزداد .

وكذلك شأن الموانع التي تقف في طريق الإنسان من حيث السير والسلوك ، والاتّجاه نحو المبدأ المقدّس ، فإنها تواكب

مسيرته ، إلى حين ابتعـاده عن مدار جـاذبية النفس الأمَّـارة ، وتغلّبـه على المكـائـد الشيـطانية ، بـالريـاضات المشـروعـة . . . حتى يصبح ماهـراً في فنّ الآدميّة !! وقـادراً على التحليق بكل حرية ونشاط . . .

عنـد ذاك فـإنَّ قـوّة العشق ستجـذبـه بسرعة أشـدّ فيستمر في سفـره المقدّس إلى الأبد .

إنَّ سلمـان ، وأبـا ذرّ ، والمقـداد ، وعمَّـار ، ورُشيـد ، وميثـم ، وجـابـر ، والمفضّـل وأمثالهم لا يـزالـون يحلّقـون في الفضـاء الـلاّمتنـاهي ، ويسمَـون في سمـاء الوجود .

لقـد قـام سيّـد الشهـداء عليـه آلاف التحيـة والثناء ، بتـربيـة نيف وسبعين رجـلاً من أسرته وأصحابه وتكميل جواهرهم ، إلى درجـة صُقلت شخصيتهم معهـا ، وتـجلّىٰ الـوجود الإنسـاني في أبـدع صـوره فيهم ، فكـانـوا طيـور مـزرعـة الملكـوت ، حيث استمـدّوا من ذاتـه المقـدّسـة قـوة الـطيـران والتحليق فكـانوا جـديرين بخـطاب البـاري تعالىٰ :

﴿ يـا أَيَّتُهـا النَّفس المطمئنَّـة ، ارجعِي إلىٰ ربِّـكِ راضيـةً مـرضيّـة ، فـٱدْخُلي في عبادي ، وٱدْخلي جَنَّتي ﴾[1] .

(١) سورة الفجر/ الآية : ٢٧ ـ ٣٠ .



معرفة الذات

بالرغم من أنَّ السعادة الأبدية تكمن في معرفة النفس ، والإحاطة بحقيقة الإنسانية ، التي هي الصراط المستقيم لمعرفة الله ، فإنَّ للإحاطة بكلّ من أجزاء الجسم وأعضائه ، دخلاً في تحقيق السعادة أيضاً[1] .

---

(١) لقد توصّل علم النفس الحديث إلى أنَّ وراء الشعور الظاهر للإنسان يوجد شعور باطن ، فكأنَّ من وراء هذه (الأنا) الظاهرة أمراً خفيّاً يتستر وراء هذا الظاهر . في حين يرى البعض منهم أصالة وواقعية للشعور الباطن .

في الشعور الأخلاقي ، والشعور الفني ، والشعور العلمي ، وهكذا الشعور الديني . . . توجد أصالة للنفس الإنسانية ، وهذا هو المطلب الأساسي الذي يكون سبباً لافتراق خط العرفان عن خط الفلاسفة .

وحيث يؤمن العُرفاء بقوة العشق الفطري وجاذبيّته ، فإنَّهم يجدّون في دعم وتنمية هذه الطاقة ، إنهم يرون ضرورة العمل على ازدهار هذه القوّة ، وتصفية القلب ، ثم التحليق نحو الله على مركب العشق .

وكما يقول المؤلّف القدير فإنَّ معرفة الذات أعمّ من معرفة الجسم والروح والنفس ، إذ يمكن عن طريق معرفة الجسم الإحاطة بأسرار الخلقة .

يقول المؤلف : هذا درس ثمين من دروس التوحيد ومعرفة الله . إذ معرفة أسرار الجسم من الناحية الفيزيائية إحدى طرق إثبات الصانع وقدرته اللاّمتناهية ، إنَّ =

إنَّ معـرفة الـذات تعمّ معرفـة الجسم والـروح والنفس جميعاً ، يستـطيع الشخص تدريجياً أن يتعرَّف على بنية كيـانه ، وكيفيـة استعمال كلّ من الجوارح ، وحدود واجبات كـلّ منها . كمـا أنَّ بإمكـانه أن يسلك كـلا الـطريقين : المـاديّ والمعنـويّ ، ويتعـرَّف على أســرار الخليقـة من خــلال الحـواس الـظاهـرة والأعمـال الجسمـانيـة والحـواس الباطنة ومقـام الذات . . . وفي كـل ذلك ، يتلقّىٰ درسـاً عميقـاً في التـوحيـد وصفــات الخالق .

إنَّ التعرّف على جارحـة واحدة مهمـا كــانت صغيـرة يتضمَّن عــالمــاً رحبــاً من السعـادة(١) . فالفم يعتبـر جزءاً من الأقســام

= ميكـانيكية هـذا الجسم وكيفية عمـل كل جهـاز فيه تخضـع لدراسـة وتحقيق ثلة من العلماء والباحثين . ومن الضروري أن نستفيد من نتائج بحوثهم في المبحث الأسنىٰ الذي نحن بصدده .

(١) خذ على سبيل المثال : حاسّة الذوق في الإنسان ، فإنها تتمركز بالدرجة الأولىٰ على القسم الأمـامي من اللسان وداخـل الفم ، من آثارهـا تحريـك الإنسـان لطلب الأطعمة الضرورية للجسم ، إنها تميّز بين ما هو مفيد للجسم وما هـو مضرّ ، ذلك الذي نعبّر عنه بالمالح والمرّ ، ونقول : إنَّ ذائقتنا تتقبّل هذا أو لا تتقبّله ، وفي الواقع فإنَّ حاسّة الذوق تتقبل ما هو مفيد للجسم ، وتلفظ وترفض ما هو ضارّ .
إن انعدام حاسّة الذوق يؤدِّي إلى قلّة الرغبة في الحياة . =

الثلاثة للجهاز الهضمي ، وهو يبدو بسيطاً ، ويظن أكثر الناس أنهم يستخدمون هذا العضو ويستفيدون منه بالدرجة القصوى ، في حين أنه يصعب العثور على شخص واحد من بين الألف شخص يكون مطلعاً على واجبات هذا العضو .

يظن أغلب الناس أنَّ الفم نافذة لعبور الطعام ، وقطع اللقم الكبيرة إلى قطع صغيرة يسهل ابتلاعها ، في حين أن واجب الفم يتعدَّى ما ذكر إلى سحق الطعام

= وكذلك حاسّة الشمّ ، والنطق ، والسمع ، والبصر واللمس . . . إذ كلّ واحدة من هذه الحواسّ تلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان ، ولولاها لعاش الإنسان في عذاب وألم شديدين . وهذا ما يدعو العلماء والباحثين إلى التنقيب عن زوايا الجسم الإنساني وإخضاع كل جانب فيه لدراسة وتمحيص دقيقين .

ولم يُغفل القرآن الكريم الإشارة إلى هذه الحقيقة ، حيث عبَّر عن مجموع هذه الأجهزة التي ركّبت في خلق الإنسان بقوله : ﴿ فتبَارَكَ اللهُ أحسَنَ الْخَالِقِين ﴾ .

وعن طريق معرفة الذات يصل الإنسان إلى السعادة في حياته المادية والمعنوية على حدّ سواء . إذ يحيط الإنسان من خلال معرفة نفسه بالحاجات الأساسية الباطنية والذاتية من جهة ، والحاجات الظاهرية من جهة أخرىٰ ، ويسعىٰ للحصول على الطريق الصحيح للاستجابة لها .

وكما قال عليّ عليه السلام : « من لم يعرف نفسه ، بَعُد عن سبيلِ النجاة ، وخبط في الضلال والجهالات » .

الإنسان الذي يعرف نفسه ويعي ذاته ، يفهم أين هو من هذه المجموعة الكونية ، ويستطيع أن يفسّر السّر من وجوده ، وحركته ، وغايته .

الشارح

وطحنه ، ثم المساعدة على هضمه . ذلك أنَّ العمل الكيمياوي الذي يحدث في الفم أهم من العمل الميكانيكي . . . واستناداً إلى هذه الغفلة فإنَّ أكثر الناس يبلعون الطعام من دون مضغ جيّد ، وإذ لا يستخدمون الجانب الكيمياوي في ذلك فإنهم يصابون بسوء الهضم والأمراض المزمنة الأخرى .

هناك نوع من اللعاب الذي ترشّحه غدد الفم يقوم بدور أساسي وهو تحويل الموادّ السكرية الموجودة في الطعام إلى شكل يسهل امتصاصه ، إنه يجعل الموادّ النشويّة قابلة للتمثيل ، وبالتالي فإنه يرفع عبئاً كبيراً عن المعدة .

من الضروري أن يمضغ الطعام بالمقدار الكافي واللازم ، ولا بدّ أن تُدار اللقمة يميناً ويساراً ، حتى يختلط المقدار المناسب من ذلك اللعاب القيّم باللقمة ، ثم تُرسل إلى المعدة ، وبذلك يضمن الإنسان الصحة والعافية لنفسه ، ويريح معدته في مستقبل أيامه حيث يصاب بالشيخوخة والهرم .

يقول إمامنا أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء في ذلك : « لا خيرَ في طعامٍ لم يُمضغ » .

وهذا هو السبب في كون بعض الأطعمة السائلة كالحساء فاقدة لهذه الفائدة العظمىٰ ، لأنها لا تُمضغ ، وبذلك تؤدِّي إلى آلام المعدة والأمعاء .

وحتى تناول الحليب والألبان يجب أن يتمّ بشكلٍ يضمن الاستفادة من هذا اللعاب الثمين في الفم .

وهكذا نلاحظ أنَّ الأطفال الرضّع يتمتعون بوفرة اللعاب في أفواههم، فإنهم بالسرعة نفسها التي يمتصّون فيها الحليب من الثدي تفرز الغدد اللعابية عندهم ليختلط الكل وينزل إلى جوفهم .

ويجب أن نعلم أنَّ الروح السليمة تكمن في البدن السليم ، والفكر السليم في الجسم السليم . لذا فإنَّ معرفة الجسم تساعد على معرفة الروح ، وتعتبر غصناً من شجرة السعادة الإنسانية .

الجانب الأخلاقي[1] :

مضافاً إلى الصحة الظاهرية للجسم ، فـإنَّ الإنسان متى اعتـادَ ـ على أثر التـدريب والتمرين ـ أن يقوم بعمليـة المضغ بهـدوء ، يحصل له بالمراس نـوع من الوقـار والاتّزان في السلوك ، فتـراه يتخلص من العجلة في

---

(١) يستنتج المؤلف القدير من الأسلوب الصحيح في استخـدام حاسّـة الذوق وعمليـة المضغ نتيجـة أخلاقيـة ، وهي التعوّد على الصبـر والتـأنّي ، والابتعـاد عن التسرّع والتهوّر .

لقـد سُئـل (غـلادستون) وزيـر الخـارجيـة الأسبق لبـريـطانيـا مـرّة من قبـل الصحفيين :

ـ من أين حصلت على الصبر والتأنّي والحلم؟!

فأجاب :

ـ من طريق مضغ الطعام .

وإذ كان هذا الجواب غريبـاً على السامعين ، راحـوا يسألـونه : وكيف يكـون لمضغ الطعام دور في تعلّم الصبر والاستقامة والتأنّي ؟ . . فأجاب :

عندما كنت طفلاً ، أجلس إلى جانب أمي على طـاولة الـطعام ، كـانت تقول ليّ أمي : امضغ الطعام جيّداً في الجانب الأيمن من فمك ، وعندما كنت أكمل هذا العمل ، وقبل أن أبتلع الطعام ، كانت تطلب مني أن أدير اللقمة إلى الجانب الأيسر من فمي ، ثم كانت تأمرني بنقل اللقمـة إلى الجانب الأمـامي لامتزاجـه بلعاب الفم جيداً ، ثم تصل النوبة إلى بلع اللقمة بصورة كاملة .

إنَّ مراسي المستمر على التأنّي في مضغ الطعام أدّىٰ إلى هـدوئي واتّزاني في السياسة ، وذلك ما تشاهدونه مني الآن .

وهنـا نعي حقيقة ما قـاله أميـر المؤمنين عليه السـلام : « لا خير في طعـام لم يمضغ » .

الشارح

الأمـــور ، ويبتعـد عن التســرّع في جميـع نشاطاته .

وهكذا نجد أنَّ أدنى انتبـاه إلى أبسط عضــو في الجسم ، يمنحـه الســلامـة في المـزاج ، والنشــاط في الــروح ، وهـو في نفس الــوقت يتضـمَّن واحــداً مـن أسمـىٰ الصفات الأخلاقية .

الجانب الاقتصادي :

وكذا لو دقَّق الإنسان في كيفية إبـداع البـارىء تعالىٰ لـلأعضاء والجـوارح ، وفكَّر بعمقٍ ، في تدبير المنافع العـظيمة المـودعة في كل عضو على حدة ، فإنـه سيتنبّه ، ولا يسمـح باستعمـال ذلك العضـو الشريف في أمور تافهة ، خصوصاً إذا لاحظ أنَّ قوّة تلك الجارحة تقلّ تدريجياً ، وأنَّ فاعليّتهـا ليست أبديّة في هذه الدنيا . . . وما لم يعطّل عمل هذه الجارحة عليه أن يستفيد منها بـأكبر مـا يمكن[1] .

---

(١) يقول علماء الاقتصاد : يجب الحصول على أكبـر ربح من استخـدام أقلّ كمية من رأس المال ، ويجب اغتنام الفرصة الضئيلة للوصول إلى الفوائد العظيمة .

إنَّ المؤلف القـدير إذ يعـدّد فوائـد استخدام الأعضـاء والجـوارح ، يشيـر إلى الجانب الاقتصادي من هذا البحث أيضاً . =

إذا تابع شابٌّ فتاةً بنظراته الوقحة ،
فلا يوجد عاقل في الدنيا يتصوّر فائدة في
هذه النظرة ، بل إنها نظرة غير مشروعة
فقط ، أثارتها الأحاسيس الملتهبة لهذا
الشاب المنفلت ، وسببت رعدة واضطراباً
في روحه وجسمه وأعصابه ، فكانت سدّاً
أمام آلاف الأمور من موجبات السعادة له .

والشخص الذي يمنع سامعته القيّمة
أو ناطقته التي بها يتميز عن سائر الحيوانات

= لو لم تستغلّ فرص العمر وتستثمر بالشكل الصحيح ، فإنَّ النتيجة هي الحرمان والملل . ولذا نجد الإمام أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء ، يشير في إحدىٰ خطبه في نهج البلاغة إلى الألطاف الإلـٰهية التي تحفّ بالإنسان ، والكفيلة باستمرار حياته ، ثم يتطرّق إلى الأناس العابثين اللاهين ، الذين يقضون فترة الصحة والسلامة وقوّة الشباب في الغفلة ، ولا يجنون الفوائد المطلوبة من حياتهم وقواهم وطاقاتهم فيقول :

« لم يمهّدوا في سلامة الأبدان ، ولم يعتبروا في آنفِ الأوان ، فهل ينتظر أهل بضاضة الشباب إلّا حواني الهرم » .

إنَّ المواهب والطاقات المودعة في جسم الإنسان وروحه ، والعوامل المساعدة لتربيته ونموّه ، إذا استُغِلّت بالشكل الصحيح فإنها تؤدّي إلى السعادة الأبدية مدى الحياة .

وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ **أولم نعمّركم ما يتذكر فيه من تذكّر ؟!** ﴾ سورة فاطر / الآية: ٣٧ .

ويقول الإمام الصادق عليه السلام في التعليق عليها : إنها تحذير إلى الشبّان الذين يغفلون فلا يستغلّون الفرص المواتية .

الشارح

عن أداء واجباتها الأساسية ، ويشغلها بإنشاد أو استماع الألحان المثيرة للشهوات ، أو يشتغل باغتياب الآخرين أو سماع غيبتهم ، فإنه بالتأكيد يترك أثراً مراً في أعماق كيانه ، وتظهر أمواج عاتية حول سفينة وجوده ، وأخيراً يتعرض لطوفان خطير يحيط به من كل جانب ، وحسبما هو ثابت في عقائدنا ، فإنه يجد ردّ فعلٍ عنيفاً ، بعد موته إزاء ذلك .

العاقل حين يشتري جهازاً أو آلة ، فإنه لا يشغّل ذلك الجهاز وتلك الآلة إلا حين يدرّ عليه ربحاً ، إنه يوازن - بكل تأكيد - بين الوارد والمصروف . . وحيث يعلم بأنَّ الاستعمال البسيط والجزئي يؤدِّي إلى نقصان قيمة الجهاز ، وأنَّ ساعة من عمل الآلة يستلزم الاحتكاك والاستهلاك ، فإنه يخطط لكيفية استغلال الآلة خطّة صحيحة ، ويحسب لها حساباً دقيقاً .

وهكذا الجهاز العظيم لجسم الإنسان وروحه ، الذي يسير نحو الضعف والكهولة والشيخوخة فالزوال ، إذ لا بدَّ أن يجني الإنسان من أصغر عمل وأبسط نشاط فيه الربح العظيم ، ويتصرّف في مخازن الغيب

الإلٰهي بالحصول على أكبر رصيد فيها ، وأخيراً حيث ينتقل إلى سنّ الشيخوخة والبؤس ، وعندما ينتقل إلى الموت ، وتعطّل قواه عن الإنتاج ، يستفيد من تلك الذخائر ، ويبقى سعيداً في ظلّ عمله المدروس الواعي مدى اللاّنهاية والأبد .

الجانب التوحيدي :

لكن الجانب المهمّ من (معرفة الذات) والإحاطة بأسرار وجود النفس ، هو الجانب التوحيدي[1] الذي يتعرّف بواسطته

---

(١) لقد استطاع الإنسان بفضل التقدّم العلمي الهائل في العصر الحديث أن يكشف النقاب عن كثير من أسرار الطبيعة ومجاهيلها ، وتغلّب على البحار والصحاري ، وسخّر عناصر المعادن لصالحه ، وعن طريق ذلك راح يحسّن من ظروفه المعيشية .

وتجاوز حدود الكرة الأرضية ، فاخترق مدار جاذبية الأرض ، واستقرّ على القمر ، ومن هناك راح يتابع أبحاثه وتحقيقاته لاكتشاف الكرات الأخرى . . .

ولكنه لم يكتشف ذاته ! !

ولذلك فإنَّه لا يستطيع دفع أسباب الشقاء وعوامل الإنحطاط عن نفسه . لقد نسي الإنسان المعاصر نفسه ، وبمقدار ابتعاده عن ذاته وكنه حقيقته ، ابتعد عن الله .

ومن هنا يؤكّد المؤلف القدير على هذه النكتة الدقيقة ، وهي أنَّ معرفة النفس يتعرّف بواسطتها على الله تعالىٰ ، الذي هو الهدف النهائي ، والعلّة الغائية للخلق والإبداع ، ويعتمد في بيان ذلك على جملة من النصوص التي يذكرها ، وها نحن نكمل تلك النصوص بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام : « نال بالفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس » .

=

على الله تعالىٰ ، وهو الهدف النهائي والعلّة الغائيـة للخلق والإبـداع ، قـال تعـالىٰ :
﴿ ومـا خَـلَقـتُ الـجـنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعبُدون ﴾[1] .

وفي الحديث القدسي :
« كنت كنزاً مخفيّاً فـأحببتُ أن أُعرَف فخلقت الخلق لكي أُعرَف » .

وقال أمير المؤمنين عليـه آلاف التحية والثناء :
« من عرف نفسه فقد عَرَف ربَّه » .

وعن رسول الله (ص):
« أعرَفكم بنفسِهِ أَعرَفكُم بربِّه » .

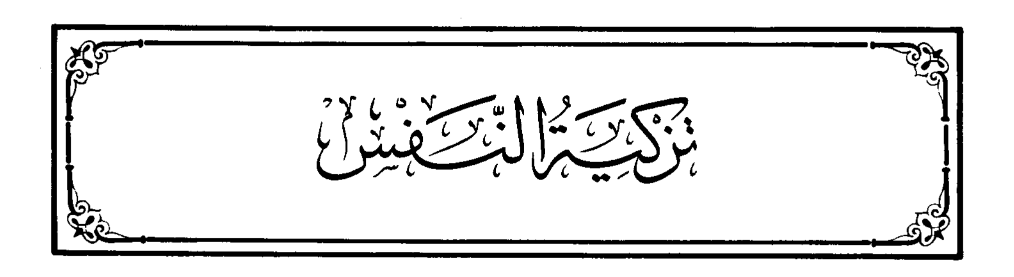
= أجل ، فإنَّ معرفة النفس ، والإحاطة بـأسرارهـا ، مفتاح السعـادة والفلاح في شؤون الروح والجسد ، والمادة والمعنىٰ .

لقد خلق الله تعالىٰ الإنسـان من مجموعـة من القوى المتـداخلة والمتعاونـة ، فهو خليطٌ من العقل والشهوة ، إنَّه من الجانب الحيواني أسيـرٌ لحبِّ الذات ، وحبّ الأولاد ، ومحكوم بالقوة الغضبية والقوة الشهويّة ، ولكن المطلوب منـه أن يسير عبـر هذه القنوات ، ويتعدَّىٰ هذه الحواجز ، مستعينـاً بسلاح العقـل والمعرفـة والوجـدان الأخلاقي ليصل إلى درجة الكمال ، ويميِّز بين الحق والباطل ، والخير والشر .

الشارح

(١) سورة الذاريات / الآية :٥٦ .





قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللهُ أنَّه لا إلَهَ إلاَّ هُوَ والملائِكةُ وأولوا العِلمِ قَائِماً بالقِسط ، لا إلَهَ إلاَّ هو العزيزُ الحكيم﴾[1] .

أوّل واجبات الإنسان ، والتكليف الأهمّ لعباد الله ، هو معرفة الله والإيمان به وتوحيده[2] .

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ١٨ .

(٢) طهارة الباطن تؤدي الى السعادة الدائمة :

إن معرفة الله ، وإطاعة أوامر الباري جلّ وعلا ، تدعو الإنسان إلى طهارة النفس وصفاء القلب ، لكن التأمل في عالم الطبيعة ، وخلق الإنسان أعظم طرق الوصول إلى وحدانية الله .

هناك ميول وغرائز مودعة في الفطرة الإنسانية ، يكون كلّ منها مؤثراً وفعالاً في تحصيل السعادة .

فمن استطاع من توجيه تلك الميول والغرائز الوجهة الصحيحة ، وقدر بفضل تزكية نفسه من استغلال الطاقات الكامنة في وجوده ، فإنه ينال السعادة الدائمة .

إن الميول الفطرية للإنسان بمثابة الأغصان لشجرة السعادة ، بحيث إذا لم تلقَ الرعاية اللازمة فانها تؤدي إلى الشقاء . وبناءً على ذلك فإن القرآن الكريم يعبّر عن الرسول (ص) تارةً بـ (المذكر) وأخرى بـ (المعلّم) . فعندما يُلفت الرسول =

وأفضل الطرق إلى معرفة الله هو التدبّر في الآفاق والأنفس ومشاهدة خلق العالم الأكبر والعالم الأصغر.

وحسب التعبير القرآني: ﴿ **ما أَشْهَدتهُم خلق السّماواتِ والأرض ولا خَلْقَ أنفُسِهم..** ﴾[1] فإن من تنطبق عليهم هذه المواصفات بعيدون كل البعد عن الحقيقة، فلا يتسنّى لهم التوحيد ومعرفة الخالق.

والمرحلة العليا للمعرفة، هي معرفة مقامات أئمة الدين، وإنعام النظر في سلوك الأنبياء والمرسلين والأولياء الطاهرين، سلام الله عليهم أجمعين، الذين بلغوا أعلى مراتب الكمال، وصاروا مرآة تامّة للتجلّيات الغيبيّة ﴿ **ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ ...

= أنظار البشر نحو حاجاتهم والطريق الأمثل لِاستغلالها وتسييرها يعبّر عنه القرآن الكريم بالمذكِّر.

فمثلاً نجد في قوله تعالى: ﴿ **فذكّر إنما أنت مذكّر** ﴾ سورة الغاشية / الآية: ٢١.

بينما نجده عندما يبيّن دور الرسول (ص) في التهذيب والتربية، يعبّر عنه بالمعلّم... المعلّم العامل، الذي يعمل بما يقول، لا كمعلّمي العالم الصناعي الذين لا يعملون بما يقولون، ويجهلون أبسط الأمور في مدرسة الحياة.

الشارح

(١) سورة الكهف / الآية: ٥١.

ثم التعرّف على رموز العبوديّة ، واقتباسهم من القدرة الربوبيّة . . . حيث يوصل الإنسان إلى مرتبة حق اليقين .

قال سيّد الموحّدين وأمير المؤمنين عليه السلام :

« يا سلمان ، ويا جُندب ! » .

معرفتي بالنورانية معرفة الله ، ومعرفة الله معرفتي بالنورانيّة »[أ] .

هذا النوع من المعرفة يختصّ به الأتقياء فقط .

إن العبد المتّقي الذي عرف نفسه عن طريق التقوى وطهارة القول والعمل والفكر ، وكمالات الظاهر والباطن ، يعرف مولاه ومربّية أيضاً إذ « من عَرَف نفسه فقد عَرَف ربّه» .

(أ) وردت هذه الفقرة ضمن حوار طويل بين أبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي ، ثم بينهما وبين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .
وقد أوردها العلاّمة المجلسي رضوان الله عليه في (بحار الأنوار)، انظر أوّل الجزء السادس والعشرين من الطبعة الحديثة .
ومن الواضح أنه كلّما كان الصُنع أكمل كان على كمال الصانع أدّل . وبما أن ولّي الله الأعظم كان بعد ابن عمّه الرسول صلّى الله عليه وآله أكمل الخلائق ، وأعجوبة عالم الوجود ، والموجود اللامحدود ، والمرآة التامة التي لا غبار عليها للباري جلّ جلاله ، كانت معرفته معرفة لله العظيم .
وكان من عرفه حقّ المعرفة فقد عرف الله حق المعرفة .

المؤلّف

وهـذا ما يؤكـد عليـه القـرآن الكـريم أيضاً :

﴿ إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكُم ﴾[1] .

ومن الـواضح أنـه مـا لم تكمـل المعرفة ، لا يحصل التقرّب إلى حضرة ذي الجلال ، وما لم يتمّ العمل والعبادة والتقوى لا تتيسّر المعرفة الواقعية .

* * *

إن أفضـل الأفـراد من الـرعيـل الأول للإسلام في معرفة الله ، ومعرفة مقام الأدلّاء على التـو حيـد ـ أعني محمـداً وآل محمّـد صلَّى الله عليـه وآلـه وسلَّم ـ والـذين بلغـوا أعلى قمم الكمـال البشـري هم سـلمـان الفارسي ، ثم أبو ذر ، وعمّار ، والمقداد . . . وإذا استقصينـا أزهـد المسلمين وأشـدّهم تطبيقاً لمناهج الدين فهم هؤلاء النفر الـذين ذكرناهم .

وكـانت نتيجة ذلـك أنهم كانـوا أشـدّ المسلمين استقـامـة في الجـادّه ، وأقـواهم التزاماً بالصراط المستقيم .

هؤلاء النفـر الأربعـة فقط ، نجـوا من الفتنة العظيمة ، والطخيـة العمياء بعد وفاة

---

(١) سورة الحجرات / الآية : ١٣ .

الرسول الأعظم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، وصمدوا أمام الغيوم الداكنة ، والعواصف الشديدة ، على رغم اتّجاه الغالبية من المسلمين إلى مسار آخر . . . فكانوا قد التزموا بمنهج صاحب الولاية العظمى ، ولم ينحرفوا عن طاعة الله والرسول ، بل شقّوا طريقهم باتجاه النور الإلهي غير آبهين بظلمات طلّاب الجاه ، وعَبَدة الدنيا ! !

* * *

التقوى ،

والمعرفة ،

والتقرب إلى الله تعالى . . .

صفات متلازمة ، وهكذا كان ميثم التمّار ، ورشيد الهجري ، وجابر بن يزيد الجعفي ، وهشام بن الحكم ، وغيرهم من خواصّ أصحاب الأئمة عليهم السلام .

أجل ! لا يُعقل تقرّب الفسقة والفاسدين إلى الله والرسول[1] ، وحتّى

---

(١) لقد ركّز العلماء الماديّون من أمثال (فرويد) على اللّذة والغريزة الجنسية . وقد اهتّم فرويد بمدرسة عبادة الشهوة بدلاً من مدرسة عبادة الله ، وركز اهتمامه على النظر إلى الإنسان على أنه حيوان يُرضي شهواته وغرائزه فقط .

إنه تنكّر لجميع الفضائل الإنسانية ، واحتقر كل المُثُل العليا ، ! وأشاع =

الذين عرفوا الله بالعقل والمنطق ، وأثبتوا التوحيد بالمقدّمات الظاهرية ، ولم يبلغوا مقام الحبّ والعشق والتقوى ، فانهم غير مستقيمين في العقيدة والعمل .

يستطيع الموحّد الحقيقي أن يصل إلى الكمال عن طريق العمل وإصلاح نفسه ، وعندئذٍ يستطيع رؤية الحقّ تعالى بعين القلب حتّى يعدّ في عداد **(الواصلين)** .

وما إن نستعين بالتقوى ، وإرغام أنف عفريت النفس ، على إزاحة حُجب التعلّق بالدنيا ، وإزالة الأستار الكثيفة للإنيّة ، حتّى تنكشف لنا حقيقة الإنسانية ، وناموس العالم الأكبر.

وإذا شاهدنا جوهر ذاتنا التي هي لمعة من نور الأحديّة، وعرفناها كما

= الفاحشة والمجون والإنفلات .

إن القرآن الكريم يرى سعادة البشرية في تزكية النفس وطهارة الباطن ، ويقول في سورة الشمس / الآية : ٧ ـ ١٠ .

﴿ ونَفْسٍ وما سوّاها ، فألْهَمها فُجورها وتقواها ، قد أفلَح من زكّاها وقد خابَ من دسّاها﴾

فالله تعالى خلق النفس الإنسانية في غاية الإعتدال ، وألهمها الخصال الخيّرة والخصال الشريرة ، فالسعادة والفلاح لمن قام بتزكية نفسه ، والشقاء لمن أفسدها .

الشارح

هي ، وتمثلت شمس الـولايـة في مـرآتنـا الساطعة ، فلا شكّ أننا سنتعرف على النـور البـاهـر في عـالم الإمكـان ، ومـربّي عـالم الوجود !!

* * *

لا عـبء أثـقـل عـلى كـاهـل الإنسان ، من أهواء النفس الأمّارة بالسوء !!

ولا حـجـاب أضخـم بيـن الإنسـان وحقائق الخليقة من هذه النفس !!

ولا حـصـار أضـيـق عـلى الإنسـان ، يسجنه فيـه ، ويسدّ عليـه جميـع الطرق ، من حصار النفس الأمّارة !!

وإذا أراد الإنسان أن يحلّق نحو مقامه الأسـنـىٰ ، عـليـه أن يـفـكّ هـذه الأغلال ، ويحطّم هـذه القيود ، ويشقّ هـذه الأستـار ، ويحطّ عن كـاهله هـذا العبء الثقيل . . .

* * *

أجـل فـالمؤمن يمتـاز بـأنـوار أقـوى إشعاعاً من هذه الشموس ، وبمنزلة أرفع من النجوم .

هـذه الشمـس وأخـواتها في مجـرّتنـا التـي يـربـو عـددهـا عـلى عـشـرات المـلايين ، ونظيـراتها في المجـرّات البعيدة التي يبلغ حجم بعضها آلاف المرّات أعـظم من شمسنـا . . . مهمـا بلغ نـورهـا وقـوي إشعاعها ، فهي محـدودة بحدود لا تستـطيع تجـاوزهـا ، ومـا ان تبلغ تلك الـمـرحلة والحـدود ينمحي أثرهـا في أعمـاق الفضـاء الرحب !!

أمّا نور المؤمن فهو أقوى نفوذاً من كل شيء، إذ يخترق السماوات الظاهرية والغيبيّة، ويصل إلى العرش الأعلى.

إن نـور المؤمن يتـرشّـح من أخـلاقـه الفـاضلة ، وأعمـالـه الحسنـة ، وعبـاداتـه الصحيحة . . . هذا النـور لا يراه أصحـاب النـظرة القصيـرة ، ولكنـه في عـالم المعنى يشعّ ضيـاءً وإشـراقاً في العـوالـم الكـونيـة كـالثـوابت والسيـارات ، وفي عـالم الآخـرة يتجسّـد بصورة مشـرقة مضيئـة ويتّجه نحـو النعيم الأبدي :

﴿ نُـورهـم يسـعـىٰ بَـيـن أيـديـهـم وبـأيمـانهم ، يقـولـون ربّنـا أتمِمْ لنـا نـورنـا ، واغفـر لنـا إنّـك على كـل شيء

قدير﴾[1] .

تضيء قبورهم من أضواء هذه الأعمال التي هي آثار الإيمان .

وعلى سبيل المثال : فإن الصَّلاة التي يؤديها المؤمن في أول وقتها مع شروطها الصحيحة ، تحلّق نحو السماء والملكوت الأعلى ، وهي بيضاء مشرقة تقول : **حفظتني حفظك الله** . إنَّ دعاء المؤمن يصل إلى العرش (أي أعلى بناءٍ في الوجود) ويُستجاب هناك . . . أي ان أثر الدعاء يخترق السماوات ، ويعبر ملايين الملايين من الثوابت والسيارات ، ويصل إلى حيث تفقد شموس هذه الأفلاك تأثيرها هناك .

يسير هذا الدعاء بسرعة أشدّ من سرعة الضوء ، ويضاهي القوة الطاردة عن المركز في قانون الجاذبيّة ، التي بها يحصل التوازن بين الكرات في الفضاء ، ويصل إلى عالم التجريد !!!

أمَّا ما يعيق هذه الحركة ، ويقلّل من هذه السرعة ، ويُبطل مفعول حركة الإيمان فهو المعاصي وتعدّي الحدود

---

(١) سورة التحريم / الآية : ٨.

الإلٓهية ، وبعبارة أخرى فهو أتبّاع النفس الأمّارة .

ولذا نجد في دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يرويه كُميل :

« **اللّهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدُعَاءَ**» .

إن غاية الأنوار المنبعثة من العمل الصالح والأخلاق الفاضلة للمؤمن أبعد من المحيطات التي تسبح فيها هذه الشموس والأقمار والكواكب. . . . بل إنها النقطة التي تتضاءل أمامها عظمة الشمس !!!

إلفات نظر :

إن أفضل وسيلة لمعرفة الحق جلّ جلاله ، والتعرّف على مقامات الأولياء ، وتحصيل المعارف الإلٓهية ، هو صفاء القلب ، والإبتعاد عن الصفات الذميمة ، وطهارة الباطن من الأخلاق الرذيلة من قبيل البخل والحسد والجُبن وسوء الظن والتعالي ونية الشر .

فيا أيُّها الإنسان :

قدّم إلى مقام الحبيب . . . قلباً نقيّاً ، وصدراً صافياً ، وباطناً شفّافاً !! حتَّى يجعل رموز الملكوت في هذا العالم

تنعكس في ذلك القلب الطاهر !

أوَ ما سمعت بقصّة الرّسامين في الصين ؟!

هناك قصة قديمة تقول : كان فريقان من الرسّامين في الصين يتنافسان فيما بينهما ، وكلّ منهما كان يدّعي أنه أمهر من الآخر في الرسم.

وذات يوم عيّن الفغفور (ملك الصين) مكاناً مناسباً لهذين الفريقين ، وأمر بأن ينصب حاجز سميك بينهما ، على أن يقوم كل فريق برسم صورة على الجدار أمامه يثبت بذلك جدارته ومهارته .

وعندما انتهى الفريقان من عملهما ، أمر الفغفور بمشهدٍ من كبار الموظفين والرسْميين أن يُزاح الستار عن اللوحتين لينظروا من المتفوّق !! وكان الأمر المثير للعجب أنهم لم يشاهدوا حتّى بمقدار شعرة ، فارقاً بين اللوحتين .

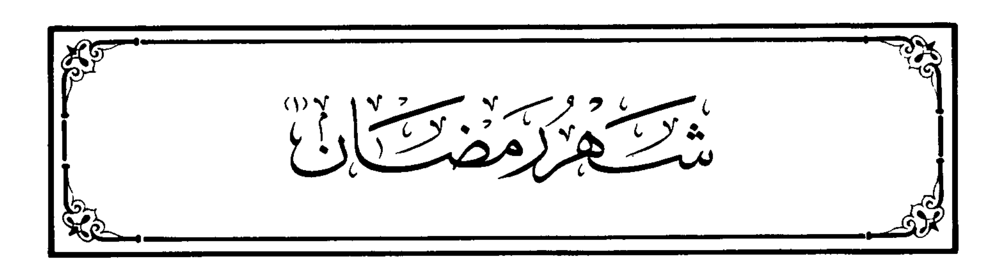
فاستغربوا كثيراً ، وعندما أجروا التحرّيات اللازمة اكتشفوا أن الفريق الأول هو الرسّام الأصلي ، والفريق الثاني أكتفى بجعل الجدار المقابل شفّافاً وصقيلاً إلى درجة تعكس الصورة على الجدار المقابل

دون ادنى فرق.

عندئذٍ وقف المتفرجون وقفة الإكبار للفريق الثاني على مهارته في جلاء الجدار وصفائه بواسطة المواد التي ابتكرها !!

وهكذا نحن . . .

فانّا نحتاج إلى قلب صافٍ كالمرآة يعكس الأنوار الإلّهية. . .



الحيوان الجلّال الذي اعتاد أكل القذارات ، وانحصر طعامه في التغذّي على

---

(١) شهر تهذيب الروح والجسد :

شهر رمضان شهر تهذيب الروح والجسد ، إنَّه شهر المغفرة والرضوان . كل طائفة تتوسّل بنوع من الأعمال الخيّرة في هذا الشهر المبارك ، ولكن أفضل الأعمال في هذا الشهر هو الذي أخبر به الرسول الأعظم (ص) في آخر جمعة من شهر شعبان .

« قال علي (ع): فقمت وقلت : يا رسول الله ، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر ؟

فقال (ص) : الورع عن محارم الله » .

يبحث أغلب الناس عن ملاك الفضيلة والرجحان في الأعمال ، من بين الأعمال الإيجابية والمشاريع الخيرية ، ولكن الرسول الأعظم (ص) يهتم بالجانب السلبي ، ويعتبر أفضل الأعمال هو الابتعاد عن الذنوب . ذلك أنَّ النَّبيّ بمثابة طبيب روحي للبشرية وقد أرسله الله تعالىٰ لضمان سعادة الإنسان ، وبما أنَّ الطبيب يسلك منهجين ، أحدهما إيجابي ، والآخر سلبي ، فالإيجابي يتمثّل في تناول الأدوية ، والسلبي يتمثل في الحمية من الأطعمة الضارّة . . . كذلك النَّبيّ فإنَّه يولي الجانب السلبي اهتمامه .

وهكذا نجد أنَّ الحمية في منهج الأطباء تقابلها التقوىٰ في المصطلح القرآني ومنهج الأنبياء . =

عَـذَرة الإنسـان ، محكـوم بـالنجـاسـة في أعضائه وجوارحه ، أعصابه وعروقه ، أوردته وشـراايينـه ، لحمـه وجلده ، وحتى داخـل عظمه .

يجب الاجتناب عن لبن هذا الحيـوان وبيضـه ، بل وحتّى الـرطوبـة الصـادرة منـه وعرقه .

وينحصر الطريق في تطهيره وصـلاحه للأكل والاستفادة منه في منـع هذا الحيـوان لفتـرة معيّنـة حـدّدهـا الشـارع المقـدّس للحيـوانات الجـلاّلـة ، عن أكـل العـذرة ،

= وإلى هذا أشار القرآن الكريم في علة تشريع الصوم فقال : ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون** ﴾ سورة البقرة/ الآية ١٨٣ .
إنّ مـردّ أغلب المآسي والمصـائب التي تصيب الفرد أو المجتمـع إلى التلوّث بـالذنـوب ، وإن عـدم التـورّع عن ارتكـاب المعـاصي كـان سبباً في إهـلاك الأمم وإفنائهم . وفي ذلك يقول القرآن الكريم :
﴿ **فأهلكناهم بذنوبهم** ﴾ . سورة الأنعام / الآية : ٦ .
أجل ، فإنّ الإسلام لكي يضمن سعادة الإنسان ، منع من البـذخ والإسراف ، والانغماس في الشهوات ، ومطاردة أعراض الناس ، لكن السائرين في فلك المدنيّة الغربية ، والمنسلخين عن شخصيّتهم ، والمنبهرين بثقافـة المذهب المـادي ، رغم أنهم يشاهدون الأضرار المادية والمعنوية لارتكابهم المعـاصي وإعراضهم عن منهـج السماء ، فإنّهم يصرّون على الاستمرار في ما يهلكهم ويفنيهم .

الشارح

وجعل طعامه منحصراً في الطعام الطاهر .

وكـذا الإنسان فـإنَّه طـوال أيام السنـة يكون طعامه وشرابه ، سلوكه وأقـواله ، بـل وحتى تفكيـره إمَّـا متمحضـاً في النجـاسـة والحرام . أو ممزوجاً بها إلى درجة لا ينفكُّ عنهـا . إنَّه اعتـاد على الأخلاق الذميمة من السرقة والاحتيـال ، والرشـوة والاختلاس ، والغيبـة والبهتـان ، والكـذب والثـرثـرة ، والإسـراف والبذخ . . . وبصـورة موجـزة ، فـإنَّ ظـاهـره وبـاطنـه قـد أصيبـا بـالـرجس والخبث ، واحتجب نـور الإنسانيـة وطهـارة الإيمـان خلف الستائـر السميكـة للشهـوة ، وعندئذٍ فهو بحاجـة إلى حميةٍ كـاملة وعلاج قويم .

لقد تلطَّف الحكيم جلَّ وعـلا ـ رحمةً وإحساناً منه ـ على هذا العبـد فأوجب عليـه صيـام شهر رمضـان ، وأمره في هـذا الشهر بالحمية والامتناع عن مجموعة من الأشياء .

إنَّـه ينهىٰ البـطن عن الإسـراف في الأكـل وتنـاول المحـرّمـات ، والعين عن الخيانة ، والنطق والسمع من التكلّم بـالغيبة والبهتـان أو سمـاعهمـا ، ومن التصـدّي

للألحان المثيرة للشهوة ، واليد عن الظلم والتعدّي والإيذاء ، والقلب والمخّ عن الأفكار الخبيثة ، حتَّى يتعرّف على المقام الإنساني ، ويقترب من المنهج الكبريائي ، ويدنو من حقيقة ذاته . . .

وعن طريق هذه الرياضة الخفيفة خلال شهر كامل يريد الله تعالىٰ أن ينتشل الإنسان من حضيض الحيوانية إلى أوج الإنسانية ، ويفصله عن أرض الوسواس الخنَّاس ليحلّق به إلى سماء الملائكة .

أجل ، فالطبيب الحاذق يهتم قبل وصف الدواء أو الطعام المناسب للمريض ، بمنعه عن الأطعمة المضرّة والعادات البذيئة . وهذا الإنسان الجاهل المصاب بمرض الحيوانية ، والمرتكس في داء البهيميّة ، والذي تهدّد سيرته الكريهة إنسانيته ، يجب في المرحلة الأولىٰ أن يتجنّب خصائص البهائم ثم يتحلَّى بالأخلاق الفاضلة التي هي بمنزلة الأطعمة والأدوية المفيدة لعلاجه .

وهكذا توجد فيه العفة والأمانة ، والإرادة والعزم ، والكرم والسخاء ، والصبر

والحيــاء ، ومـواســاة البؤسـاء والمســاكين وإيثارهم على نفسه . . . وهي نتائج قـطعية للصوم .

هــذه هي الخـطوات الأولىٰ للعبــادة والتوجّه إلى المحبوب ، والاشتغال بذكره ، وتلاوة القرآن :

﴿ وننـزِّل من القـرآنِ مـا هـو شفــاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾[1] .

وهكذا يتكامل تدريجيــاً ويرفـع خطوة نحو التعالي والترقّي . . .

وإذا كان صائماً حقاً ، فإنه يُشرف في أواخر شهر رمضان المبارك من خـلال نافـذة المُلك على عالم الملكوت الرحب ، ويطير من حضيض النـاسـوت محلّقـاً نحـو مقــام الجبروت .

وهذا هو طريق السعادة !! .

والشقي هـو الذي أسـدلت الشهـوات ستـاراً سميكـاً على عينـه ، فلم ينتبـه لهـذا العـلاج القـطعي ، فــراح يـرجّــح السلوك

---

(١) سورة الإسراء/ الآية : ٨٢ .

الحيواني على المنهج الإنساني الذي يتكفّل إصلاح النفس . . . ولم يكتف بذلك بل ساقه الجهل والغرور إلى الاستهزاء بالصائمين والمصلّين والتالين للقرآن . . . فذَرْهُ يذوق الثمرة المرّة لغفلته في الأيام القليلة القادمة ، وانتظر ندمه على ما مضىٰ منه ، حيث لا يفيد الندم شيئاً .

ومن المؤسف أن أمثال هؤلاء لا يكتفون بجهلهم وغفلتهم عن حقائق الأديان ، وحرمانهم من مزايا الحياة الحرة الشريفة ، بل لا يريدون الانفتاح على الحقائق والاستيقاظ من سبات الغفلة .

* * *

وأشدّ بؤساً من هؤلاء : الصائمون الذين يتحمّلون عناء الجوع والعطش في أيام الصيف الطويلة ، ولا يجنون من صومهم أية فائدة ! !

وذلك لأنهم :

أولًا : غافلون عن الفوائد الخُلُقية والآثار المعنوية للصيام ، وحتى لو كانوا يعلمون بتلك الفوائد فإنهم لا يعملون

بعلمهم .

وثانياً : إنهم حيث يملأون المعدة ويحمّلون الأمعاء فوق طاقتها في السحور ووقت الإفطار والفترة الواقعة بينهما ، يفسدون الدم وأعضاء البدن ، ويهدمون بناء الجسد . . وهذا عكس ما كان يريده الدين الذي جعل شعاره : « **صوموا تصحّوا** » .

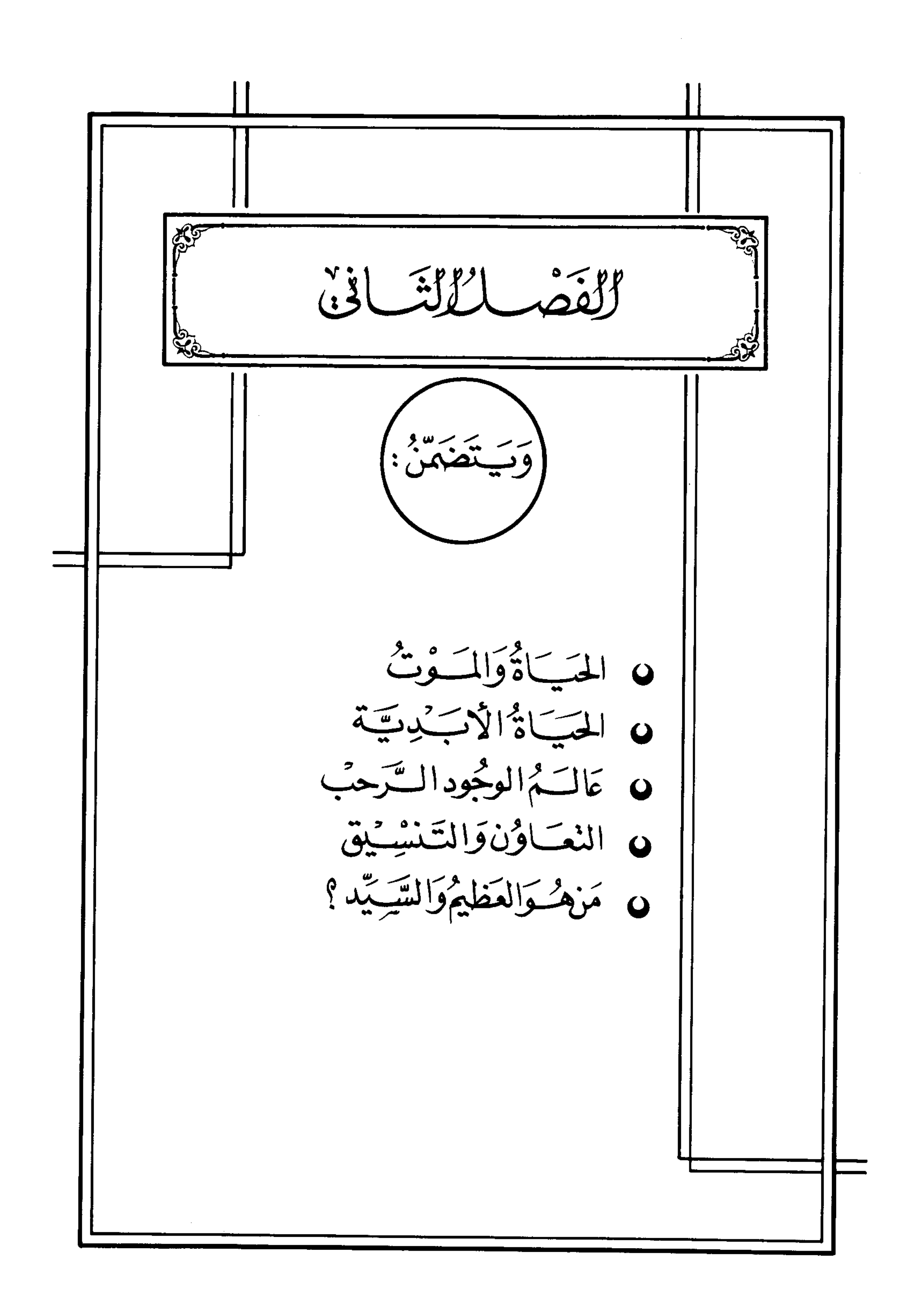
* * *

إنَّ الطفل الذي يمرَّن على الصيام من السنّ السابعة أو من حين تمييزه بين الخير والشرّ ، ويتدرب منذ الصغر على صيام فصل الصيف ، ويطّلع على مزايا ذلك فإنَّه يتعلم الصبر والحلم والصمود والثبات والاستقامة .

وحين يصل إلى سنّ البلوغ ، يكون فرداً عفيفاً حليماً مستقيماً ، محبّاً للخير . . . مفيداً لنفسه ومجتمعه .

وعلى خلاف ذلك ، الأطفال الأبرياء الذين ينشأون في أسرٍ غير ملتزمة ، ويتربّون بمعزل عن التعاليم السماوية ، فإنَّهم مدعاة للشقاء والفساد ، وسيكونون في المستقبل عالة على الشعب والدولة .

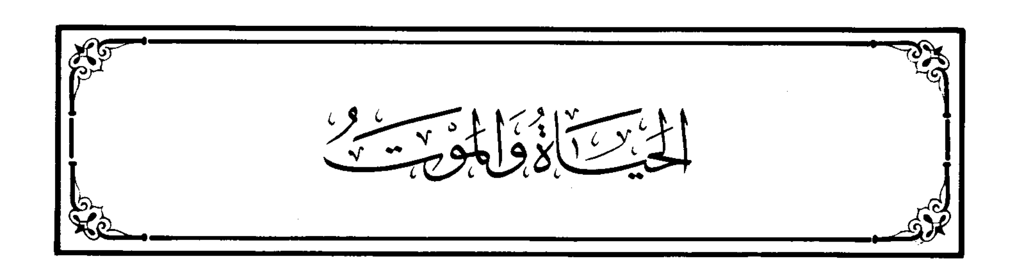




الفصل الثاني

ويتضمن:

- الحياة والموت
- الحياة الأبدية
- عالم الوجود الرحب
- التعاون والتنسيق
- من هو العظيم والسيد؟



قال علي عليه السلام :

الناس موتى وأهل العلم أحياء . . .

ينصرف مفهوم الحياة لدى عامة الناس إلى الحياة العادية وحركة الجسم الظاهرية . بينما ينصرف مفهوم الموت عندهم إلى انعطال حركة البدن وسكون الأعضاء والجوارح .

وبعبارة موجزة فان الحيّ يرادف ذا الروح ، والميّت يرادف فاقد الروح عندهم .

أما في التعبير القرآني ، وفي لسان الأحاديث ، وفي المنظور الديني فإن للحياة والموت معانيَ أخرى ، تعتبر هذه الحياة تجاهها مسألة نسبية ومجازية .

هذا المعنى المجازي للموت هو في الواقع نوع من التحوّل ، إذ هو نزع لباس الناسوت لارتداء رداء البرزخ .

أما القرآن الكريم فانه يصرّح :

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾[1] .

إن الموت المطلق فانه يعني العدم الذي يسبق الإيجاد . فالموجودات التي تتصف بالكينونة كلها حية ، حتى الجمادات وأجساد الأموات تعدّ في عداد الأحياء .

وبعبارة أخرى : فان المخلوقات التي تتحرك بالارادة حيّة ، وما سواها في عداد الأموات وان كان يعيش في محيط الأحياء .

حتى الدودة التي لا تملك عيناً ولا أذناً ، وتتعامل مع ما حولها عن طريق حسّ اللمس فانها حيّة في هذا الإصطلاح ، أما النباتات والجمادات فهي ميتة .

* * *

لكن الحياة الواقعية هي حياة الإنسانية ، والحي الحقيقي هو الإنسان الكامل .

وإن شئت قلت : الحياة هي حياة العلم والحكمة ، التي تقابلها الحيوانية والجهل المعبّر عنه بالموت المعنوي والأخلاقي ، كما يقول مظهر الحي الذي لا

(١) سورة البقرة / الآية : ٢٨ .

يموت :

« **الناس موتى وأهل العلم أحياء** » .

في هذا التقسيم تترادف الحياة الإنسانية مع حياة العلم ، والحياة الخالدة ، سواءً أكان ذلك قبل الموت المصطلح ، أم بعده .

المقصود من هذا العلم هو المعرفة بحقيقة الحياة وسرّ الخليقة ، أي معرفة النفس ومعرفة خالق النفس (معرفة الله ، ومعرفة النفس) . وعلى هذا فما عدا العارف بالحق والعارف بالحقيقة كلّهم في عداد الأموات .

الحي هو البصير الواقعي والسميع الحقيقي ، الذي يتذكر حقائق الخلقة ، وأسرار المبدأ والمعاد دائماً .

ليست هذه العين والأذن والحواس الظاهرية التي تملكها الحد المائز بينك وبين الحيوانات . فبعض الحيوانات تمتاز بحاسّة أقوى منك . إن النسر يرى فريسته وهو محلّق في الأجواء العالية ، فينقضّ عليها من شاهق ، وأحياناً يرى الطير فريسته وهي في البحر .

هناك مجموعة من الحيوانات ترى في ظلمة الليل ، والذئب يشمّ رائحة الغنم من

مسافة فراسخ بعيدة .

الهرّة أنشط من بني البشر وأذكى ، والذبابة أقوى إحساساً من بني الإنسان . . .

إذن فما يمتاز به الإنسان يكمن في حواسّه الباطنة ، ودرك حقائق الخليقة ، والسير في المقامات المعنوية . وعندما يفقد هذا الإحساس أو يصاب بالخمول فانه أعمى وأبكم !!

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعينٌ لا يبصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ﴾[1] .

* * *

وهناك مصطلح قرآني آخر :

الحي هو الذي يستطيع وعي الكلام الصحيح والمنطقي ، أي الذي يملك قلباً واعياً ، وبصيرة نافذة ، وسمعاً باطنياً ، انه الذي يتّعظ من سماع النصيحة والوعظ .

﴿ إنّ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[2] .

---

(١) سورة الاعراف /الآية : ١٧٩ .

(٢) سورة ق / الآية : ٣٧ .

إذن فمن لا يملك هـذه الحـاسّـة يستحق تـوصيفه بـالمـوت ، كمـا يقـول الله تعالى :

﴿ إنك لا تُسمع المـوتى ، ولا تُسمع الصُمّ الدعاء . . . ﴾[1].

وكذلك يقول :

﴿ ومـا أنـت بـمُـسـمـعٍ مـن فـي القبور﴾[2].

على خـلاف الأشخـاص الـذين يملكـون في هذه الـدنيا قلبـاً سليماً وعمـلاً صـالحـاً ، فـانهم أحيـاء حتى بعـد المـوت الظاهري ، وخالدون .

﴿ ولا تحسبنّ الـذين قُتلوا في سبيـل الله أمواتاً ، بل أحياء . . . ﴾[3].

وإذا تجـاوزنا ذلـك كله ، فان الحيـاة الحقيقيـة في المنـطق القـرآني هي الحيـاة الخالدة التي تعقب هذه الحياة الفانية :

﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾[4].

كما يحكي في سورة الفجر عن لسان الكافر :

---

(١) سورة النمل /الآية : ٨٠.

(٢) سورة فاطر / الآية : ٢٢ .

(٣) سورة آل عمران /الآية : ١٦٩ .

(٤) سورة العنكبوت / الآية : ٦٤.

﴿ **يا ليتني قدّمتُ لحياتي** ﴾[1] .

فإن الكافر حين يفتح بصيرته ، ويرى تلك الحياة الواسعة الرحبة ، ويشاهد مسكنته وبؤسه ، يحدث نفسه قائلاً : ليتني أرسلت زاداً لهذه الحياة الأبدية أدّخره ليوم بؤسي وحاجتي !!

إذن ليست الدنيا في مقابل الآخرة غير سجن أو مقبرة ، وإذا أحسن استغلالها فهي مزرعة صالحة وخصبة .

ما أكثر الأشخاص الذين يملكون ظاهر الحياة ، ولهم تحرّك مادي في وجوه مختلفة ، ولكنهم أموات في الواقع .

وما أكثر الأموات في الظاهر ، لا حراك فيهم ، لكنهم أحياء في الواقع !!

﴿ **إن هو إلّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ، لينذر من كان حياً** ﴾[2].

سأل شخص سقراط : ماذا تقول في الموت ؟!

فأجابه : أيها الجاهل ، لماذا تسمّي الحياة موتاً ؟!

---

(١) سورة الفجر / الآية : ٢٤ .

(٢) سورة يّس / الآية : ٧٠.

إذن فالحي بعد الموت هو الذي يمتاز قلبه بالسمع والبصر ، ويتأثر بسماع الآيات الرحمانية ومشاهدتها .

﴿ فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[1] .

أما الذين أصيبت عيون قلوبهم بالعمى ، وآذان قلوبهم بالصمم، والذين لا يريدون أن يسمعوا أو يفهموا فهم بعيدون عن الهداية ولذا يقول القرآن عنهم :

﴿ وما أنت بهادي العُمي عن ضلالتهم ﴾[2] .

* * *

وقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أن للعبد أربعة عيون ، يشاهد بعينين منها دينه ودنياه ، وينظر بعينين الى الآخرة ، فاذا أراد الله بعبدٍ خيراً فتح له عيني قلبه ، ليرى بهما الغيب وامر آخرته ، وإذا لم يُرد به خيراً ترك قلبه كما هو .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : ما

---

(١) سورة الحج / الاية : ٤٦ .

(٢) سورة النمل / الآية : ٨١ .

من أحدٍ من شيعتنا الا وله أربعة عيون ، عينان في رأسه ، وعينان في قلبه .

اعلموا عباد الله إنَّ جميع المخلوقات كذلك ، إلاّ أن الله تعالى فتح عيونكم وترك عيونهم عمياء .

وعن الإمام الباقر عليه السلام أن العمى عمى القلب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ .

وفي الحقيقة فان من كان أعمى القلب لا يملك قلباً سليماً ، لأن القلب الأعمى موطن للشياطين والأبالسة ، قال تعالى :

﴿ **إنّ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب. . .** ﴾[1] .

أي أن الذي يملك قلباً يقبل الحق ، فمن يصدّ عن الحق ويعرض عنه لا يملك قلباً .

إن الله تعالى يعبّر في موضع آخر من القرآن عن العمى بتعبير آخر حيث يقول :

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها** ﴾[2] .

---

(١) سورة ق / الآية : ٣٧ .

(٢) سورة محمد / الآية : ٢٤ .

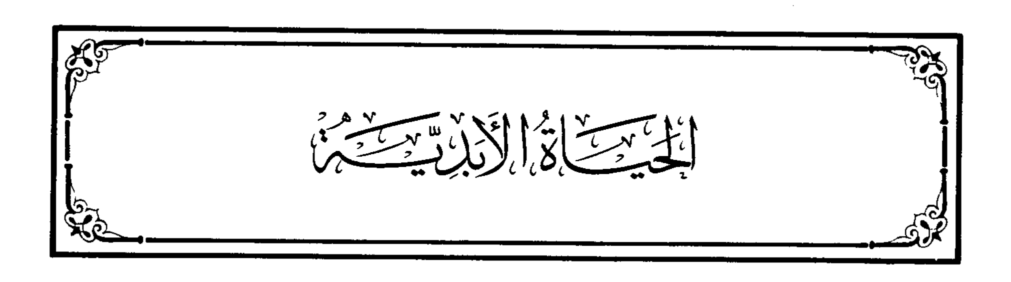
ومن البديهي أن لكل قلب بابين : أحدهما ينفتح على الملكوت الأعلى (عالم الملائكة) والآخر ينفتح على الملكوت السفلي (عالم الشياطين)، وكلما فتح أحد البابين أقفل الباب الثاني .

عندما ينفتح باب الملائكة يتجه القلب إلى الله بالنية الصادقة ، فيعمر القلب بذكر الله تعالى .

أما عندما يصبح القلب مركزاً للشهوات تمتنع الملائكة من الدخول ، ويصبح القلب وكراً للشياطين والأبالسة ، والعياذ بالله ، انه يصبح كمزبلة يجتمع فيها الكلاب والحيوانات الآكلة للجيف .

عليكم أن تطهّروا قلوبكم من الصفات الذميمة كالكبر والبخل والحسد وأمثالها حتّى تصبح مركزاًومنزلاً لله تعالى .





الحياة الأبديّة

قال تعالى :

﴿ والعصر ، إنَّ الإنسان لفي خُسر ، إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوْا بالصبر﴾ .

من الواضح أن كل منطقة تمتاز بمناخٍ خاص ، ويحتاج العيش في كل بيئة إلى أدوات خاصة .

فالمناطق الجبلية تختلف كثيراً عن المناطق الساحلية ، والمناخ القطبي يغاير المناخ الإستوائي تماماً ، وعلى هذا الأساس ، فإن حياة سكّان هذه المناطق تختلف تمام الإختلاف[1] .

---

(١) يريد الباحث المحقّق والعارف القدير أن يثبت بهذه الأمثلة البسيطة والبيان السليس أن الحياة الدنيوية مليئة بالآلام والمحن، فالمشاكل لا تغادر الشخص في هذه الحياة ، ولا تتركه آناً من الزمان . . . وإن الحياة السعيدة الأبدية هي الحياة الآخرة ، التي يستطيع الشخص في أيام عمره إعداد الأدوات المناسبة لها ، وتحضير الزاد والراحلة لها ، أو على حد تعبير المؤلف : الإنتقال من الحياة المادية الصاخبة إلى ساحل الراحة الأخروية مستعيناً بمظلة النجاة . =

إن السائح الذي يريد التجوّل في البلاد المختلفة ، وينوي التنقّل من إقليم إلى آخر يجب أن يحمل الأدوات المناسبة لكل منطقة.

وإذا قيست الكرة الأرضية بالعالم الرحب الذي من حولنا وسائر الكرات السماوية فانها لا تزيد عن كونها مدينة صغيرة ، بل قرية نائية ، ومع ذلك فإنَّ

= ولكي يتضح هذا الأمر أكثر نرى من الضروري أن يُساق الحديث نحو الآخرة ويوم الجزاء ، ليُعلم أن الآخرة هي دار الخلود .

يعتقد المسلمون أن يوم القيامة آتٍ ، وستُقام موازين القسط والعدل لا محالة ، وسينال المحسنون والمسيئون جزاء أعمالهم بلا ريب.

أما الماديون فانهم يعتقدون أن الكون والإنسان ظواهر وُجدت نتيجة للعوامل الطبيعية وعن طريق الصدفة .

يعتقد المسلمون أن الوجود لا ينحصر بالمادة ، خصوصاً وأن روح الإنسان أعلى من المادة . مضافاً إلى أن جميع الموجودات ـ سواء أكانت مادية ، أم وراء المادة ـ كلّها مخلوقات لله ، وقد وُجدت حسب نظام خاص وتقدير دقيق، فلا يوجد في الكون كله شيء يستند إلى اللغو والعبث.

لقد توصل العلم الحديث ، رغم ما هو عليه من النقص ، إلى هذه الحقيقة ، وهي أن النظام السائد في الكون مستند إلى قوّة تفوق جميع القوى ، اسمها الله . والقرآن يعبّر عن هذه الحقيقة بقوله : ﴿ **وما خَلَقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين**﴾ سورة الدخان / الآية : ٣٨.

ولهذا فان الإنسان المؤمن الواعي يستغلّ حياته ، ويستخدمها للسعادة الدائمة ، والوصول إلى الحياة الأبدية ، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

«خُذ من نفسِك لنفسك ، وتزوّدْ من يومك لِغَدِك»

الشارح

الاِختلاف في المناخ وبين أقاليمها وقاراتها عظيم . . .

وعلى هذا الأساس فالاِختلاف بين الكرة الأرضية والمرّيخ ، أو بين الزهرة وعطارد ، أو المشتري وزحل ، أو بين مجرّتين أشدّ وأعظم .

القمر أقرب الكرات السماوية إلينا ، والمسافة بيننا وبينه لو قيست مع سائر النجوم والكواكب فلا تكاد تُعدّ شيئاً ، إنه كالطفل في حضن أمه ـ الأرض ـ أو إنه كمحلّة من هذه المدينة الفخمة .

ومع هذا كله فإن العلماء الذين توصّلوا لمعرفة السبيل إلى هذه الكرة الصغيرة ، واستطاعوا إرسال أجهزة وأدوات إلى هناك ، وأصبح السفر إلى تلك البقعة والهبوط على سطح القمر أمراً ممكناً للبشر ، فلا تزال المخاوف تحيط بهم من تحقيق هذا الفخر العظيم .

لماذا ؟ لأنهم لا يزالون يجهلون أموراً كثيرة عن مناخ القمر ، ولا تزال الأمور غامضة لهم حول الظروف البيئية هناك ، ولا يدرون هل إن الأدوات والتجهيزات الحاضرة تكفيهم لهذه السفرة أم لا ؟!

ولا يُستبعد أن يقوموا ـ عاجلاً أو

على المـدى البعيد ـ بـالتحقيقـات الـلازمـة لمعرفة بيئة القمر ومناخه ، ثم يدعوا النَّـاس للسفر إلى القمر ، بـل لا يُستبعد أن يعـرفوا كـل شيء عن الكواكب الأخـرى ، ويهيئـوا وسائل الطيران والتحليق إلى هناك . . .

لكن مـا لا شـكّ فيـه أن استعـدادات خـاصـة ستنـظّم للمسـافـرين الى هــذه الكواكب ، ستُعدّ ملابس خاصة تتناسب مع المنـاخ الخـاص لكـل كـوكب من أفـراد المجمـوعـة الشمسيـة ، وربّمـا احتـاج المسـافرون إلى كـوكبٍ ما إلى أن يـأخـذوا معهم حاجتهم من الأوكسجين[أ] .

من الـواضح أن المسـافر الـذي يلتزم بوصايا العلماء ويصطحب الملابس الخاصة وسـائر المعـدّات معـه يستـطيـع العيش في السماوات ، ويقدر على المواصلة في رؤيته لعجائب الخليقة . ولكنـه لو لم يعمـل على طبق ما قررّه الفنيّون والاِختصاصيـون ، ولم يزوّد نفسه بالمعدّات الـلازمة ، فـانه سيفنى ويموت .

لاحظوا كيف أن الرجل والمرأة فردان

(أ) قـال تعالى: ﴿ يـا معشر الجنّ والإنس إن استـطعتم أن تنفـذوا من أقـطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان﴾ سورة الرحمن / الآية : ٣٣ .
المؤلف

من أفراد البشر ، وكلّ منهما صِنو الآخر ، ودرجة الحرارة داخل جسميهما واحدة ، ويمتازان بمميّزات مشابهة ، ومع ذلك فان جميع (الحيامن) التي تنحدر من صلب الأب والسابحة في السائل المنوي ، حين تصبّ في رحم الأم فلا تستطيع جميعها العيش هناك ، فما أن تمضي دقائق حتّى تفنى الغالبية منها وتندثر ، ويبقى واحد أو أثنان يُكتب لهما الوصول إلى الملجأ الآمن .

وبعبارة أخرى : فان نطفة المرأة ـ وهي من السكّان الأصليين للرحم ـ تحتضن الحيمن ، وتدخله إلى صميم قلبها ، وتمدّه بالأدوات التي يحتاجها في البيئة الجديدة ، فيقدر على العيش هناك نتيجة للتعاون مع صاحبة البيت ، وأخيراً يتبدّل الحيمن إلى جنين ، فإنسان تام الخلقة .

* * *

أمامنا ـ جميعاً ـ سفر طويل ، وشقّه بعيدة ، لا بدّ لنا من المضيّ فيها ، شئنا أم أبينا .

إنه السفر نحو الآخرة !!!

فعندما يحلّ الموت في موعده المحدّد ، سنفارق هذه الحياة ، لنقيم في المحل الجديد إلى الأبد . . .

إن الأدوات والمعدّات للتجوال في أراضي ومناطق المحل الذي سنُنقل إليه ، وكذلك الوسائل اللازمة للتحليق في سماء تلك الكرات والهبوط فيها . . . كلّها معنوية .

الإختصاصيّون في هذه السفرة الهائلة هم الأنبياء ، الذين يعرفون طرق ذلك العالم ، وهم الذين أحاطوا بطرق السلامة والسعادة النهائية بتعليم من الله الحكيم . . . وقد حمل عدد من هؤلاء القادة البارزين كتاباً معهم يحمل عنوان (رسالة الإنسانية) أو (منهج السعادة للحياة الأبديّة) من جانب (مالك يوم الدين) !!
كل ذلك لإرشادنا ، والأخذ بأيدينا. . .

هؤلاء الأفذاذ أساتذة متبحرّون في فن الحياة الأبديّة ، وخاصة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) الذي جاء بالكتاب الشامل والدرس الكامل في هذا المجال ، وصار دليلاً إلى ذلك العالم الرحب الذي ينتظرنا . . .

وكذلك أهل بيته الطاهرون ، وخلفاؤه

الحقيقيون : علي أمير المؤمنين وأبناؤه الأحد عشر الأوصياء ، والصديقة الزهراء سلام الله عليهم ، فإنهم وَرَثة علمه ، والأساتذة القديرون في الكون .

* * *

إذن ، على كل فردٍ من أفراد البشر يروم السعادة الأبديّة والحياة الدائمة مقرونة بالراحة ، ويريد درء الأخطار عن نفسه طوال الطريق ، وأن يتخطّى العقبات في منتهى السلام والأمان ، وأن يختم حياته هذه بالسعادة والفلاح ، ويستقرّ بعد الموت في جنات النعيم ، فلا بدّ أن يعمل على طبق رسالة السماء ، ويجهّز نفسه بمعدّات المرحلة اللاحقة .

* * *

إن الاِنتقال من سياج هذه الحياة للدخول إلى معالم الآخرة لا يتطلّب كثيراً من الوقت ، إنَّه الأمر الإلّهي ، وحضور ملك الموت ، وتحقّق الموت ، وحتَّى لو لم يرض أحدٌ بالسفر فانه يحمل قسراً على مغادرة هذه الحياة إلى عالم البرزخ .

إنَّ الذين تزوّدوا بالتعليمات والوصايا

التي جاء بها القادة الهُداة ، يعبرون الحدود بين هاتين المرحلتين بكل رغبة وشوق ، وبسرعة أشدّ من البرق الخاطف ، منشدّين نحر المقصد الأسنى ، فيوصلون أنفسهم إلى محطة السعادة كما تأوي الطير إلى أوكارها عند الغروب[أ] .

وعلى العكس من هؤلاء ، فإن الذين قضوا أعمارهم في دار الإمتحان والإبتلاء باللهو واللعب ، يجدون أنفسهم صفر الأكفّ ، فاقدي الأجهزة والمعدّات عندما تنشب المنيّة مخالبها في أجسامهم الضعيفة ، فينحدرون إلى الهوّة السحيقة نحو أسفل سافلين ، ويزداد انحدارهم لحظة

(أ) بعد الإعتقاد بالأصول الخمسة للدين ، والإلتزام بالفروع العشرة ، والتمّسك بولاء أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ، لا يوجد عمل يوصل الإنسان بعد الموت إلى أوج مراحل الكمال الإنساني ، ويضمن له الحياة الأبدية المقترنة بالسعادة أقوى من كفّ الأذى عن المخلوقين ، والإحسان إليهم ، خصوصاً بني الإنسان ، وأخصّ من ذلك تجاه الموحدين والمؤمنين والموالين والأرحام والوالدين ، الذين قال فيهم الله عزَّ وجل ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ .

وفي ذلك يقول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم : « خصلتان ليس فوقهما من البرّ شيء : الإيمان بالله ، والنفع لعباد الله» .

ويقول أيضاً : « أحبّ الأعمال إلى الله الإيمان بالله ثم صلة الرحم . . . والعكس عكس»

المؤلف

بعد أخرى ، فيحاربهم الموت من كل مكان ويرميهم بسهامه دون أن يموتوا . . .

إنهم يُلاحقون من قبل الموت ، ولكن دون أن يتخلّصوا من المحن والمصائب التي تعتريهم وتلازمهم وهو مصداق قوله تعالى : ﴿**ويأتيه الموت من كل مكانٍ ، وما هو بميّت**﴾[1] .

* * *

تصوّروا ركّاب طائرة محلّقة في الفضاء ، وقد أصيبت بالحريق ، فرمى كلّ بنفسه خارج الطائرة ، فمن كان من هؤلاء مزوّداً بمظلّة الإنقاذ يستطيع الهبوط على الأرض بسلام !!

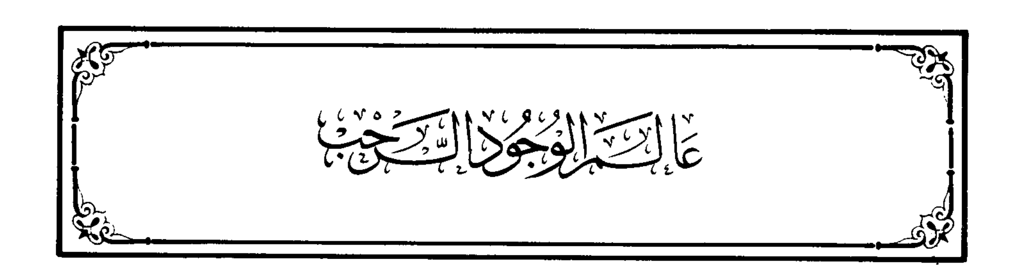
أما الذين لم يتزوّدوا بمظلّة الإنقاذ ، وغادروا الطائرة من دون هذه العُدة ، فان مصيرهم الهبوط المقترن بالتحطّم والفناء والوضع المُزري المؤلم .

إذن فالإيمان والعمل الصالح هما اللذان يبدلان الخسارة إلى فائدة ، ويضمنان السعادة الأبديّة في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة ابراهيم / الآية : ١٧ .





كلَّما ازدادت علوم الإنسان الواعي ومعارفه ، ازداد اعترافاً بجهله وقصوره ، أمَّا الإنسان الجاهل الوضيع فإنَّه يرىٰ العالم محدوداً ، ويقيس ما حوله بمنظاره الضيق المحدود .

عندما ينقل هذا الإنسان خطواته الأولىٰ في طريق العلم والمعرفة وينال من ثمار شجرة الحكمة ، يتعرف تدريجياً على العالم الرحب الذي يحيط به ، ويؤمن بعظمة الخلق والإبداع[1] .

---

(١) لقد توصَّل العلماء بعد جهود علية متقنة ، وبعد أبحاث دقيقة ، إلى الإقرار بأنَّ العلم البشري لا يستطيع الإحاطة بعالم الوجود الرحب ، إذ كلَّما ازدادت معلومات الإنسان ازداد اعترافاً بجهله .

إنَّ الإنسان الذي يتسلَّح بالمجهر ليطلع على الذرات والأجزاء الصغيرة ، يقف مذهولاً حيران أمام عظمة الخلق والإبداع .

وعلى أنَّ الإنسان استطاع في العصور الحديثة أن يكتشف كثيراً من المجهولات ، إلَّا أنه مع ذلك يقف عاجزاً عن تفسير كثير من معضلات الوجود . =

كلَّما رقى سلّماً في مدارج الكمال العلمي تتَّسع دائرة رؤيته إلى أن يرىٰ نفسه ذرة صغيرة في عالم الوجود ، ويرىٰ علمه نقطة وهمية في دائرة المعارف العظمىٰ للوجود بأسره !!

يقول علماء التربية : للعلم ثلاث مراحل :

في المرحلة الأولىٰ : يتصور الطالب

= انظروا إلى ذرة صغيرة من نطفة الإنسان إذا بقيت في المجرىٰ التناسلي لرجل كيف يمكنها أن تكون نواة لكائن حي جميل بعد أن تخضع لمئات التحولات . . . قد يتصوّر الرجل أنَّ هذه الذرة مهملة لا تمثّل دوراً في الوجود ، لكن الدقة تكشف عن خلاف ذلك .

جاء رجل إلى علي عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين إنِّي كنت أعزل عن امرأتي ، وإنها جاءت بولد .

فقال علي عليه السلام : وأناشدك الله هل وطأتها ثم عاودتها قبل أن تبول ؟!

قال : نعم .

قال : فالولد لك .

وما هذا الحكم من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلَّا لأنه كان يعلم أن ذرة صغيرة جداً من النطفة متبقية في المجرىٰ التناسلي كافية لتلقيح البويضة في رحم المرأة فيما بعد .

هذه الدقة تقودنا إلى ضرورة توجيه أنظارنا نحو الأبحاث العلمية المعمَّقة ، والتوغّل في نتائج البحوث والاكتشافات لنزداد إيماناً ويقيناً .

وهذا هو السبب في تأكيد القرآن الكريم على المطالعة في الآفاق والأنفس ، وحثّ الناس على تقوية صلتهم بالله تعالىٰ عن هذا الطريق .

الشارح

نفسه فاضلاً كاملاً ، فتهيج في داخله عواصف الغرور والأنانية ، ويستولي عليه الاغترار بالنفس .

وفي المرحلة الثانية : يعترف بقصوره وجهله إلى حدٍّ ما .

أمَّا في المرحلة الثالثة : فإنَّه يرىٰ جميع معلوماته قطرة تافهة في مقابل محيط الوجود بأسره .

إذا خرجت دودة من باطن الأرض ، أو عثّة من عشّها وتعرفت على بيئة البستان أو المنزل فإنَّها تتصور أنها أحاطت بجميع العالم ، كما كانت تتصور حفرتها السابقة هي الوجود بأكمله .

وكذا الجنين في رحم أمه . . .

فإنَّه يتصور أن رحم الأمّ هو كلّ ما خلق الله تعالىٰ !

وعندما يخرج إلى الدنيا يتصور الغرفة والبيت جميع الوجود . . . ولكنه تتّسع رؤيته تدريجياً ، وتزداد بصيرته ، ويكثر علمه ، ويزداد يقينه بما وراء علمه .

عندما يحدّق الإنسان ببصره نحو

السماء ، وينظر إليها بالعين المجردة ، يتصور أنه أحاط بالموجودات الفلكية كلها . . . ولكنه حين يجلس وراء التلسكوب فإنَّه يندهش أمام عظمة السماء وهذا العدد الهائل من النجوم ، ويتيقن أنَّ عدسته المكبّرة لم تدرك جزءاً من ملايين الأجزاء من هذا العالم(١) .

وكلَّما اتَّسعت هذه الوسائل الفنّية ، وازدادت عظمتها ، فإنَّها تدفع على الدهشة والحيرة أكثر . وهذا ما يؤكده الفلكيون وعلماء الفضاء ، حيث يطلعون على عالم أرحب وأوسع وراء هذه الثوابت والسيّارات ، ويقودهم عالم الفضاء اللّامتناهي إلى التوغل في المجرّات والسُدُم أكثر .

وكلَّما شاهدوا جانباً منها ازدادت

---

(١) قد يقود العلم إلى الغرور ، ولكن هذا من صفات الجهّال ، إذ العالم ينبغي أن يبلغ به التواضع إلى حدّ من النضج يجعله لا يتعلق بالسفاسف والأمور التافهة في الحياة .

عظمة العالم الرحب الذي لا تشكّل البشرية كلّها إلَّا جانباً ضئيلاً منه أوسع وأسمىٰ من أن تنالها يد الإنسان . وعلامة العلم الحقيقي أن تقوى روح التواضع في حامل العلم .

الشارح

دهشتهم وحيرتهم لما يشاهدون من العظمة والاتساع .

هذا كلّه فيما يتعلّق بالباصرة ، وكذلك الشأن في السامعة ، وسائر الحواس . . .

وهكذا حتى نصل إلى الشعور والأحاسيس الباطنية . . . عندئذٍ نرىٰ أنه كلما ازدادت أدوات المعرفة نتعرف على أسرار الوجود أكثر . ذلك أنَّ اكتشاف البخار والكهرباء والذرة والتوغل في أعماق هذه العلوم طيّر الألباب ، وبعث في البشر الحيرة والدهشة أكثر .

ثمَّ إنَّ هذه العلوم والمعارف التي تحسّ وتدرك بالحواس الظاهرة والباطنة ، وتقاس بالآلات والمعدّات ، وتحيط الإنسان علماً بعظمة العالم المحسوس ، تعتبر شيئاً تافهاً بالقياس إلى العالم غير المنظور . . .

فعالم الروح المحيط بهذا العالم ، والذي يقف خلف هذه الأدوات والمعدّات ، والموجّه لهذه الأجهزة والمعلومات لا يمكن حصره في إدراك البشر .

أيُّها الإنسان العالم ، تعرّف قليلاً على نفسك القوّية حتى تطّلع على نظام الخلق والإبداع !

يا بن آدم . .

ارفع خطوة نحو ذاتك وحقيقتك السامية حتى تطّلع على حقائق الوجود .

إعرف نفسك قليلاً حتى تعرف ربّك ! !

إنَّك لا تستطيع الوصول إلى مكان مرموق بهذه الأدوات المادية والأجهزة الحسّية ، ولن تستطيع معرفة الحق كما هو ! !

هذه العين الباصرة ، والاذن السامعة ، وهذه الأجهزة والآلات لا تستطيع إدراك حقيقة الوجود وسرّ الإبداع ، ولا تقدر على السموّ باتجاه العوالم العالية .

إنَّ روحك المقتدرة هي الفارس المجلّي في حلبة الوجود ، وحقيقتك السامية هي الطائر المحلّق الوحيد الذي يستطيع التحليق في الأجواء العالية للفضاء الذي لا يتناهىٰ .

ثُبْ إلى رشـدك ، واستعدْ وعيـك !!
واخترق الحواجز المادية واقترب من الأمـور المعنوية حتى تشاهد الجنة معاينة .

أنت تملك حبّ الاستطلاع بذاتـك ، وتحرص على كشف أسرار الخليقة ، وحتى لو مررت بخربة فـإنَّك تمـدّ رأسك لتنـظر ما بـداخلهـا كي تـضيف إلى مـعلومـاتـك الفـرديـة . . . فلمـاذا لا تلتفت إلى مخـزن أسرار وجودك ؟ ولا تشاهد الأحجار الكريمة التي أودعـت في كـنـوزك الـدفيـنـة . . . فتنكشف لك أسرار العـالم الأكبر ، وتنتعش من بهجة النظر إلى عـالم المعاني ، وتـزداد نشاطاً وحبوراً ؟!

إنظر من خلال نـافذة الجسم والـروح إلى عالم الجبروت ، وتمتع بجمال الإنسان الكبير ، فإن وجـودك الصغير نمـوذج للعالم الأرحب من جميع الجهات .

وكمـا قـال أميـر المؤمـنيـن وسيـد الموحدين علي عليه السلام :

أتـزعـم أنَّـك جِـرمٌ صـغـيـر
وفيـك انـطوىٰ العـالـم الأكبـر

وأنـت الكـتـاب المبـيـن الـذي
بـأحـرفـه يـظهـر الـمضـمـرُ

وبـديـهي أنَّ الـعـبـور من عـالـم الناسوت [أ] ، وسلوك درجات الكمال نحـو الملكـوت[ب] ليس أمراً سهـلاً ، بـل يحتـاج إلى تدريب ومراس ، ومتابعة أخلاقية .

يجب تعلّم درس الإنسانية في جـامعة الإسـلام والقـرآن ، إذن عليـك بمـطالعـة (رسـالـة الإنسـانيـة) حتى تبلغ هـدفـك السامي .

(أ) هو عالم المادة والوجود المادي .
(ب) أي عالم المعنىٰ وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) .

المؤلف

التعاون والتنسيق

قال تعالى :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج ﴾[1] .

«وبالعدل قامت السماوات والأرض»[2].

إن مصنع الإيجاد، ونظام الكون ـ كما يشاهد ـ قوي ومتين. لقد عمّر آلاف الآلاف من السنين، وسيعمّر آلاف الآلاف من

---

(١) سورة ق / الآية : ٦.

(٢) التعاون والانسجام :

إن الحديث الذي أورده المؤلف العظيم في مطلع هذا الفصل يبيّن أهمية التعادل والتوازن بين الموجودات السماوية الضخمة ، ودقة النظام فيها.

فكما أنه يجب أن يتم التعادل والتوازن بين الجسم والروح حتّى تستمر الحياة ، وان اختلال هذا التوازن يؤدي إلى المرض والدمار، كذلك الموجودات السماوية، فان اختلال النظام بينها يعني زوالها واندثارها. . .

إنَّ أيّ خلل في مداراتها وقوانين الجاذبية بينها ، يسبّب ارتطامها وفناءها . فبفضل الإنسجام والترابط الوثيق القائم بينها ، نجد هذه الكرات السابحة في الفضاء تستمر في حركتها الدائبة بدقة وإتقان.

الشارح

السنين أيضاً، ومع ذلك فلم يطرأ أي عارض أو سقم في عضو من أعضائه، ولم يفقد هذا الوجود الهرم نشاطه وحيويته وشبابه.

وكأن معمار الأزل، ورسّام الوجود انتهى لِتوّه من تسليم هذه القبة الزاهية الألوان، وكلما تمرّ الأيام والأعوام فان هذا البناء المُدهش يبدو جديداً للناظرين.

* * *

من الواضح أن سبب هذا الدوام، وهذا الإستحكام، هو التعاون المستند إلى العدل، وتظافر الجهود في أعضاء هذا الهيكل العظيم وجوارحه.

إن الشموس والكواكب والأقمار التي يتألف منها هذا البنيان الهائل، تنسجم فيما بينها كالحبيب مع محبوبه، وتتآلف فيما بينها على اعلى درجات الوفاء، مستمرة في حياتها في وئام وتنسيق.

وهذا ما يؤدي إلى الحركة الدائبة في هذا الكون المزوّد بأشدّ الأجهزة تعقيداً ودقة.

وإذا انتهى عمر نجمة من هذه النجوم، وأَفَلت بحكم سنّة هذه الحياة

الفـانيـة، وانتشـرت في أعمـاق الفضـاء وتـلاشت ، فـانقـطعت صلتها بـالأجـرام السـمـاويـة الأخـرى السـابـحـة فـي الفضاء ، فالتصور الأولي أن ركناً من أركـان هـذا البناء قـد انهدّ، ويجب أن يؤدي ذلـك إلى الـدمـار والفنـاء ، لكن ـ وكـالبـرق الخـاطف ـ [أ] تستعيـد الثـوابت والسيـارات تـوازنهـا وتعـادلهـا، وتحـافظ على التنسيق والاِنسجـام فيما بينهـا، فتضمن بذلـك بقـاء العالم.

«سبحان الذي اتقن كل شيء».

ومتى ولـد من هـذا المصنـع الهـائـل وليد جديـد، ونجمة فتيـة ، ونقلت أقدامهـا نحو هذا المجمـع الكوني الضخم، ودخلت

(أ) إن التعبير بالبرق الخاطف من قبيل ضيق القافية واستعصاء المطلب على التعبير والبيان ، وإلاَّ فإن البرق أو الضوء يحتاج إلى ملايين السنين حتَّى يجتاز هـذا الفضاء الرحب الـواسع ، في حين أن سـرعة قـوة الجاذبيـة لا يتصوّرهـا الذهن ولا يحتويها الإِنسان مهما كان دقيق الملاحظة .

إذن فالأجزاء المساهمة في هذا الكون تعبر هذا المجال اللامتنـاهي في لمحة واحدة ، وتحافظ على الاِنسجام والتعادل بين الكرات .

ولو لم تكن هذه الحركة كلمحة البصر ، فان هذه القبّة الدائـرية كـانت تنهار في تلك اللحظة ، وتندثر أجزاؤها ومكوّناتها .

وهذه السرعة الخارقة هي التي تستطيع إثبات معـراج نبينا صلَّى الله عليـه وآله بالطريقة العلمية .

المؤلف

إلى هذه المجرّات الملتهبة، أو ألّفت مجرّة أخرى جديدة على حدّ قوله تعالى :

﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون ﴾[1].

فان المجموعة الشمسية تستقبل لداتها وأترابها، وتحتضن الضيوف الجدد بكل ترحاب، مدخلة اياها في دائرة التعاون البناء والإِنسجام الكامل.

وهكذا نفهم سنّة الله تعالى في هذا الفضاء الرحب. . .

* * *

إن فهم معاني الحركات التمثيلية للموجودات السماوية، وتصوّر رموز هذا الإنسان الكبير أمر بالغ الصعوبة للناشئة على الأرض ، وكل ما يتحدّث عنه الفلكيون في هذا المجال فانه يستند إلى الحدس والتخمين ، فمن الأفضل أن نفكّر في وجودنا ونطالع في داخلنا[2] .

---

(١) سورة الذاريات /الآية : ٤٧ .

(٢) كما أن الجسم الإنساني قد صمّم على هيئة قلعة محكمة ، والجلد يعتبر بمثابة سور لهذه القلعة كي يبقى الحصن محفوظاً من حملات العدو ـ الجراثيم ـ فان العروق والمسالك الداخلية تعتبر بمثابة المؤثرات والعلائم الرئيسية والفرعية ، بحيث لا تملك أي صلة بالبنية الخارجية سوى عن طريقين هما فتحة الجهاز الهضمي من جانب الفم ، والآخر فتحة الجهاز التنفسي . =

إن النشاط والقدرة وصحة المزاج التي نشاهدها فينا، تعود إلى الاتحاد والاِنسجام بين أعضائنا وجوارحنا.

إن التعاون، وتظافر الجهود، وتقسيم العمل بين أفراد مجتمع الجسم والروح هو الذي يحافظ على وحدة أفراد هذا المجتمع.

لا تباين بين أعضاء هذه اللجنة!

فالأعضاء الرئيسية، والحواس الظاهرة والباطنة، والعضلات والأعصاب .... كلها منسجمة فيما بينها، ولا يوجد اختلاف، وأنانية، وغرور، وحب جاه، وبخل، وحسد، ومنافسة فيما بينها.

= وإذا لم يخضع هذان **الطريقان** للعناية والمراقبة، واختلّ التوازن والاِنسجام فيما بينهما، فان العدو يستطيع الدخول إلى الحصن بسهولة، مضعفاً القوى الداخلية وقدرتها على المقاومة.

كذلك الروح فانها تقيم صلاتها مع البيئة الخارجية عن طريق العين والأذن. ومتى خضع هذان الطريقان لاحتلال أو اعتداء من قبل العدو، يختل توازن الروح، ويسيطر العدو على مملكة وجودها، ويسوقها نحو الزوال والاِضمحلال...

وهكذا يتحول الإنسان إلى وحش كاسر أو بهيمة ضالة.

إنَّ المدنيّة الحديثة تحاول أن تستعبد الأفكار البشرية عن طريق العين والأذن (الراديو والتلفزيون). وبذلك تحقّق استعمارها الثقافي الذي يؤدي إلى الدمار والهلاك المعنوي.

الشارح

والغدد المنتشرة في أنحاء الجسم، في المخ والرقبة والجهاز الهضمي وسائر زوايا الجسد، تفرز سوائل مختلفة، وتصدر أنواعاً من الهورمونات متعاونة بحيث يكمّل بعضها بعضاً.

إنَّها نموذج للتعايش السلمي البناء حيث تعمل في جوّ من الوحدة والأخوّة والتعاون، محقّقة بذلك سلامة الإنسان واعتدال مزاجه.

وما يشاهد من انحراف في المزاج، أو مرض عارض يؤدي إلى الأمراض المزمنة والعاهات الملازمة فلا تعود المسؤولية فيها إلى هذه الأعضاء والجوارح، بل ان ذلك يستند غالباً إلى عدم رعاية القوانين الصحية، وعدم الاِهتمام بالحمية.

إنَّ المرض يستند إلى عدم الدّقة في منهج الطعام والشراب[1]، والنوم والراحة،

(١) كان الإنسان في العهود القديمة يفتقد المعرفة الدقيقة ويجهل خواص الأطعمة، ونظراً لقلّة المواد الغذائية فانه كان يتغذى من لحوم الفيل والحيّة والكلب والقطّ، مما كان يؤدي الى تسمّم كثير من الناس. ولذلك فان من أهم خدمات الأنبياء ارشاد الناس إلى طرق التغذية، والتمييز بين الأطعمة المحلّلة والمحرّمة، وما هو طاهر منها وما هو موبوء، انقاذاً لاتباعهم من الأخطار الناجمة عن سوء التغذية. =

والعمـل والنـزهـة، والـريـاضـة والحيـاة الجنسيـة، وخضوع هـذه المنـاهـج للطيش والعشوائية. . . الأمـر الذي يؤدي إلى عـدم وصـول الغذاء الكـافي وسـائـر الأمـور التي يحتـاجهـا الجسم اليــه، فيؤدي إلى ضعفـه وذبـوله وتعـرّضه للهجمـات. ونتيجـة ذلـك ضعف القوات المدافعـة عن الجسم ، ونفاد عتادها، وهذا ما يدعو الأعداء الداخليين[أ]، الذين كانوا الى هذا الحين يخشون القانـون ويخافون سطوة الجيش المجاهد، فيتعاونون مـع القـوات المسلّحـة، إلى ان يستغلّوا ضعف السلطة التنفيـذيـة فيقيمـوا الـفتـن والاِضطرابات .

مـن جـهـة أخـرى يـرى الأعــداء الخارجيون[ب] حدود المملكة وثغورها خالية

(أ) تقصد بذلك الجراثيم النافعة ، والتي تؤدي إلى تخمير الطعام في الجهاز الهضمي.

(ب) أي الجراثيم المضرة ، والمسبّبة للأمراض.

المؤلف

= لقد أوضح الأئمة عليهم السلام منـافع ومضـار بعض الأطعمة ، وأشـاروا إلى آثارها في الـروح والجسد. وعلى سبيـل المثال انـظروا إلى هذا الحـديث حول علة تحريم تناول الدم ، والمفاسد التي تسبّب فيها :

قـال الإمـام الـرضـا عليـه السـلام : « ويُسيء الخُلق ، ويُـورث القسـوة للقلب ، وقلّة الرأفة والرحمة ، ولا يُؤمَن أن يقتل ولده ووالده».

الشارح

من المدافعين والمرابطين فيوجّهون ضرباتهم القاصمة إلى هذا الجسم الهزيل، فتمهّد الأرضية للأمراض الفتاكة والأوبئة.

* * *

كلّ ما مهّدناه لحدّ الآن ، وما أفضنا في الحديث عنه، انما هو مقدمة لشرح أوضاع المجتمع الإنساني.

فغايتنا ـ إذن ـ هي أن أفراد الأمم والشعوب المختلفة، يحتاجون بدورهم لتحصيل السعادة الدائمة إلى التعاون والاِنسجام، شأنهم في ذلك شأن أعضاء العالم الأكبر، أو الجوارح في البدن.

عليهم أن يراعوا التنسيق بينهم، ويحفظوا التوازن، ويتركوا الأغراض الشخصية، لترتوي الشجرة الطيبة للإنسانية!!.

فالملك أو رئيس الجمهورية يمثّل القلب.

والعالم أو المرشد الديني يمثّل العقل والشعور والوعي، فيكون قائداً وحارساً للوحدة والاِنسجام.

الجيش والحرس يقومون بدور

الكــريـات البيض للقضــاء على الجـرائيم المضرة، والدفاع عن الوطن.

التـاجـر والفـلاّح يمثّـلان الكـريّـات الحمـر في إمداد المجتمـع بوسـائـل العيش والحياة المستقرة.

القـوّاد والإداريّون يشبهـون الكـواكب الثــوابت، فهم يحـافــظون على الاِنسجـام والتعـادل فيمـا بينهم من جهــة، ومن جهـة أخرى يكونـون عطوفين مــع الأمة يسعـون في قضاء حوائجهم . .

وهلمّ جراً . . . .

كي تتـوثق الصلات البشرية ، ويحـلّ العـطف والحنان ـ اللذان همـا أسـاس كـل سعادة ـ محلّ العداوة والمنافسة.

وهـــــذه سنّـــــة الله ورســالــة السماء ، ودستور الخالق الأعظم للسمـاوات والأرضين.

* * *

لكن مع الأسف الشديد ، نشاهـد أن الرؤساء غـالباً مـا يكونـون كالسبـع الضاري يـريـدون افتـراس الأفـراد الذين هم تحت قيـادتهم ، وخاضعـون لسيـادتهم ، والـذين يـرتدون زيّ رجـال الدين يسبّبـون التفـرقـة

والضلال ، والساسة يستغلّون الضعفاء والبؤساء أبشع استغلال وأشدّه ، والشعوب القويّة تفرض هيمنتها على الشعوب الضعيفة مثل الكابوس الثقيل . . .

القوات المسلّحة والحرّاس لا تؤدي واجباتها كما ينبغي ، التجّار والاقطاعيون يمتصون دماء المساكين والضعفاء . . .

ونتيجة ذلك انعدام العدالة والرأفة والإنسانية ، واختلال التوازن والتعاون ، وهذا كله يؤدي إلى أن لا يشمّوا رائحة الاستقرار والراحة .

ولكن الإنسان إذا أراد ، واتّبع أوامر العقل ، وتخلّى عن الأهواء الضالّة ، وسلك طريق الحقيقة، فانه سينال الراحة في الدنيا والآخرة .

قال تعالى :

﴿ والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾[1] .

---

(١) سورة التين / الآية : ١ ـ ٦ .



من هو العظيم والسيّد

قال تعالى :

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة . ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[1] .

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام :

« السيّد من تحمّل أثقال إخوانه ، وأحسن مجاورة جيرانه » .

لبعض المخلوقات مزية السيادة والعظمة تجاه سائر الموجودات[2] ، فسيادة

---

(١) سورة الحشر / الآية : ٩.

(٢) ليست العظمة والسيادة رداءً منسجماً مع كل قوام !!

ينطلق المؤلف القدير من هذه الحقيقة التي تقول : إن لبعض المخلوقات بالنسبة إلى بقية الموجودات سمة العظمة والسيادة ، وأن هذه السيادة ليست للجميع ، إلى نتيجة مهمة في مبحث العقائد وهي أن أهل بيت الرسول (ص) وبالأخص أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء أعظم الناس بعد رسول الله ، وأسماهم منزلة .

بيد أن أعداء الإسلام ـ الدين تزيّوا بزيّ الإسلام ـ غصبوا هذا المقام المنيع =

هؤلاء ثابتة عل الجميع . وليس ذلك اعتباطاً بـل يستنـد إلى النشـاط والحـركـة الـدائبـة والعطاء المستمر دون منّة .

الـشـمس سـيّـدة الـمـجـمـوعـة الشمـسيـة ، ومحور حـركـة الـسيـارات والأقمار ، لماذا ؟

لأن حيـاة الأرض وأترابهـا تستمّد من كرم الشمس وسخائها .

= منه سلام الله عليه ونحّوه عن منصبـه الإلّهي ، فآل أمـر المسلمين إلى ما نشـاهدهم عليـه اليـوم من التخلّف والتبعيـة والخضـوع لسيـطرة الاِستعمـار ، ونهب ثـرواتهم وخيراتهم من قبل القوى الظالمة الفتاكة .

لقد فاض صبره مرّة فأعلن في خطبته المعروفـة بالشقشقيـة عن هذا المخـطط الدنيء ، والتآمر الذي أدّى إلى تنحيته عن مقامه ، الذي كان هو أولـى النـاس به .

إسمعه يقول :

«والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة ، وإنه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى»

ويستمر في بيان حراجة الموقف ، فمن جانب يقول :

« أرى تراثي نهباً» .

ولكنه هل يعالج هذا النهب لتراثه بصرامة وشدّة ، أم يصبر ويحلم ؟

« وطـفقـت ارتـأي بيـن أن أصـولَ بيـد جـذّاء ، أو أصـبـر على طـخيـة عمياء . . . » ؟!

إنه يشاهد انحراف الأمة عن خط الإِسلام الأصيل ، وغصب الخلافـة من قبل الآخـرين ، وتقمّصها من قبـل من ليس أهـلاً لهـا ، في حين هـو محـلّ القـطب من الرحى ، ومحور الحركة ، ومركز الدائرة !!

إزاء هـذا الموقـف ، يشبّـه المؤلف العارف المحقّق دور الامـام والـرسـول في = تهذيب الأمة بدور الوالدين في تربية الأولاد .

ترسل الشمس كمية من طاقتها إلى أفراد أسرتها ، فتضمن بذلك لها الحياة والعيش . . . ففي كل لحظة تصدر ملايين الأطنان من الطاقة الحرارية والضوئية من هذه الكرة المتوهجة ، لتحقق الحياة للسيّارات ، والكواكب .

وفي الحقيقة فان وجود هذه السيارات مدين لكرم الشمس وإيثارها . . . ولهذا فان الشموس الفلكية تعتبر الملوك في العالم السماوي ، والمحور في حركة الكواكب والأقمار .

الشمعة تحرق نفسها ، وتذيب كيانها ، لتضيء ما حولها . . .

إنها تقدّم تضحياتها الغالية قرباناً

= فكما أن الوالدين يضحيان بحياتهما في سبيل تربية الأطفال ونموّهم وسلامتهم ، كذلك عترة الرسول صلّى الله عليه وآله ضحوا بحياتهم ـ دون أجر أو مكافأة ـ من أجل ارشاد الناس ، وانقاذهم من المهالك ، وهذه الخصلة من الحرص على مصالح المسلمين والسهر من أجلهم خاصة بهذه العترة الطيبة .

لقد نطق القرآن الكريم في سورة كاملةٍ (سورة هل أتى) بفضلهم وبإيثارهم سواهم على أنفسهم فكانوا المصداق الحقيقي للإيثار على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

وهم يصرّحون :

﴿ إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ .

سورة الانسان /الآية : ٩.

الشارح

لضمان سعادة الآدميين ، وهذا هو السبب في كونها محبوبة لدى الجميع .

الوالدان يضحيان بوجودهما من أجل سلامة الأطفال وتربيتهم وتنشئتهم ، انهما يصرفان شبابهما ، بل جميع دقائق عمرهما في سبيل سعادتهم دون أن يطالبوا بأجر على ذلك . . . ولهذا فهما يستحقان الطاعة والإِحترام عقلاً وشرعاً .

نستنتج من هذه النماذج أن كلّ من يريد السيادة والعظمة ، فعليه أن يضحي بنفسه في سبيل سعادة المجتمع ، وأن يتخلى عن الراحة والدعة حتى يستحق التكريم والتبجيل .

والشرط الأساسي هو أن لا يتوقع أجراً أو مكافأة من أحد ، وإلاَّ فهو أجير .

والمثل العربي المعروف يؤيد هذا الكلام : « سيّد القوم خادمهم» .

إن ما لا شك فيه أن الشكر والتقدير من قبل أفراد المجتمع ، أو أفراد الأسرة يزيد المربّي نشاطاً وسروراً ، وهذا يؤدي بدوره الى انتظام أمر المجتمع ، واستمرار الحياة في سيرها المنتظم . . . لكن ما

يتوخاه السيّد والمربّي من كل فرد هو أن يستغلّ المواد والأدوات الممنوحة له في الطريق الصحيح ، ولا يتركها تذهب هدراً .

انظر إلى الأرض تجدها تكتسب الضوء والحرارة من الأمّ الكبرى ، ثم تـصـرف ذلـك فـي خـدمـة بـنـي البشر ، والحيوانات ، وتستخدمها كمربّية حـنـون لـتـنـشئـة الأشـجـار وإنـضـاج المعادن ، وكلّ ما في الكون من موجود .

* * *

كذلك الأنبيـاء والأولياء والمصلحـون فـانهم مراكـز لـلإضـاءة والإنـارة ، ومصـادر للإشعاع والفيض كالشموس ، بـل هم أجلّ من الشموس وأسمى .

إذا كـان كـل من الشمس والشمعـة والسـراج يهب قسمـاً من وجـوده لأفـراد الـمجـتمـع بـسـخـاء ، ولـكـن دون إرادة واختيـار ، فـان الأنبيـاء والهـداة إلى الحق والحقيقـة يقـدّمـون أسمى التضحيـات في سبيـل إسعـاد أبنـاء جنسهم بـكـل وعي وشعـور، وعن إرادة واختيـار، وبـدافـع من الشوق والمحبة .

إنهم يتخلّون عن كل شيء ، ويؤثرون الآخرين على أنفسهم لتحقيق **رضا الله** تعالى ، وهذا هو المعنى الحقيقي لأداء العمل **قربةً إلى الله تعالى** ، معتبرين ذلك جزاءً ثابتاً من واجباتهم .

لقد صدق الرسول في قوله :

« إن أجري إلا على الله» .

لذلك فان محمّداً وآله الأطهار عليهم السلام ، كما ضحّوا بأرواحهم وأموالهم وجميع ما يملكون في الدنيا لإسعاد الأمة ، فهم الشفعاء إلى الله في الآخرة أيضاً . . .

وإذ ينادي الآخرون يوم القيامة : وانفساه !!

ينادي نبينا وأئمتنا عليهم السلام : واأمّتاه ، ! واشيعتاه !!

كل ذلك علامة السيادة وآية العظمة . . . وهم في ذلك لا ينتظرون مدحاً من أحد ولا ثناءً :

﴿إنّمانطعمكم لوجه الله لا نُريدُ منكم

جزاءً ولا شكوراً﴾[1].

لقد تحمّل أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين في سبيل إعلاء كلمة التوحيد، وانقاذ البشرية من ورطة الجهل والشرك والتخلّف ، ومن أجل إسعاد الإنسانية أذىً كبيراً وجهداً مضنياً ، حتى قال (ص) :

« ما أوذي نبي مثل ما أوذيت » .

واستطاع في ظل الجهاد والكفاح المرير ، والتضحيات الجسام أن يوصل الأمة البائسة إلى أعلى درجات السيادة والسعادة، ومع هذا كله كان يقول :

« لا أسألكم عليه أجراً ، وما أنا من المتكلفين» .

ويقول في آية أخرى :

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاَّ المودة في القربى﴾ .

في هذه الآية الكريمة يطلب الباري جلّ وعلا من حبيبه الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يخاطب المسلمين قائلاً : لا أطالبكم بأجر على الجهود التي

---

(١) سورة الانسان /الآية : ٩.

بذلتها من أجل هدايتكم وانقاذكم إلاَّ المودة في قـربـاي (وهم علي وفـاطمـة والحسن والحسين وسائر الـذرية الـطاهرة) فـإنهم في الـحقـيقـة آل الله ، ويـجـب احـتـرامـهـم وتقديرهم لتحقيق مرضاة الربّ تعالى .

فـالأمـر مـن الله ، وهـو تـكـليـف إلٓهي ، وليس قـولا من الرسـول فـإنَّ (قُـلْ) هـذه قـول على تبليـغ الأمـر من قبـل الله تعالى .

هـذه المـودّة والمحبـة أداة لسعـادة الشيعـة والمحبّين في الدنيـا والآخـرة ، ولا فائدة تعود على أهل بيت العصمة والطهـارة (قربى الرسول) من هذه المودّة !!

لقـد تحمّـل الأنبيـاء جميعـاً أعبـاء الرسالات للتبشير بدين الله تعـالى ، وضمان سعـادة أممهم ، فضحـوا في سبيـل ذلـك بالمال والنفس . . . بينمـا نجد نبيّنا العظيم أضـاف إلـى الـتـضـحـيـة بـالـمـال والنفس ، التضحيـة بأعـزّ أفراد عشيـرته في سبيـل إبقاء كلمـة التـوحيـد والحفـاظ على وحدة الكلمة .

كـان صلّى الله عليـه وآلـه آيـة في الاِستقامة وطوداً شامخاً في الصبر !!

فقد صبر كما وصّاه الباري جل وعـلا

في قوله : ﴿ **واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل** ﴾ في مقابل أذى الجهّال في عصر الجاهلية ، والتزم الحلم والأخلاق السامية الى أن نال من الله تعالى شهادة ووساماً ينطق على الخافقين مدى الأعصار : ﴿ **وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عظيم** ﴾ .

ووصّى أهل بيته باقتفاء أثره في الصبر ، وتحمّل الأذى من الأمّة ، حرصاً على أهداف الإسلام ، والتنازل عن حقوقهم في هذا السبيل .

* * *

وكأنّه كان يخاطب كلاًّ من أهل بيته عليهم السلام بهذه العبارات :

(١) أخي ، وابن عمي، ووصيي ، وخليفتي . . .

يا أمير المؤمنين !!

يا وليّ الأمة وقائدها !! هل تعلم أنهم سيغصبون الخلافة منك بعدي ؟!

يا صمصام ذي العزّة والجلال !!

أيّها الفارس المقدام . . . حذارِ من أن تسلّ ذا الفقار بوجه الجاهلين من الأمة وتفنيهم .

إن أمتّي الفتية بحاجةٍ إلى الصبر

والحلم ، والعطف والحنان ، ومن أولى بالحلم تجاهها منك ؟!

* * *

(٢) ويا فاطمة ؟!

يا بضعتي ، ويا حبيبة الله والرسول !!

سيغصبون فدكاً منك ، وسيرتكبون أقبح الأساليب وأقسى أنواع التعامل معك . . . فلا تدعي عليهم ، ولا تحثّي زوجك الغيور وابن عمّك للوقوف بوجههم . . .

تحمّلي ، واصبري !!

فان بقاء ذكر الله ، واستمرار ذكري ، وثبات كيان هذه الأمة في الدنيا ، وشفاعة المذنبين في الآخرة . . . كل ذلك منوط بصبرك وتحمّلك !!

* * *

(٣) ويا حسن !!

يا ولدي !! أيها الامام المجتبىٰ ، يا سيّد شباب أهل الجنّة !!

يا وارث حلمي ، هل تعلم أن خصماً كلّه مكر وخداع كمعاوية سيعترض طريقك ، وأنّ غاوياً فاسقاً منغمساً في حب الجاه كابن هند يسعى لتخريب شريعة

جـدّك ومـحـق ديـن ربّـك ، فـلا تخاصمه، واستعمـل أسلوب الصلح معه !! كي تحافظ على هذه الأمـة الفتيّة ، وتنقـذها من التعرض للزوال !!

* * *

(٤) وأنت يا حسين !!

يـا قـرّة العين !! يـا خـامس أهـل الكساء !!

سيتـولى السلطة في عصـرك يـزيـد المـاجن بالـرعب وبـالخـطط المـاكـرة التي رسمهـا له أبـوه معاويـة ، وسيُعلن عن كفره ونفاقه وما كان يكنّه أبوه وأجـداده من الحقد والعداء للدين . . .

إنـه سـيحـاول اقـتـلاع جـذور الإسلام ، واستئصال أسس القرآن !

فعليـك يا ولـدي المقدام ، يـا مظلوم كربلاء ، أن تنهض بشجاعة ، وتروّي بدمك الـطاهـر شجـرة الإسـلام ، وتلغي أسس الحكم الأمـوي الجائـر ، وتعلن عن كفر آل سفيان ، مُبطلاً نظام الزنـدقة السفيـانية . . . ومقتلعـاً الشجـرة الخبيثـة الملعـونـة في القرآن !!

يا ثمرة فؤادي !!

ستكون أنت وشبّانك وأهل بيتك وديعتي الغالية ، فبدماء رجالكم ودموع نسائكم ستروّى شجرة الشريعة الغرّاء .

* * *

وهكذا ضحى هذا الرسول الرحيم كلّ ما يملك ، وما تملك عترته الطاهرة في سبيل تحقيق ، رضى المحبوب ، وحفاظاً على الدين وبقاء الإسلام ، وسعادة البشرية .

هذا الإنسان الفذ !! وهذا المظهر التام للصفات الربوبية ، بعد أن تحمّل ما تحمّل ، وضحّى بما ضحّى ، أصدر هذا البيان الحاسم في أواخر ايام حياته الشريفة .

رغم ثقل المرض عليه ، جاء إلى الجامع ، فصعد المنبر ، وبعد أن وعظ أمته ونصح لهم ، أوصاهم بالتمسك بكتاب الله وعترته قائلا :

« **إنّي مخلّف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً** » .

* * *

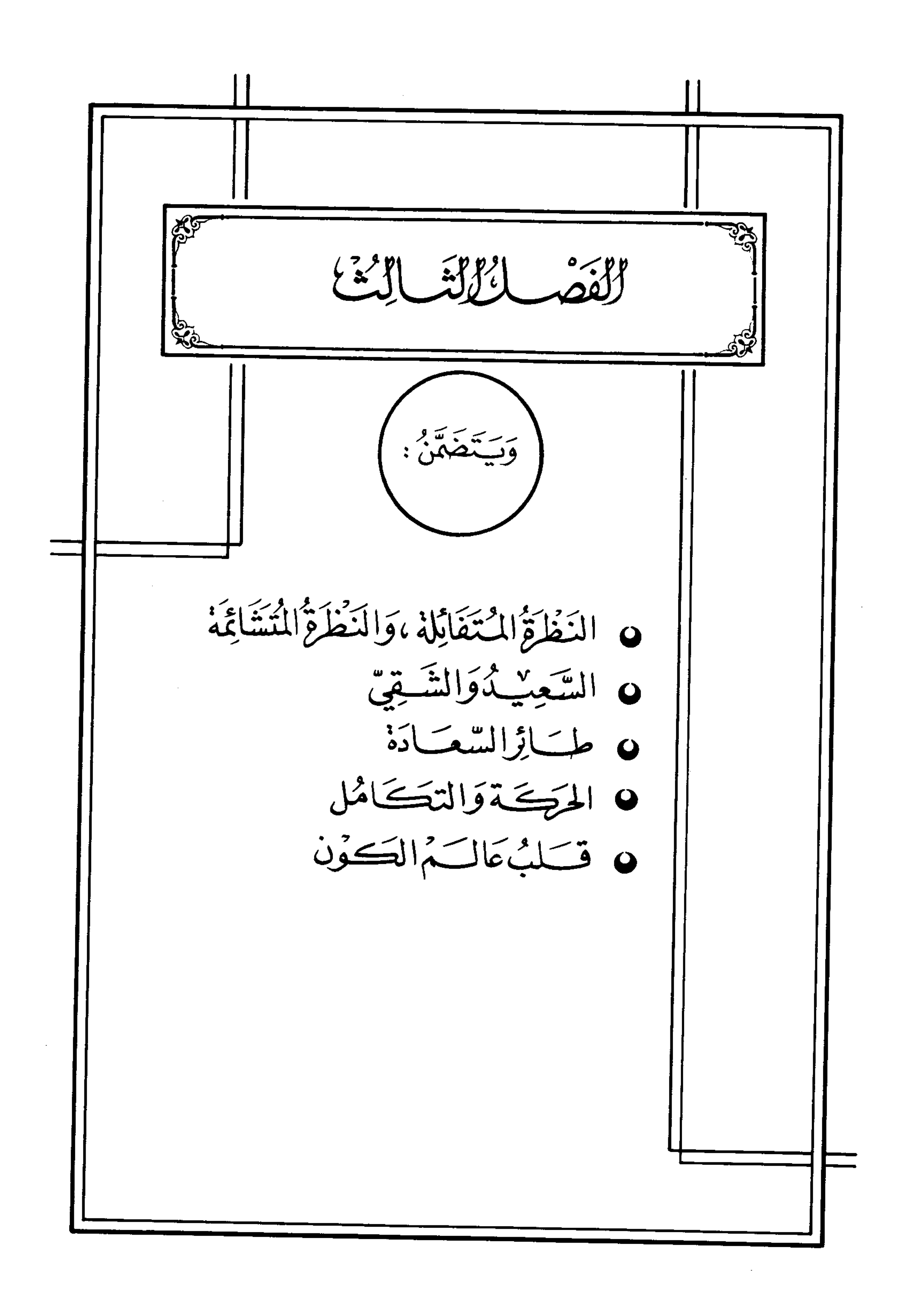
ولا يكتفي بذلك بل يوجّه خطابه

للمسلمين قائلاً :

أيها الناس من كان له حق عليّ فليقم وليطالب بحقه . . .

رغم أنه لم يكن لأحد حقٌ على رسول الله ، لكن هذا المثال الطاهر للأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن يريد التأكيد على الإهتمام بحقوق الناس في لحظات وداعه مع المسلمين .





الفَصْلُ الثَالِثُ

وَيَتَضَمَّنُ:

- النَظرَةُ المُتَفائِلة، والنَظرَةُ المُتَشائِمَة
- السَّعِيدُ والشَقِيّ
- طائِرُ السَّعادَة
- الحَركَة والتَكامُل
- قَلبُ عالَم الكَوْن





النظرة المتفائلة والنظرة المتشائمة

يرىٰ صاحب الضمير الحرّ ، والجسم السليم ، والإيمان المشعّ ، أنَّ كلّ شيء في عالم الخلقة مستقرّ في موضعه المناسب . إنَّه يرىٰ العالم كلّه حديقة غنَّاء ، مزدهرة بالأزهار المتفتّحة المنعشة . . .

وعلى خلاف ذلك السقيم المتذمّر فإنَّه يرى الكون بأسره ، شاحباً مخيفاً مؤلماً ، وينظر إلى الحياة نظرةً ملؤها الحزن . إنَّه يشكو من جفاء الدنيا ، ويتحدث عن المساوىء والمصائب دوماً[1] .

---

(١) التفاؤل والتشاؤم من أعراض النفس ، فالنفس الطاهرة التي يحملها المؤمنون ترى كل شيء جميلًا ، أمَّا من يفقد جمال الروح فإنَّه يرىٰ الأشياء قبيحة . وكما يقول الشاعر :

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرىٰ في الحياة شيئاً جميلاً =

إنَّـه يـرىٰ الـبـشـر أشـقـيـاء ، ومنحـرفين . . . ويعتبر المشاهد السماوية والأرضية كريهة قبيحة ، في حين أنَّ ما يُرىٰ في هذه الدنيا قبيحاً ومضرّاً إنَّما هـو من أثر النظرة القصيرة ، والصدور الضيقة . وإلا فعالم الوجود ، والكون الذي من حولنا جميل وبديع !! .

= وحقّ أن يخاطب هؤلاء المتذمرون بالخطاب الآتي :

أيُّهـذا الشـاكي ومـا بـك داءٌ كيف تغدو إذا غدوت عليلاً ؟

إنَّه رغم الاختلاف البيّن بين أنصار المادة وأنصار الروح حول وجود الروح وآثارها ، فإنَّ هناك اتّفاقاً بينهما حول القِيَم الإنسانية. ومن هذه القيم مسألة التفاؤل والتشاؤم .

إنَّ الفرد المصاب بالتشاؤم شخص غير سليم ، بل هو مصاب بمرض نفسي ، وسلوكه لاإنساني ، فالمتشائم يسعىٰ للثأر دائماً ، إنَّه لا يفهم معنى للتعايشِ السلمي ، بل يعيش حالة من الغضب والنقمة تجاه كل من حوله . وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

« الغضب نارٌ موقدةٌ من كَظَمه أطفأها، ومن أطلقه كان محترقاً بها » .

لكنَّ التفاؤل والنظرة الإيجابية تجاه الأقران ، من القيم الإنسانية العالية ، التي تبعث على تفتّح براعم حبّ الخير للجميع في النفس ، فيصبح الإنسان عطوفاً مع الآخرين ، مشاركاً إياهم في أفراحهم وأتراحهم ، وهذه ميزة امتاز بها الأئمة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين حيث كانوا يراعون شعور المجتمع ولا يترفعون عن مستوىٰ الآخرين .

ولا بأس هنا بنقل قصة عن الإمام الصادق عليه السلام حول الموضوع :

يقول معتب ـ وهو المسؤول عن تدبير الأمور المنزلية في دار الإمام الصادق عليه السلام : شحّت المواد الغذائية في سوق المدينة ، فارتفعت أسعارها ، فطلبني الإمام قائلاً : كم عندنا من المؤونة ؟ فأجبته : بما يكفي لمصروف بضعة أشهر ، =

المروج والوديان ، والجبال والبحار ، والأشجار والطيور ، والأزهار والبلابل . . . كلّها جميلة .

المحيطات وعجائبها ، والقارّات وغرائبها ، والسماء وبدائعها ، وهذا الوجود القويم ، وهذه الحياة المنعشة !! أيّ منها في غير محلّه ، وغير مرغوب فيه ؟! .

هذه الشمس المشرقة التي تبعث

= فقال لي : اذهب بها جميعاً إلى السوق وبعها لمن يطلب . فتعجبت من كلام الإمام ورحت أسأله : أبيع جميع المؤونة ؟ أجاب : نعم . وعندما نفذت أمره ، قال : عليك الآن أن تعدّ للبيت ما نحتاجه يومياً كما يعدّه أوساط الناس ، وليكن خليطاً من الحنطة والشعير .

وهكذا نرىٰ أنَّ الإمام عليه السلام يواسي جميع الطبقات في أيام الشدّة والضيق ولا يرضىٰ لنفسه بالكفاف حين يئنّ الآخرون لانعدام المواد الغذائية . . . وهذا هو منهج الإسلام الذي يرسي دعائم الأخوّة والمواساة بين المسلمين .

إنَّ النظرة التفاؤلية تظهر بشكل آخر في الكتب الفقهية حيث يعقد الفقهاء باباً خاصاً لإجراء أصالة الصحة بين المسلمين ، وحمل فعل المسلم على الصحة دوماً ، وبهذا يعتبر الإسلام حمل النظرة الإيجابية تجاه المسلمين واجباً شرعياً لا بدّ من الالتزام به .

يقول أحد علماء الغرب : إنَّ أساس الأمراض الروحية والاضطرابات الفكرية ـ هو التشاؤم تجاه الآخرين .

إذا كنت متفائلاً ومحبّاً للخير فإنك حتى عندما تظفر بعدوّك وتتغلب عليه تنظر إليه بعين الصفح والعفو ، وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » .

الشارح

الضيـاء والأمـل في حيـاة السعـداء ، وهـذا القمـر المنيـر والنجـوم المضيئـة التي تؤنس العاشقين وتسامرهم . . . هذا النسيم الـذي ينعش النفوس في الأسحار ، وذلـك الشلّال الـذي ينبعـث من الـجبـال فيحيـي الأرواح . . . البحـار الـزاخـرة بـاللؤلؤ ، والبسـاتين التي تغمرهـا الأراضي الخصبة ، الغيـوم التي تفيض رحمةً ونـدىً ، والبلابـل الغرِّيدة . . . وهذه النعم التي لا نفاد لهـا ، كلّها تنبىء عن الجمال والكمال .

أليس كل عضو فينا جميلاً ؟! .

هـذه العين الباصـرة ، هـذه الأذن السامعة ، هذا الدماغ الواعي ، هذا اللسان النـاطق ، هذه اليـد القديـرة ، هذه الـرجل الساعية ، هذا القلب الرحيم ، هـذا الطبـع اللطيف ، وأخيـراً فهذا القـوام الممشـوق ، والطلعة البهيّة ، هذا السرّ المكنون والثمـرة اليانعة . . .

هـذا العشـق والانجـذاب ، وهـذا الدلال والغنج . . . أليس كلّه جميلاً ؟! .

عميـت عيـن تـرىٰ النهـار ليـلاً ، والحسن قبيحاً !

وإذا كُنت متـــوفـراً على ذوق أسلم ، وعينٍ أشـدّ بصيرة ، فـإنك ستشـاهد جمـال المحبـــوب الأسنىٰ من وراء هـــذه الحُجُـب المزركشة ، وستحظى بلقاء الحبيب في كل قصرٍ فاخر وكوخ متواضع .

أجــل ، لا نقص ولا عيبَ في خـلق الحكيم . . وإذا وُجـد نقص فـإنّـه في عين الأعشىٰ !! .

إنَّ المـرآة المغبرّة والصَـدِئة هي التي تعكس ملاك الحياة بصورة سِعلاة مخيفة .

أيها الإنسان ، لماذا تنزعج لمشاهـدة هـذه المناظـر الـرائعـة ؟ ولمـاذا تميـل إلى الشيخـوخـة من مشـاهـدة المحبـــوب الفتيّ الغضّ ؟! .

أجل ، لو كنت ذا طبع سليم ، وقلب طــاهـــر . . . لكنت تلتـــذّ من رؤيـــة كـــل مصنـوع ، ولكنت تجني الفوائـد الجمّة من التعـامل مـع كلّ مخلوق . . . لكنـك تملك نظرة ضيقة وقلباً ملوّثاً ، إنك حسود وبخيـل وأنـاني ، تريـد الـراحـة والـرفـاه لنفسـك ، وملاكك في ذلـك ما يـريح جسـدك ويخدم بدنك .

إذا رأيت ولهان حسبته مجنوناً في هواك ، وإذا رأيت مجنوناً أردته أن يكون فراشة تحوم حول شمعك . . . إنك تريد الدرهم والدينار ، والمخازن وصوامع الحبوب ، والأرض والسماء ، والشمس والمطر . . . قائمة بخدمتك !! .

وما دام هذا الحرص والجشع ، والطمع والأنانية ، موجوداً في كيانك ، فإنَّك ترى العالم مليئاً بالمحن ، وتعيش في كربة وبؤس دائمين .

دع عنك الأماني المستحيلة ، ولا تمدَّن عينيك إلى ما يختصّ بالآخرين ، أشغل نفسك بالنظر إلى جمال الوجود الخلّاب ، وشاهد جنة الدنيا بالعيان . . .

لقد خُلِقت من أجل العالم ، ولم يخلق العالم من أجلك !

هب أنَّ الدنيا كلها لك ، كل ما في العالم من ذهب وفضة ، البساتين والمزارع ، البيوت والمحلات ، القرىٰ والنواحي ، المدن والدول . . . هب أنها كلها لك ، فماذا يجديك من ذلك ؟! .

إنَّـك تتضجـر من حيـاة محـدودة ، وتعجز عن تنظيم ثـروة صغيرة ، وممتلكـات قليلة ، إنـك لا تقـوىٰ على السيـطرة على أسـرتك الصغيـرة حتى زوجتك الـوحيـدة لا تستطيع التحكّم فيهـا . . . فلماذا تتحسّـر ؟ وتتـألم ؟ لمـاذا تنـوء بحمـل العبء الثقيـل للهمـوم والغُصص ، لتكن آمالـك بمستـوىٰ هيكلك الصغيـر . . . هـل الـذين تحمّلوا أعبـاء أشـدّ أسعـد منـك ؟! استمـع إلى أنينهم ، واعتبر بحالهم !! .

أجل ، إذا كنت ذا أذنٍ واعية فاستمع إلى كـلام الخـالق الحكيـم ، فلك بـعـد الموت عمر طويل وحيـاة خالـدة ، وعندئـذٍ فـإنَّ روحـك ستقـوىٰ ، وبنيتـك ستـزداد استحكامـاً . تستطيـع أن تطوي العـالم في لحـظة ، وتحلّق فوق المنـازل السمـاويـة ، تعـال وسخّـر ذلـك المُلك الـذي لا يفنىٰ لنفسك ، وعمّر تلك الرقعة الـواسعة التي لا تُحدّ ! فإنَّك مهما تأمل لتلك الحياة الخالدة ستناله ، وستحصل على ربح كثير .

لا أقـول لك : لا تتمنّ شيئـاً في هذه الحيـاة ، ولا تـطلب المجـد ! بـل أقـول :

عليك أن تطلب السعادة الأبدية ، وما تتمنّاه فليكن لصالح المجتمع ، وأشرك أقاربك وأصدقاءك في كل خير وسعادة وسرور ، ولا تدع لعفريت الهم والغمّ طريقاً إليك . . .

إقرن الفكر الطاهر بالعمل الصالح ، فإذا لم يمنحك الله في هذه الحياة فإنه سيمنحك في الحياة الأبدية الخالدة ، وهناك تقدر على تدبير نظام الأملاك التي لا تحدّ ، وتشاهد الحور والغلمان ، والقصور التي أعدّت لك .

إنَّ نعمة الحياة التي وهبها الله تعالىٰ لنا مقترنة بالحُسن والجمال ، وإنَّ النقائص التي نشاهدها في الصور والسِيَر تعود إلى الأخلاق الدنية للمخلوقين .

قد يتولّد الطفل سالماً ، في بيئة سليمة ، وأسرة شريفة من أبوين عفيفين ، ويتمتع بالطهر والجمال ما دام متنعماً برعاية هذه الأسرة ، ولكنه يفقد الأخلاق الطيبة والسلوك الجميل بسوء اختياره بعدئذٍ .

إنَّ الأخيار الأبرار في العالم ، والأنبياء والعباد الصالحين ، تمسّكوا بالعنايات الإلٰهية في كيانهم ، فصاروا قدوة

للآخرين أيضاً .

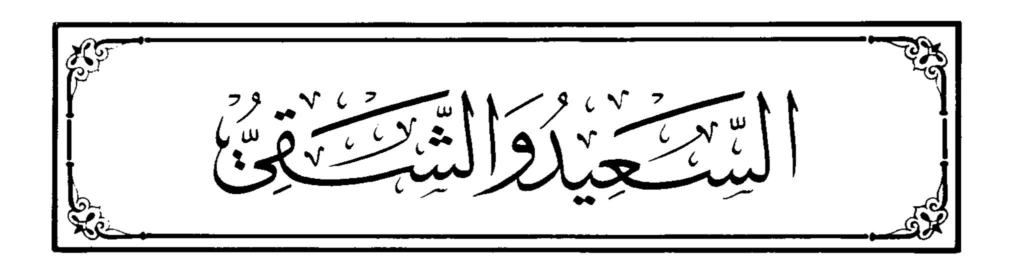
لقد امتاز حبيب الله وعترته الطاهرة ، أعني **محمّداً** وآل محمّد ـ صلَّىٰ الله عليه وآله ـ باحتواء الجمال الكامل للخلقة والكمال التام للحقيقة ، وهو العطاء الإلٰهي الذي شاء الله أن لا يُشاب بالدرك فيهم ، ولذا فإنَّ كمال هؤلاء وجمالهم كمال الحقّ وجماله ! لأنهم حافظوا على هذه الأمانة الإلهية .

وفي الحقيقة ، فإنَّ ما يمتازون به هو تجلّي شمس الربوبية التي يزداد تلألؤها وإشعاعها يوماً بعد يوم ، وتتزايد فضائلها آناً بعد آن .

وسلامٌ على المرسلين ،

والحمد لله رب العالمين





السعيد والشقي

« السعيد سعيدٌ في بطن أمّه ، والشقّي شقّي في بطن أمّه » .

هذا الحديث الشريف من الأحاديث المسلّمة المشهورة ، ولكن تفسيره حيّر كثيراً من العلماء ، فقالوا : ما دام أساس السعادة والشقاء [1] يعيّن للفرد وهو في رحم

---

(١) لكلّ من السعادة والشقاء معنى واسع ، تندرج تحته مواصفات كثيرة .
فمثلاً : قد يتصور لأول وهلة أن الشقّي هو الإنسان العاصي ، في حين ان المعصية مرتبة من مراتب الشقاء ، فهناك أمور لا توجب معصية ولكنها توجب الشقاء . فلقد عدّ رسول الله صلّى الله عليه وآله في حديث : البيت الضيق ، والدّابة غير المريحة من مصاديق الشقاء .. في حين أن امتلاك البيت الضيق لا يشكل ذنباً .

في نصوص أخرى نجد أن العمى والصمم بالنسبة إلى الطفل أو كونه ناقص الخلقة من علائم الشقاء .

هناك من يعتقد ـ خطأ ـ أن الركود الإِقتصادي علامة للشقاء ، وازدهار الاقتصاد يدل على السعادة ، في حين يذهب بعض الفلاسفة والمرتاضين الى أن تعذيب الجسم والضغط على متطلبات الجسد من موجبات السعادة للانسان .

. . . وهكذا نجد تباين الآراء واختلافها في موضوع السعادة والشقاء .

لكن بحثنا يجب أن ينصبّ على الحديث الذي استهلّ به المؤلف القدير بحثه =

أمـه ، وأن المصير القـطعي يصـوّر في تلك المرحلة من نشأة الانسان ، فما الفـائدة من بعث الرسل ؟! وما هو أثـر التبشير والانـذار في النـاس ؟ اذ الدعـوة والهدايـة تحصلان عنـدمـا يكــون الشخص مختـاراً في هــذه

= هذا ، وهو ما تواتر عن الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله : « السعيد سعيد في بطن أمّه والشقي شقي في بطن أمّه» .

لقد كان قانون الوراثة معلوماً من قبل الناس في العصور القديمة ولكن بصـورة إجمالية ، إلاّ أنهم كـانوا يجهلون التفـاصيل . كـانوا يعلمـون أن في البذرة والنـطفة ذخائر تستطيع نقل صفات الجيل الماضي إلى الجيل اللاحق .

لكن الأبحـاث العلمية الـدقيقة التي أجـراها العلمـاء في مجال التشريع وعلم الأجنّة ، أو صلتهم إلى هذه النتيجة ،وهي أنه توجد في نواة الخلايا البشرية كائنـات صغيرة ، تسمى بالمواد الصبغية أو (الجينات) التي هي العامل الوراثي .

ومن الاعجاز العلمي للرسول الأعظم (ص) والأئمة الهداة عليهم السلام أنهم أشـاروا الى هذه الحقيقـة قبل تـوصّـل العلمـاء إلى هـذاالإ كتشـاف المهم . يقـول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآلـه : « انظر في أي شيء تضـع ولدك ، فـان العِرق دسّاس » .

هذا الحديث يتكلم عن قانون الوراثة بصراحة ، لأن النطفة يجب أن تُبـذر في أرض صالحة ، فان جميع الصفات والخصائص تبدأ من هذه المرحلة .

لقد توصّل العلماء في أبحاثهم إلى وجود قانون دقيق في الخلايا وكيفية حملها للخصائص الوراثيـة . فظلّوا يتابعون تحقيقـاتهم لمعرفـة أي جانب من نـواة الخلية يختص بقـانون الـوراثـة ، إلى أن تـوصلوا إلى وجـود نـواة داخـل الخليـة سمّـوهـا بـ (الكروموزوم)، ولقد ثبت فيما بعد أن كل خليـة في جسم الإنسان تحتـوي على ٤٨ كـروموزومـاً ، أما خليـة الفـأرة فتحتـوي على ٤٠ ، والـذبـابـة ١٢ ، والحمّص ١٤ ، والطماطم ٢٤ ، والنحلة ٣٢ ، وهكذا .

لقد توصل العلم الحديث إلى أن الخصائص الوراثيـة تنتقل من الـوالدين إلى الأطفال حسب تقسيم الكروموزومات داخل نواة الخلية . =

الحيـاة ، وعندمـا يكون قـادراً على إصـلاح
نفســه وتغيير وضعــه . . . أما حين تُبـذر نواة
الـخيـر أو الـشــر في كـيــانــه وهــو فـي
الرحم ، وتثبّت سعادته أو شقاؤه هناك ، فان
الهداية والنصح والتبشير امور لا أثر لها !!

= وهذه الكروموزومات تحتوي على أجزاء أكثر دقة اسمهـا الجينات . وقـد عبّر عنها في الحديث بالعِرق .

* * *

هنــاك بعض العيــوب والنقــائص التي تصيب الــطفــل نتيجــة لانحــراف الأبوين ، وقدأشير إلى بعضــها في النصوص الدينية ، مثل مـا ورد عن الإمام البـاقر عليه السلام :

«سأله بعض أصحابه عن الرجل المسلم تعجبه المرأة الحسناء، أيصلح له أن يتزوّجها وهي مجنونة ؟! قال : لا» وهذا للتجنّب عن انتقال الجنون إلى الطفل .

كمـا ورد التصريح بهذا المعنى في حـديث عن الامام الصـادق عليه السـلام حيث قال :

« اياكم وتزوّج الحمقاء ، فان صحبتها بلاء ، وولدها ضياع» .

هذا فيما يتعلق بالخصال الروحية ، أمـا فيما يـرتبط بالجـانب السلوكي ، فقد أكّـد أئمتنا عليهم السـلام على عدم تـزويج البنت من شـارب الخمـر ، فـان شـرب الخمر يؤثر على سلوك الطفل المتولد من صاحبه.

قال امامنا الصادق عليـه السلام : « من زوّج كريمته من شارب خمر فقـد قطع رحمها » .

وكـذلك قـال رسول الله صلّى الله عليـه وآلـه :« شـارب الخمـر لا يـزوّج إذا خطب» .

وهذا ما أثبتـه العلم الحديث من الآثـار الوخيمـة التي تلحق الأطفال ، نتيجـة لإدمـان أحد الأبـوين أو تعـاطيـه الخمـرة ، ممـا يتـرك فيهم أسـوأ الآثـار التـربـويـة والصحية .

الشارح

والمشكلة الأخرى : أن هذه الجملة يستشّم منها رائحة الجبر ! لأنه لا يوجد تكليف في عالم الأرحام ، ولا وعي للنطفة ولا إدراك . . . حتى أن في بعض الأخبار أن المتولّد من زنا لا يدخل الجنّة ، واذا كان صحيح العقيدة وكان عمله مطابقاً للشرع في دار الدنيا ، فانّه يُترك في حظائر الجنّة . . .

* * *

وأقول :

إن الآيات القرآنية تصرّح بأن كلّ ما في الوجود فانه يملك وعياً وشعوراً . . . والنطفة واحدة من هذه الموجودات والكائنات الحية . ولذلك فهي تملك تكليفاً يتناسب مع ظرفها وعالمها الخاص .

قال تعالى :

﴿ وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاَّ أمم أمثالكم ﴾[1] .

﴿ وإن من أمّة إلاَّ خلا فيها نذير ﴾[2] .

﴿ وإن من شيء إلاَّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[3] .

(١) سورة الانعام / الآية : ٣٨ .

(٢) سورة فاطر / الآية : ٢٤ .

(٣) سورة الاسراء / الآية : ٤٤ .

﴿ الم تـر ان الله يسجـد لـه من في السَّمٰـوات ومـن فـي الأرض والـشـمس والقمر . . وكثير من الناس ﴾[1] .

فعلى خلاف أولئك الـذين يتصـوّرون أن تسبيح مـا عـدا الإنس والجنّ انمـا هـو تكـويني وليس تشريعيـاً ، عندمـا نـدقق في مفهـوم الآيـات نجـد أن التعبيـر بـ **﴿ لا تفقهـون تسبيحهم ﴾** و **﴿ كثيـر من النـاس ﴾** يكتب كـون التسبيح والسجـدة في الجميـع تشريعياً .

إذ لـو كـان المقصـود هـو التسبيـح الـتـكـوينـي لـكـان كـل الـنـاس مـن الساجدين ، ولم يصح التبعيض ! !

مضافاً إلى ذلـك فهناك روايـات كثيرة تـصـرح بـأن لـكـل نـوع مـن الحيـوانـات ـ كـالـديـك وبعض أصنـاف الحمام ـ ذكراً وتسبيحاً خاصاً ! !

﴿ ألـم تـر أن الله يسبّح له من فـي السَّمٰـوات والأرض ، والطيـر صافّـات ، كلّ قـد علم صلاتـه وتسبيحـه ، والله عليم بمـا يفعلون ﴾[2] .

---

(١) سورة الحج / الآية : ١٨ .

(٢) سورة النور / الآية : ٤١ .

لننتقل الآن إلى عالم الرحم وبطون الأمّهات .

لقد أثبتت التجارب والأبحاث الدقيقة للعلماء والمتخصّصين في أطوار الجنين وحالاته أن التلاقح بين نطفة الرجل ونطفة المرأة يتم في غاية الشعور والإختيار .

إن عملية الإخصاب ليست عفوية ولا شعورية !!

كيف يستطيع (حيمن منوي) واحد من بين ملايين الحيامن المنوية السابحة في نطفة الرجل أن يخترق ذلك الفضاء المظلم في رحم الأم بسرعة ، ويسبق أقرانه وخصماءه فيلقح البويضة ؟!

أم كيف تستقبل (البويضة) في الأنثى بأمومة ملؤها الحنان والدفء زوجها المكافح ، وتفتح له أحضانها وتغرسه في أعماقها ، ثم تفرز لعاباً خاصاً يحيط بهما فيمنع المهاجمين من الدخول إلى تلك الحظيرة . . . فيتم التلاقح في جو من الوعي والفهم والإدراك ؟!

هنا نفهم العدالة . . . وندرك أن الطبيعي هو حرمان المتولد من زنا ، من دخول جنّة الخلد، وأنه إذا كان في الدنيا ذا إيمان وعمل صالح فان الله العادل يكافئه بجعله في الحظائر .

ذلـــك لأن الـــجـنَّـــة مـــكـــانٌ للطاهـــرين ، والمتـولـــد من الـزنـــا كـــائن مّلوث !!

أجـــل لـو لـم يكن (حيمن) في صلب الأب ، ولـم تكـن (بـــويـضـــة) فـي رحـم الأم ، لم يقم الوالدان أبداً بارتكاب جريمـة الـزنا ، وذلـك ما نشـاهـده من عـدم التـذاذ الخصي بهذا العمل أصلاً .

إذن فـان الإنسان المجهـري الصغيـر هو الذي يحثّ الـوالدين على ارتكـاب هذا العمـل القبيح ، وجـزاء ذلـك حـرمـانـه من النعيم الأصلي ، أمـا الزانيـة والزاني فـانهما يعـاقبـان بـالجلد والـرجم نـظراً لتعدّيهمـا الحدود الإلهية .

﴿ وما ربّك بظلّام للعبيد﴾ .

بنـــاء على ذلـــك نفهم جيـــداً معنـى الحديث :

« **الـــسـعـــيـــد سـعـــيـــد فـي بـــطـن أمه ، والشقي شقّي في بطن أمه**» .

* * *

وأمـــا مـــشـكـلة الـهـــدايـــة، وبـعـــث الرسل، وفائدة التبشيـر والإنذار فتبـدو سهلة وقابلة للحلّ.

إن دعــوة الأنبيـاء وهــدايتهم تعتبــر للسعداء تذكيراً . . . فالإنسان السعيد الذي يمتـاز بالـطينة الخبيثـة حين يعيش في عصر الـفـتـرة والـجـاهـليـة ، وتـكــون بـيئـة ملّوثــة ، والفضــاء الــذي يستنشق هــواءه مـوبوءاً ، أو حين يتـربّى في جـوّ من الفسق والفجوز والإنحراف ، ما ان يشاهـد الهاديٍ إلى الحق ، ويستمــع إلى كلمــاتــه حتّى ينجـذب نحـو الحق ، ويــدخـل في زمــرة الصـالحين والمهتدين ، كمـا كان في عـالم الذرّ أو الرحم !!

وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وذكّــــر فـإن الــذكـرى تـنفــع المؤمنين ﴾[1] .

﴿ انمـا أنت مــذكّــر ، لست عليهم بمصيطر ﴾[2] .

فـالفائـدة من بعث الـرسـل إنمـا هي إنقــاذ الطيبيّن والمؤمنين واخــراجهم من ظلمــات الجــاهـليــة وسجـن الغـفلة مـن جــانب ، وإتمــام الحجــة على الأشقيــاء والمُفسدين من جانب آخر .

---

(١) سورة الذاريات /الآية : ٥٥ .

(٢) سورة الغاشية /الآية : ٢١ ـ ٢٢ .

« لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرُسُل» .

كي لا يقول العُصاة الماثلون بين يدي الرَّحمٰن : لو كنت تهدينا ، وتبعث رسولاً لإرشادنا ، لكنّا نعترف بالوحدانية ، ولكنّا نُسلم ، وندخل في زمرة المطيعين !![أ] .

* * *

هناك تفسير آخر لهذا الحديث الشريف ، نستطيع بيانه بأسلوب آخر أشدّ وضوحاً .

إن جمال الهندام ، ورشاقة المظهر، واعتدال القامة ، واكتمال الأعضاء والجوارح ، وسلامة الحواس الظاهرة والباطنة، من جملة الأمور الموجبة للسعادة في الحياة، والتي يجب أن تكتمل كلها في رحم الأم .

(أ) استناداً الى كلمات آل الله عليهم السلام، فان في العوالم السابقة على هذا العالم ، والعوالم السابقة على عالم الملك والناسوت، اي في (عالم الذر) الذي هو عالم النفوس ، حصل الامتزاج بين الصالح والطالح ، فقد كان المؤمن والكافر مختلطين في هذه الرحلة الطويلة ، وكان يكتسب أحدهما من الآخر الصلاح أو الفساد .

فجاءت بعثة الأنبياء لايقاظ أهل الإيمان وانقاذهم ، وتربية الأفراد الذين هم موحّدون بالذات وموالون من جانب ، واتمام الحجة على الآخرين من جانب آخر .

(المؤلّف)

إن رحم الأم هو الذي يقرّر السعادة أو الشقاء في الصورة ، ويعيّن كيفية المظهر الخارجي ، فالجنين مهما كان ، أبيض أو أسود ، جميلاً أو قبيحاً ، كاملاً أو ناقصاً ، سيبقى كذلك ولا يتغير بعد الولادة .

الطفل الذي يُولد أعمى أو أصّم ، أخرس أو أعرج ، سيبقى حتّى الموت كذلك : إذن فسعادته أو شقاؤه الظاهران يرتبطان بوجوده في الرحم. ولا يبعد أن يكون قبل انعقاد النطفة، في الأصلاب والأرحام السابقة . والعوالم الماضية : كاملاً أو ناقصاً ، إلاَّ أن نقصانه وكماله يتّضحان في بيئة الرحم الأخير .

لذلك ، فان هذا الموطن يعتبر للجنين مرآة للأعصار الماضية ، ورصيداً للمستقبل !!

وأخيراً ، فان تعديل النقائص الجسيمة بعد الولادة أمنية بعيدة، لا تُنال إلاَّ بالتمني ، أو بصورة اعجازية كما كان يحصل على يد عيسى المسيح عليه السلام، وإلاَّ فان التقدم العلمي في مجال الطب والتشريع لم يستطع ان يقدم شيئاً في هذا المجال .

وهكذا يتضح كيف ان « **السعيد سعيد في بطن أمه ، والشقي شقي في بطن أمه** » .

كذلك الحال بالنسبة إلى السعادة والشقاء بعد الموت ، والحياة الآخرة ، فإنهما من آثار الأعمال في دار الدنيا .

يجب تحصيل حسن السيرة والجمال الواقعي والكمال المعنوي في مدرسة الدنيا ! !

أجل ، فان الحياة الدُنيا هي أمّنا ، والتي نعيش في بطنها ونتربّى ، فالسعيد والشقي كلاهما وليدا هذه الجامعة وخرّيجا هذه الكلية ، إذ لا خيار للإنسان بعد الموت ، فهناك لا يستطيع اكتساب السعادة ولا النجاة من الشقاء .

فمن خرج من هذه الحياة ـ التي هي مزرعة الآخرة ـ ناقصاً وصفر اليد ، فسيصبح شقياً إلى الأبد، وسيخلد في نار نقصانه دائماً .

الإنسان الذي لم يفتح عين بصيرته في الدنيا ، ولم يقتفِ أثر الحقائق والسعادات ، وبقي أسيراً لشهواته وأهواء نفسه الأمّارة بالسوء ، والذي ودّع حياته

فاقداً للإيمان والعمل الصالح فسيكون في الآخرة اعمى وأصمّ بلا ريب . . .

﴿ **ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً** ﴾[1] .

أجل ، فكما أن حسن الصورة وجمال الهندام مطلوب في رحم الأم الجسديّة ، كذلك الأمّ الدنيوية ينبغي تكميل حسن السيرة فيها والاعتناء بالجمال المعنوي بالنسبة إليها .

ففي ظل الكسل والترف لا يبلغ الإنسان مقاماً !!

* * *

الجنين الذي لم يكمل أشواط نموه في رحم الأم ، فيصبح سِقطاً ، لا حرمة له ، حتى انهم لا يسمّونه باسم ، بل يوارونه في حفرة دون أن ينصبوا له علامة أو يرمموا له قبراً ، وإذا كان السقط علقة أو مضغة ، فهو في عداد النفايات .

كذلك الذي لم يكمل نموّه في مراحل الإنسانية ، فانه سيكون شقياً ومغموراً بعد الموت ، وينادي بكل حيرة قائلاً :

---

(١) سورة الاسراء / الآية : ٧٢.

﴿ ربّ ارجعون، لعلّي أعمل صـالحاً
في ما تركت﴾[1].

لكن الجواب بالنفي قطعاً !!

فلا أحد يُصغي إلى ندائه ، ولا عـودة
بعد ذلك إلى الحياة الدنيا !!

---

(١) سورة المؤمنون / الآية : ٩٩ ـ ١٠٠ .





هذا التحرّك الدائب . .

وهذا النشاط المتواصل . .

والأعمال والإنجازات التي نشاهدها في المجتمع البشري ، تجتمع كلّها وتتلخص في تحصيل السعادة والراحة ، وإرضاء هوىٰ النفس[1] .

---

(١) يسعىٰ الإنسان منذ بداية حياته لتحصيل السعادة ، إنّه يتوسّل بكل الأساليب ويسلك جميع السبل ليعيش سعيداً ، ولكن ما بقي مجهولاً لديه حتى الآن هو حقيقة السعادة .

لقد قام العلماء والباحثون طيلة الأعوام الماضية بالبحث عن السعادة وألّفوا في ذلك كتباً ورسائل عديدة .

لقد كان يعتقد بعض فلاسفة اليونان الذين سبقوا أرسطو بأنَّ سعادة البشر تنطوي تحت ظل الكمالات المعنوية . إنّهم كانوا يعتقدون بوجود صفات أربع هي الأساس للسعادة وهي : الحكمة ، الشجاعة ، العفة ، العدالة ، فمن كان واجداً لهذه الكمالات كان سعيداً ، حتى لو كان مصاباً بعاهة أو نقص في بدنه .

كذلك المرتاضون الهنود كانوا يرون السعادة في الرياضات الروحية وعدم الاهتمام بالجسد . إنّهم يركّزون على تعذيب الجسم لتصفو النفس ويتسنّىٰ تهذيبها ، وكذلك فإنَّ من مناهجهم النوم على سرير مغطّىٰ بالمسامير ليصلوا عن =

الإنسان ميّال إلى الراحة ، وحتى لو لم يكن المقصود راحة الجسد ، فإنَّ المقصود هو الاستقرار والطمأنينة .

البعض يرىٰ السعادة في هذا فحسب . .

= هذا الطريق إلى السعادة .

لكنَّ العصر الذي نعيش فيه ، وهو عصر التقدم الصناعي والحضارة ، يتصوّر السعادة البشرية في قالب آخر ، ويرىٰ أن الأصل هو الاقتصاد . ولقد تقدَّم المعسكر الشرقي في هذا المجال فجعل جميع القضايا الاجتماعية والدينية والأخلاقية تابعة للوضع الاقتصادي .

إنَّ ما لا شك فيه أنَّ المسائل المعنوية ركن أساسي من أركان السعادة ، ولكن ليست كلّ شيء في السعادة . وكذلك الاقتصاد فلا ريب في كونه دعامة من دعامات السعادة ولكنه ليس الكل في الكل .

إنَّ إفراط العالم الأوروبي الحديث في الاهتمام بشأن الاقتصاد أدَّى إلى إعراض الغربيين عن المسائل المعنوية والروحية ، وتسامحهم في أمر الكمالات النفسانية ، وهذا أدَّىٰ بدوره إلى ارتفاع نسبة الجرائم والخيانة والقتل والاختطاف في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا .

إنَّ القرآن الكريم يعتبر الكمالات الروحية الأساس المهم للسعادة فيقول في سورة الشمس / الآية : ٩ ، و١٠ .

﴿ قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسَّاها ﴾ .

ومع ذلك لم يُغفل الإسلام أمر المادة وأهميتها في استقرار النظام الاجتماعي ، فنرىٰ الرسول الأعظم صلَّىٰ الله عليه وآله يؤكِّد على ضرورة العمل المنتج لتحسين الوضع الاقتصادي ، فيقول :

« الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله » .

كما أكَّد الرسول الأعظم والأئمة المعصومون عليهم السلام على الاستغلال الجيّد للثروة واستثمار الطعام الجيّد والملبس الحسن ، غير أنَّه يشترط أن يكون عن طريق الكسب الحلال . =

كل ما يشاهد في العالم من تحرّك ، وأوضاع هائجة ، وعواصف شديدة تملأ جوانب النفس الإنسانية ، وكل أمواج الثورة والتحوّل والتطوّر التي تسيطر على الكون . . . من أجل نيل السعادة الوهمية .

هناك من يرىٰ السعادة في الوصول إلى الشهرة والحصول على السمعة .

وهناك من يرىٰ السعادة في الوصول إلى السلطة وإمساك زمام الحكم .

وهناك من يرىٰ طريق السعادة منحصراً في جمع المال وتضخّم الثروة .

وفي مقابل هؤلاء : هناك من يرىٰ السعادة في كسب العلوم والمعارف وتحصيل الجاه شبه المعنوي ! !

ولكن أحداً من هؤلاء لم يظفر بالمراد الواقعي ، ولم يحتضن عروس المنىٰ ، ولن

= قال تعالىٰ : ﴿ قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق ﴾ . سورة الأعراف/ الآية : ٣٢ .

وهكذا نجد أنَّ المدارس الفكرية المختلفة تنظر إلى مسألة السعادة بعين منحازة ، بينما يوازن الإسلام ـ وهو أسلوبه الدائم ـ بين جميع الجوانب ، ويدخلها في حسابه .
الشارح

ينال ذلك !!

قـد يتصوّر مسكين من هؤلاء أنـه ظفر بمُناه ونال مراده ، ولكنه يكتشف خـطأه بعد فتـرة وجيـزة ، ويعـرف أنـه طيلة السنــوات الماضية كان الفاصـل بينه وبين آمـاله كبيـراً جداً .

* * *

مـا من غافـلٍ قضىٰ حياتـه كلّهـا في الغفلة والسُكـر ، وتصـور لنفسـه نـوعـاً من الـراحـة كمـا يتصـور الأطفـال والمجـانين لأنفسهم ، إلاَّ ويستيقظ يـومـاً ويكتشف أنـهَ قضىٰ عمره الشريف في الغفلة والغرور .

إنَّ من الواضحِ أنه كلما ازدادت ثـروة الشخص وشهرته واتّسع نطاق رئاسته ـ وهي آمال سامية لأغلب الناس ـ فإنَّ محنته وألمـه وهمومه تزداد .

وهذه نتيجة عكسية بيّنة .

هب أنَّ المغـــرمين بهــذه الأمـــور لا يحسّـون بالألم والهم ، وقـد يكون هـدفهم بلوغ المنىٰ ويُسكـرهم الـوصـــال فحسب ، لكنهم حين يجابهون بحقيقـة مرّة هي تخلّي

هـذا المحبـوب عنـهم فـهنـاك الـطامّـة الكبرىٰ !!

هذا المحبوب الزائل . .

والمعشوق المجازي . .

والصديق الآني . .

قد يترك الشخص ويتخلّىٰ عنه !

* * *

أرأيت تاجراً يملك الثـروات الضخمة الطائلة ، وقد أفلس ؟!

هـل شاهـدت عاشقـاً تركتـه عشيقتـه وولّت لغيره ؟!

هـل تحـرّيت حـال المحبّ للجـاه والـرئاسـة عندمـا يُقـال من منصبـه ، وتُنهىٰ مهمّته ؟!

عنـد ذاك تجد السخـرية تتعـالىٰ على شفاه المحبوب ، نكاية بهذا العاشق الـوامق الـذي سخّر كـل كيـانـه من أجله . . . وإن طـال الزمن ، فـإنَّ الضربـة المـوجعـة التي يتلقّاها العاشق عند موته حين يفارق الأماني والآمال كافية لهدم كل ذلك البنيان .

انـظر إلى عبـد الملك بن مـروان أو

السلطان محمود الغزنوي بعين العبرة ، فكلّ منهما كان معانقاً للسعادة ملازماً لها . ولكنه في لحظات الاحتضار كان ينظر إلى هذه الدنيا الخؤون بين الحسرة والندامة .

كان عبد الملك يتمنّى أن يكون راعياً للأغنام يأخذ أغنام فلان إلى المرعى بدلاً من الخلافة والرئاسة .

وكان السلطان محمود يتألم لفراق الذهب والفضة والمجوهرات ، التي يخلّفها وراءه .

وكانت عاقبة هذين وغيرهما من نظرائهما من الملوك والجبابرة والطواغيت أنهم لفظوا الأنفاس الأخيرة وانحدروا إلى حفرة الآمال والأماني المقبورة .

هذا الإنسان الذي يوجّه كل همه نحو الحركة الدائبة والنشاط ليحصل على مراده المزعوم ، ويبلغ مناه ، فتراه يجوب الصحاري ويقطع البحار ، ويتحمل المصاعب والآلام والمحن في هذا السبيل ، لو وجّه اهتمامه نحو المحبوب الحقيقي ، واشتغل بالنظر إلى جمال الجميل المطلق !! وقام بأعماله الدنيوية

ابتغاء لمرضاة الحق وخدمة عباده ، فإنَّ روحه وجسمه سيتمتعان بالراحة التامة إلى الأبد .

* * *

إنَّ حبّ هذا المحبوب الواقعي نار مقدسة تذكو في أعماق العاشق فتقضي على الآلام والغصص والمحن في كيانه ، وتحرقها فتحوّلها إلى رماد ، وتصفو حقيقة المحبّ ناصعة مشرقة .

هناك لا يبقى للذات ، ولا للغير عين ولا أثر !! وعندئذٍ لا غصة ولا همّ .

﴿ **ألا بذكرِ الله تطمئنُّ القلوب** ﴾[1] .

إنَّ عشّاق الشهوة والثروة ، وروّاد الشهرة والجاه ، وطلّاب السلطة والرياسة يلفظون أنفاسهم الأخيرة بحسرة وندم ، أمَّا عشّاق الحق والحقيقة ، فإنهم يحومون كالفراشة حول الشمعة ، وكلّهم استقرار وهدوء ، يسيرون نحو الموت بشوقٍ ولهفة .

إنَّهم يستقبلون الموت والآلام التي هي أشدّ مصيبة من الموت بصدر رحب، وما

---

(١) سورة الرعد/ الآية : ٢٨ .

يبعث على العجب ، ويلفت الانتباه أنهم لا يتحسرون أبداً ، ولا يحسّون بالألم والمحنة !!

هذا ميثم التّمار !!

قطعت يداه ورجلاه في سبيل المحبوب ، وقد صُلب على المشنقة ، ولكنه يطلّ من أعلىٰ المشنقة بابتسامة عريضة ، وشوق شديد ، يصف حبيبه . ويذكر فضائل مولاه ساخراً من الإعدام والشنق !!

كل الأنبياء والأولياء والمجاهدين في سبيل الله حلقات مشرقة في هذه السلسلة الذهبية ، بحيث أدّوا واجباتهم لا يعرفون الكلل والملل ، ولم يلوّثوا أذيالهم بدرن الحياة ، ولم يخلطوا العشق الحقيقي بالتعلّق الموهوم .

كلّ واحد من الأنبياء ورجال الله يمتاز بحياة مشرقة وصور مشرّفة من الجهاد والتضحية .

كلّ واحد منهم حقّق أعلى المستويات في الفداء وتحمّل المشاقّ . . .

إلّا أنَّ لعشّاق الشهادة في كربلاء

ملحمة بطولية أعظم ، ولتضحياتهم يوم عاشوراء لوناً آخر لا يضاهيه أحد في هذا الكون . إنهم لم يُبقوا لأي عاشق صادقٍ مجالاً ينازعهم فيه .

كأنهم نسور عالم اللاهوت !! حطّموا قفص الجسد ، بكل عشقٍ وحبور ، وحلّقوا بكل سرور ونشاط إلىٰ الوكر الأسمىٰ والمحل الأسنىٰ ، حيث (شجرة طوبىٰ) .

لقد قدّم سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام ، هذا الرائد لموكب العاشقين !! والقائد الفذّ لمسيرة التضحية والفداء !! في تلك الحلبة ، صوراً رائعة من البطولة ونكران الذات والانجذاب نحو جمال الحق ، بحيث لم يكتف بتحيير عظماء العالم فقط ، بل حيّر ملائكة السماء أيضاً وجعلها مبهورة للعظمة والعشق والتفاني .

لقد ربّى في مدرسته العظيمة تلامذة ضربوا أروع الأمثال في التضحية والفداء ، بحيث يخجل العاشقون من التباهي أمامهم !!





قال تعالىٰ :

﴿ وسارِعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّة عَرضُها السَّمٰوات والأرضُ أُعدّت للمتَّقين ﴾[1] .

قافلة الوجود في حركة دائبة لا تنقطع ولا تتوقّف .

الأفراد والجماعات ، من كل نوع وجنس ، ومن كل زاوية من زوايا الكون متّجهون بسرعة مذهلة باتجاه التكامل .

هذا الركب الطويل العريض ، الذي يفوق عدد السائرين فيه حدّ إحصاء المحصين ، لا يتوقف أبداً ، فهو لا يعرف الاستراحة في جميع أيام عمره .

إنَّه لا يستطيع التوقف لحظة واحدة .

---

(١) سورة آل عمران/ الآية : ١٣٣ .

يتحرّك ويسير باستمرار . . .

إنَّ الهـدف الخفي الـذي نسمّيـه بـالتكامـل يتحقّق بواسـطة هـذه الحـركـات والتحولات .

كل حلقة في هذه السلسلة تسير بـدقّة فـائقـة نحـو الكمـال المنشـود ، يجـذبهـا مغنـاطيس التكـامـل بصـورة لاإراديـة ، والإنسان فقط هو الذي يتميز من بين جميـع آحـاد المجمـوعـة بـأنـه يملك شيئـاً من الاختيـار ، ولذلـك فهـو يستـطيـع أن يملك سلوكاً إيجابياً كما يستطيع أن يـوجّه سلوكـه نحو الجانب السلبي .

تعتبـر سرعـة الضوء ، الـرقم القياسي في مقاييس السرعـة والحركـة الدائبـة ضمن الكون الفسيح الذي نسبح في أرجائه .

إنَّ أشعـة الشمس التي تنيـر أفـراد منظومتها وتمنحهم الدفء والحرارة ، تقـطع المسـافـة الشـاسعـة بين الشمس والأرض - وهي ١٥٠ مليون كيلومتر - في خلال ثمانيـة دقائق فقط .

وإذا انتقـلنـا من حـركـة الـثـوابت

والسيّارات إلىٰ الحركة الدائرية السريعة لأجزاء الذرة علىٰ صغرها ،فإنَّها تُتعب ذاكرة الفلاسفة وقدرتهم الذهنية على الإحصاء .

أجل فإنَّ الباريء الحكيم جلّت أسماؤه جعل رمز البقاء والرقيّ على أساس الحركة والسرعة ، واستناداً إلى هذه الحركات المنظمة ثبّت نظام العالم . . . فكل فردٍ كان عمله أسرع كان مقامه بين الجماهير أسمىٰ ، وكانت رتبته أعظم ! !

فيا أيُّها الإنسان الغافل الذي تريد أن تعيش على خلاف الناموس الطبيعي ، وتقضي عمرك العزيز في ركود وجمود ، حذارِ من عقوبة الحقيقة ! !

إنَّك بكسلك وجمودك ، ستخسر وجودك وكيانك ، وستحطم جسدك وروحك وسط هذه الأعمال المبعثرة .

إنَّ المعادن والنباتات تصل إلى نصابها المطلوب في الرقيّ والكمال باستمرار ، وتدخل ضمن مجموعة إيصال النفع إلى الآخرين ، حتى الأشجار والحيوانات البرّية والمائية تسير نحو الكمال ، وتوفّر أسباب الراحة للمجتمع

الحيّ .

وأنت أيها الموجود الكامل ، الذي يكون تكاملك الحقيقي ونصابك المعنوي بيدك ، وقد قطعت المراحل السابقة على الولادة بنفس السرعة المذهلة ، وسرت في عوالم الجبروت والملكوت الرحبة سيراً حثيثاً دؤوباً ، لماذا اخترت في هذا المنزل ، وهو منزل الجدّ والجهد ، الكسل والراحة ؟!

لماذا آثرت فراغ البال والخلود إلى الراحة في هذه المرحلة الحسّاسة ؟!

حيث التكامل يجب أن يتم باختيارك ، وإقدام منك ، لماذا تتقاعس ؟!

لماذا أصابك الذهول والشرود ؟!

انهض ! وأسرع السير ، فإنَّ ركب الإنسانية لا يتوقّف ، واحذر من تخلّفك عن القافلة !! فهناك الخسران والدمار . ويكون مصيرك مصير الحيوانات والبهائم .

أيها الإنسان الواعي !!

لماذا توقفت في مرتبة البهائم ؟ ألا تملك تذكرة السفر إلى مرحلة الإنسانية ؟!

أو أنَّك نسيت واقعك ؟!!

إنَّ هـذا الشغف الوفيـر بالأكـل والنوم والتنزّه والترف عين البهيمية . . .

انهض والتحق بـركب الآدميـين كـي تنجو من الشياطين والأبالسة ، اشحذ همّتك ولا تـدع للتعب طـريقاً إليـك ، ليس هـذا ركب الأجسـام والهياكـل حتى ينـالـه التعب بعد قطع مسافة من الـطريق ، بل إنَّـه ركب الأرواح والنفوس .

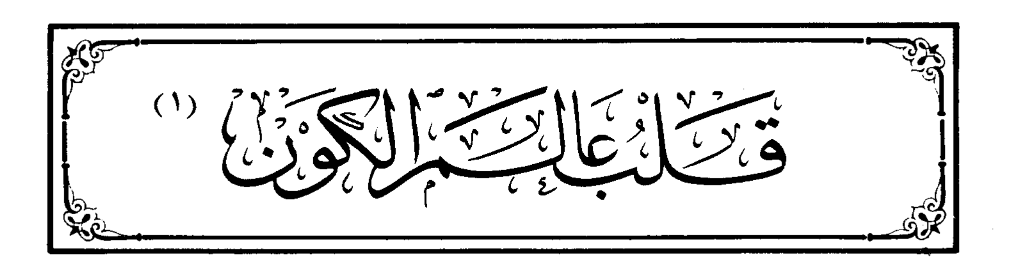
إنَّه ركب العشّاق المتيّمين !!

لا يُلهِـك حب الدنيـا وإطاعـة الهوىٰ عن ذكـر المحبـوب ، ولا يمنعْـك عن رقيّ مدارج الكمال .

اسلك طـريق القـادة الهـداة ، ولا تـنحـرف عـن صـراط الأحـديّـة وجـادة الإنسانية .

من الـواضح أنَّ سـرعـة العمـل لـدىٰ الإنســان هي أن ينتبـه في كــل لحـظة إلى نفسـه ، ويترك عـادة ذميمة ويتخلّىٰ عنهـا ، ويبـدل خصاله السيئة إلى خصـال حميـدة ، ويستبدل علائم الحيوانات في كيانه بعـلائم

الآدميّين ،ويصبح بالتالي موجوداً ملكوتيـاً ،
ويكون أداةِ لتعاليـه وتعالي الآخـرين ، ويعدّ
نفسه للحياة الأبدية الحلوة .



قلب عالم الكون (١)

أتزعم أنّك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر

(الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام)

يقول سيد الموحدين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « الإنسان الصغير هو العالم الأصغر، كما أن العالم الأكبر هو الإنسان الأكبر» .

(١) الهدف الأسمى والغاية الأساسية من (الخليقة) : عبادة الله ، والتوجه اليه **﴿وما خلقتُ الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾** . سورة الذاريات/ الآية : ٥٦ .

والمحور الأصلي لكل توّجهات (الخلائق): معرفة الله « **كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف فخلقت الخلق**» .

والطرق الى الله وإن كانت بقدر أنفاس الخلائق ، كي لا تنقطع الصلة بينها وبين الله جلا وعلا، إلّا أن مهمّة القيادة الدينية، والريادة في طريق المعرفة لا يمكن أن يضطلع بها إلّا ثلّة قليلة من أفراد الإنسان لم تنجّسهم الجاهلية بأنجاسها ، ولم تلبسهم من مدلّهمات ثيابها . . . فهم - بحقٍّ - الدعاة إلى الله ، والأدلاء على مرضاة الله ، والمستقرون في أمر الله ، والتامون في محبة الله، والمخلصون في توحيد الله .

وقد تضافرت الأدلة العقلية والنقلية على أن البشرية في سيرها التكاملي نحو (الكمال المطلق) تحتاج إلى من يأخذ بيدها فيدّلها على الطريق، ويعضد مسيرتها مجنّباً إياها عن المزالق، وليس ذلك إلّا (النبي) ومن بعده الإمام . =

لكلّ من الأعضاء والجوارح في كيان الإنسان أسرة كبيرة ، ومجموعات معقّدة . . .

فالباصرة تحتوي على القرنية ، والقزحية ، والشبكية ، وسائر الطبقات المشحونة بالأسرار العجيبة .

= ومن هنا كانت العصمة شرطاً أساسياً في هذا (الدليل) .

ومن هنا أيضاً نفهم كيف «أن الأرض لو خلت ساعة عن الحجة لساخت بأهلها» فهو ليس المحور في طريق الهداية فحسب، بل هو المحور لكل ما سوىٰ الله .

على هذا الأساس يبدأ المؤلف العظيم بالمقارنة بين الإنسان وعالم الخلق، فهو صغير ومتواضع لو قيس إلى العالم الكبير، ولكنه يحتوي في ذاته وباطنه على عالم عظيم .

إن النظام الدقيق في أجهزة جسم الإنسان يحاكي النظم الدقيق في الكون العظيم ، وهذا الجرم الصغير ـ على حدّ تعبير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في البيت المنسوب اليه ـ المشتمل على العالم الأكبر ، لا يستطيع أداء مهمته من دون وجود الوليّ المعصوم . ومتى انفصمت هذه الصلة بين الإنسان والولي المعصوم ، فان الِارتباط الروحي والجسمي لهذا الجسم الصغير سيتلاشى وينهار .

إنه الذي ينظم العالم باذن البارىء الحكيم جلّ وعلا ، ويلفت نظر الإنسان إلى أن كل شيء يرتبط بأمر الله ومشيئته .

بناء على ذلك فان نظام الحكم في الإسلام ليس فردياً ، بل كلّه يحكي عن الصبغة الإلٰهية وإرادة الله .

﴿ قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين﴾ سورة الأنعام / الآية : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

فرسول الله (ص) نفسه هو الجندي الأول رغم كونه قائداً ، إن رسالته هي الأساس ، لا شخصه . =

والسـامعـة تتكـون من الصمـاخ،
والـدهليـز، والعـظام الأربعـة (التي هي
العدسية، والركابية، والمطرقـة، والسندان)
وما بداخلها من شُعيرات وأعصاب !!

وكـذا الأنف والفم والأسنان ومخـارج

= ولذا فإن فاطمة الزهراء عليها السلام لمّا شاهدت الإنحراف بعد وفاة والـدها الـرسـول الأعـظم صلّى الله عليـه وآلـه وسلم ، جـاءت إلى المسجـد لتقـول للمسلمين : إذا مات أبي ، فهل ماتت رسالته ؟! هل مات القرآن ؟ هل مات القـانون الذي أتى به، والشريعة التي بلّغها ؟!

***

نعود إلى صلب الموضوع فنقول :

كمـا يقـول الفـلاسفـة ، فـان الصـادر الأول هـو العقـل الكلي، أو الحقيقـة المحمّدية ،

وبعبارة أوضح ، فان وجود العـالم كله إنما هـو لأجل الـرسول الأعـظم (ص) لأنه روح الوجود، وروح الأشياء كلها ، كما أن في خلق الجرم الصغير تكـون حقيقة الإنسانية وجوهرها روح الكيان البشري.

إذن ، فـروح الـخليـقـة هـو الـرسـول وأميـر الـمؤمـنيـن عـلي بـن أبـي طالب ، وأوصياؤه.

وبهذا الصدد يروي السيوطي عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم :

«حبّ علي إيمان ، وبغضه كفر ونفاق».

ويـروي أبو نعيم أن رسـول الله (ص) خاطب الأنصـار يومـاً قائـلاً لهم : « هل أدلّكم على ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي ؟

قالوا : بلىٰ يا رسول الله .

قـال : هذا علي أحبّـوه لحبّي ، وأكرمـوه لكـرامتي، هـذا مـا أمـرني بـه ربّي لأبلغكم به».

الشارح

الأصوات، والأوتار الصوتية، وأعصاب الشمّ والذوق، وسائر الأدوات والآلات الظاهرية من اليد والرجل والأصابع والشعر والأظفار.

وإذا انتقلنا إلى الأعضاء الداخلية، وجدنا عالماً من الدّقة والنظام !!

إن النظام الخاص بها يبعث على الدهشة ، ويحيّر الألباب.

انظر مثلاً إلى المُخ والمُخيخ وبصلة النخاع، والنخاع الشوكي، والسلسلة العصبية... تجد ما يُدهش من دقة الصنع.

وانظر إلى القلب والشرايين والأوردة، والدورة الدموية الكبرى، والدورة الدموية الصغرى، والعروق ، والشُعيرات الدموية، تشاهد من عظمة الأبداع ما لا يوصف.

لاحظ الكبد والرئتين والكلية والمثانة والمعدة والأمعاء الدقيقة، والأمعاء الغليظة، تجد أن كلاً منها أمة مستقلة، وكيان برأسه، ومصنع كبير واسع.

كل عضو فينا جامعة مملوءة بالعلماء ، ولجنة تضم الأطباء والمختصين

بالتغذية ، وفريق من الصيادلة، وأفواج من الجيش ، وجهاز إداري كامل !!

ومع ذلك فهي تتعاون فيما بينها، فكل مجموعة تكمّل عمل المجموعات الأخرى، في حين قد لا يحسّ أيّ منها بوجود الأجهزة المجاورة، ولا يعرف شيئاً عن الارتباط الحاصل معها.

* * *

لكن يوجد في عاصمة هذه المملكة الواسعة الأرجاء ، وفي وسط هذه الطوائف المختلفة، موجود ممتاز ، وسلطان عادل، ومدبّر قدير، ومشرف كفؤ ، وشعور كامل، وعقل مدبّر، ورسول هادٍ، وإمام قائد، يربط بين أعمال هذه الأعضاء كلّها، ويصل بين مجاميع الروح والجسد، فيؤلّف منها عالماً حاسّاً، متطوّراً، نامياً، متحركاً بالإرادة، عالماً بالكليّات، أهلاً للتكامل والرقي، وبيده مفتاح كل المشاكل والصعوبات ، يسمّى بالإنسان. . .

هذا الحاكم ، والقائد ، والموجّه ، هو روحه ونفسه، أو عقله، أو حقيقة ذاته . . . الذي هو في الواقع : الصادر الأول في هذا العالم الأصغر.

وقد خُلق مطابقاً للإنسان الأكبر، والعالم الأكبر، الذي يتشكل من الثوابت والسيارات والأقمار، والمجرّدات، والسُدُم.

هذه الشموس العظيمة، وتلك السيارات التي لا تعدّ، والأقمار الكثيرة، والحركة الدائبة في الفضاء الرحب، وهذه الكرات السابحة، ومليارات من الكواكب والنفوس التي لا تُحصى... يقوّم بعضها بعضاً، ويشدّ بعضها أزر بعض، وتتناسق مدارات الجاذبية والإِستقرار فيما بينها، ومع ذلك فكل منها يجهل كل شيء عن الآخر.

من هو العقل المفكر، والشعور الواعي، والقائد المنظّم لهذه الجماهير الصاخبة، والمعلّقات الثقيلة في الثريّا، والعناصر المتفاوتة، والقوى المتضادة؟

من هو - يا ترى - المحور لهذه الحركات المنظمة؟!

من الذي يحتلّ دور الروح أو العاقلة الإِنسانية في هذا الجسم العظيم للكون؟!

من هو الحاكم في مملكة السماوات والأرضين، والذي يربطها ببعض، ويوجد الإِنسجام والتناسق بين أجزائها؟

إنه ـ بلا ريب ـ الصادر الأول !!

أو عبّر عنه بالعقل الكلّي !!

أو الحقيقة المحمّدية (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) . . . التي يقول الباري عز اسمه مخاطباً رسوله (ص):

« **لولاكَ لما خَلقتُ الأفلاكَ** ».

* * *

إن معنى هذه الجملة بسيط جداً، وربما يحاول البعض أن يُتعب نفسه في توضيح وشرح هذه العبارة.

وأفضل المفسّرين من يثبت كون رسول الله (صلَّى الله عليه وآله وسلم) هو العلّة الغائية من الخلق والإيجاد، في حين أن تلك الحقيقة النورية انما هي في الواقع روح الإيجاد، وجوهر أعراض التكوين.

إنَّ الهدف الأصلي للباري تعالى في إيجاد الكون هو تلك الذات المشعّة، أما سائر الموجودات فهي فروع هذه الدوحة المباركة، وأغصان تلك الشجرة الطيبة. . . وبالتالي فهو المقصود بالأصل ، وسائر المخلوقات تابعة له.

كما أن المقصود الأول من خلق الإنسان ـ العالم الأصغر ـ هو الحقيقة

الإنسانية فقط، والأعضاء والجوارح كلّها تابعة لتلك الحقيقة، وأمرها وتدبيرها خاضع لقدرة النفس الناطقة، وإرادة الحقيقة الإنسانية...

باذن الله تعالى وإرادته طبعاً!!

* * *

وأخيراً...

فإن مدبّر عالم التكوين هو أستاذ جامعة التشريع ذاته، وولايته على طبق نبوّته، لكن يؤدي واجبه بأمر الرَّحْمٰن وإمداده.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح:

«ألَّفتَ بِقُدرتك الفِرَق»

وهذا خطاب للباري تعالى الذي آلف بين الفرق المختلفة.

* * *

لقد سمعت وقرأت لبعض الفضلاء والباحثين، أنهم يعبّرون عن الباري جلَّ وعلا بروح العالم الكبير، وشعور الكون، ويقرنون الخالق الذي ليس كمثله شيء بالعقل الإنساني.

وهذا غلط فاحش ، وذنب لا يُغفر[أ].

سبحان ربي العظيم وبحمده.

إن الخالق المتعال أسمىٰ من أن
يكون جزءاً من عالم الكون، إنه موجد
الكون لا جزء منه.

إنه خالق الوعي والشعور، لا وعي
الخَلق وشعور الخليقة !!

مضافاً إلى أن الخالق العليم
والقادر ، نسبته الى الآفاق والأنفس ،

(أ) الظاهر أن هذا الفاضل المحترم قد تصوّر وجود الإنسان بسيطاً وتافهاً ، فراح يبحث عن مدبّر له من نوعه ، في حين تصوّر مصنع الإيجاد وعالم الآفاق معقداً وصعباً فاعتبر الباري تعالى مديراً له ومركز وعيه. . .

في حين أن كليهما من حيث الدّقة والعظمة سواء .

ان تدبير العالم الأصغر بمثابة العالم الأكبر ، ولا فرق في ساحته تعالى بين هذين . فهو خالق العالم ومدبّر الكون والآفاق والأنفس .

فلا العقل الكلي يستقلّ في الآفاق، ولا العقل الجزئي يستقلّ في الأنفس، بل الكلّ يستمد تأثيره ومديريته من جانب القادر المطلق.

في نفس الوقت ، فان مدير العالم الأصغر يقوم بأدواره على أثر إفاضة مدير الإنسان الأكبر. ويعتبر ذرة صغيرة جداً تجاه ذرات أشعة شمس الشموس، وكل منهما يؤدي واجبه على أثر المشية ، والفيض المتواصل، والمدد الذي لا ينقطع للفيّاض على الإطلاق.

صحيح أن عظمة العالم الأكبر أشدّ وأقوى من العالم الأصغر ، كما قال خالق كلا العالمين:

﴿لخلق السّمٰوات والأرض أكبر. . . ﴾.

وهذا هو السبب في كون مدير الآفاق عقلاً كلياً ، ومدير الأنفس عقلاً جزئياً.

(المؤلف)

في الربوبية والتدبير، واحدة، ولا فرق في ساحة ربوبيته في ذلك.

فكما خلق العالم الأصغر ، وجعل له قائداً ومدبراً، يدير أمور الجسم والروح بأمره تعالى ومدده، وعلى أثر هذا التدبير وهذه الإدارة ترتبط أجزاء الجسم والأجهزة المختلفة في مملكة البدن فيما بينها وتسير نحو هدف موحّد، وتصل إلى نتيجة واحدة. . .

كذلك جعل للعالم الأكبر قائداً ودليلاً ومديراً ومدبّراً ، ربط بين جميع أصناف المخلوقات في ظل هذا التدبير، وهذا كلّه بيد العقل الكلي والصادر الأول.

لقد جعل سبحانه هذا الموجود الممتاز، وعي عالم الكون، ومظهر قدرة ذي الجلال، ونموذجاً كاملاً لصفات الجلال والعظمة.

وفي الحقيقة ، فانَّ كلا القائدين والدليلين أداة بيد الفيّاض المطلق، والناطق الرسمي لخالق الوجود، والواسطة بين الخالق المتعال والخلق، يكتسب كل منهما ـ بلا انقطاع ـ من مقام المشيئة الإلَهية والخلاّقية المطلقة الفيض ، ليوصله إلى المخلوقات الخاضعة تحت تدبيره.

ولولا ذلك، فان الخالق العظيم، والبارىء المنزّه عن المثيل والشبيه، أجلّ وأسمىٰ من أن يكون وعي المخلوقات ، وعضواً من هذه الأسرة الكبيرة التي تسمّى بعالم الخليقة.

وكما أن الإحاطة والهيمنة الحقيقية لجوهر الإنسان ، الذي يقود الأعضاء والجوارح ومليارات النفوس المجهرية التي هي (أول ما خلق الله) في العالم الأصغر، لا تورد نقصاً تجاه الخالق المتعال، ولا تسبّب الشرك !!!

كذلك الوساطة والسفارة التكوينية للصادر الأوّل تجاه الإنسان الكبير لا غرابة فيه ، ولا يوجب الشرك أو التفويض. . .

وإذ كان هو (أوّل ما خلق الله) فهو الواسطة بين الحقّ تعالى والخلق، وهو مركز الجاذبية لكافة دوائر الإيجاد، والقائد العام لجنود السماوات والأرض.

ولهذا ورد في الحديث:

«أوّل ما خلق الله نور نبيّك، يا جابر».

مثال آخر :

الذرّة تحتوي على نواة مركزية ، تعتبر

مركزاً للجاذبية، والإلكترونات بمثابة الكواكب والأقمار.

والعالم الأكبر مع جميع المخلوقات وأنواع المكوّنات، على ما هي عليه من التباين والإختلاف في الأنواع والأجناس، والكيفية والكمية، والجهات والحركات، فهي تسير باتجاه واحد، وتتعاون فيما بينها.

هنا، وعلى غرار تلك الذرة والنواة المركزية، يوجد قطب عظيم، ومركز خطير، ونقطة ثقيلة، جعل الحكيم المقتدر سبحانه فيه جاذبية مدهشة، بفضلها تسير جميع الأفلاك وتدور في صراط التكوين، وتجعل ذلك الوجود المقدّس، محوراً لحركتها ودورانها.

«ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت»

وهو لن يكون سوى أوّل ما خلق الله.

﴿سنة الله... ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾(١).

وقد روى الشيخ الصدوق في

---

(١) سورة الأحزاب / الآية: ٦٢.

(الخصال) عن الإمام الصادق عليه السلام : أنَّ لله اثني عشر ألف عالماً، كل عالم أكبر من جميع السماوات السبع والأرضين السبع، وكل منها لا يرى أن الله تعالى خلق عالماً سواها ، وأنا حجة الله على جميع تلك العوالم.

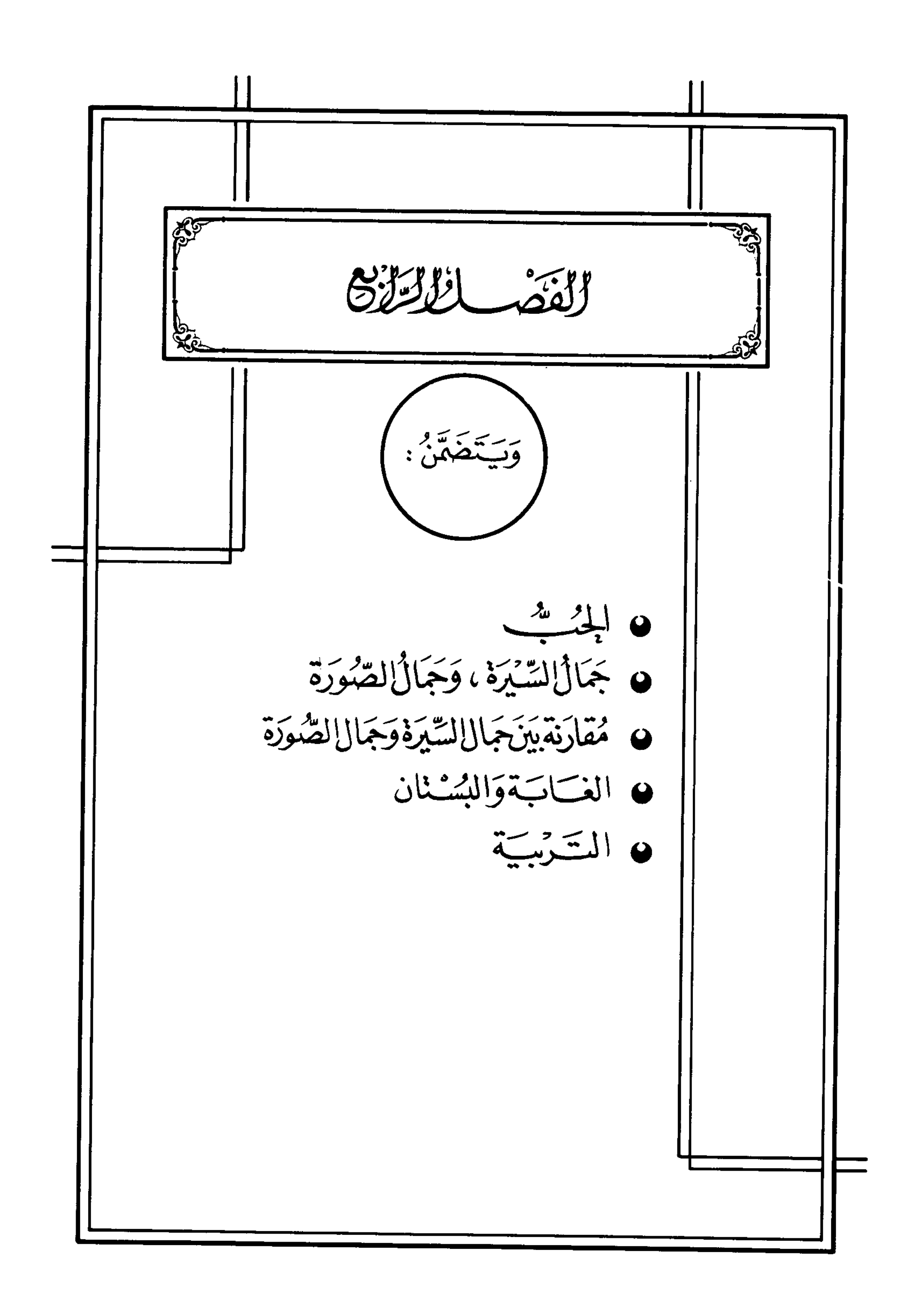
ولنعم ما استدّل به هشام بن الحكم في مناظرته مع عمرو بن عبيد المعتزلي، ففي ذلك خير شاهد على ما نقول:

ولقد أوردتُ الاِستدلال بكامله في كتابي (أحكام الشيعة) و (أحكام شيعيان) في قسم أصول الدين.

لقد استدل هشام لإثبات الجانب التشريعي، ونحن نثبت كلا الجانبين : التشريعي والتكويني، لأن الدليل يصلح لكلا القسمين.

والسلام على من اتبع الهدى.



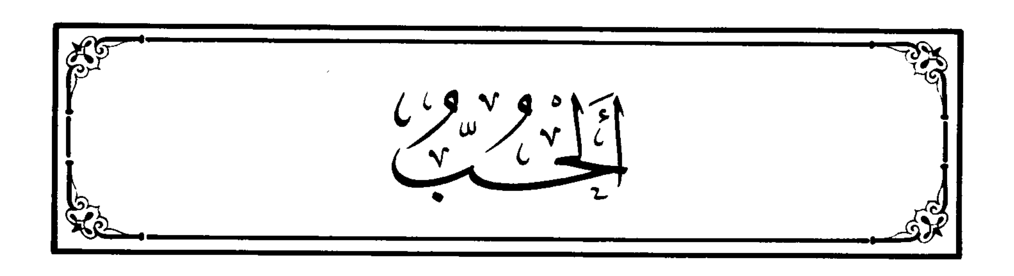


الفصل الرابع

ويتضمن :

- الحب
- جمال السيرة ، وجمال الصورة
- مقارنة بين جمال السيرة وجمال الصورة
- الغابة والبستان
- التربية





الحب

كلّ من يحمل الحبّ بين جوانحه فهو يملك كلّ شيء ، حتى ولو لم يملك شيئاً آخر . . . ومن لا يحمل حبّاً في قلبه فهو لا يملك أي شيء حتى لو كان يملك كل شيء .

إنَّ جوهرة الحبّ ثروة عظيمة خالدة ، يُقوىٰ بها على ضمان الحياة الأبدية والخلود السرمدي[١] .

---

(١) الإنسانية مودعة في ضمير الإنسان وفطرته ، ولا يمكن التغافل عنها بحالٍ ، لا يسعنا إلَّا أن نتعشّقها ونحبّها ، فلو مررنا عليها مرَّ الكرام ، فكما يقول الأستاذ الجليل ، سنقع في ورطة الضلال والانحراف ، ولا يتصوّر لنا خلاص أبداً . . . إلَّا أن نعود إليها فنستعين بها ، ونستلهم من النفس الطاهرة التي شعَّت عليها أنوار الحق ، ونرى الأشياء كما هي .

نرىٰ الدنيا بالمنظار الدنيوي، وننظر إلى الآخرة بوجهها الصحيح ، وبصورة موجزة ، تكون نظرتنا إلى الأشياء واقعية ، ولقد كان يدعو رسول الله (ص) بهذا الدعاء : « اللهمَّ أرني الأشياء كما هِي » .

الشارح

إنَّ رؤية الحبيب لوحة جميلة جداً ، ومنظر ساحر ، وصورة أخّاذة ، تطرد الآلام والمصائب إلى زاوية النسيان ، وتمحو الهموم والغموم ، وعلى العكس من ذلك فإنّه مع فقدان الحبيب نجد الجرح البسيط في الحياة كافياً للإجهاز على الجريح ، والقضاء عليه ، وتصوير الهم البسيط بصورة الجبل العظيم من المصائب !! لوعة العاشق واحدة . . . ولوعته في نفس الوقت علاجه وشفاؤه .

أجل ، فإنَّ العشق قد يكون وخزاً ، لكنه في مذاق العاشق ليس إلَّا شهداً[1] .

ومتى كان الحبيب هو المحبوب الأسنى ، الذي خلق الجمال ، وفجّر العطف والرحمة ، وكان واهب الكمال . . . فلا مجال لتصوّر حدّ السعادة وعظمة الإفاضة ، ولذّة الوصال !!

كم هو لذيذ أن يكون المحبوب طالباً للمحبّ أيضاً !!!

---

(١) لاحظ التقارن بين وخز النحلة من جهة ، وكيفية امتصاصها للشهد المصفّىٰ بواسطة الوخز أيضاً .

الشارح

أن يُسرع إليه أكثر من حركـة المحبّ نحوه ، أن يمهّد طريق العشق له ، ويقـرّب الزاد إليه[أ] .

ولـكن للمـحـبـوب الأسنـىٰ ـ جـلّت آلاؤه ـ اختبارات وابتلاءات لعشاقه في هـذه الـدار . . . إنّـه يلفّهـم بـالبـلاء والمصيبـة ، والمحنـــة والألم ، يُلقي بـهـم فـي لهـــوات الـدموع الغـزيرة ، والـدماء المـطلولـة ، ثم يقف متفرجاً عليهم[١] .

أجل فإنَّ هـذا المشهد المـروّع لطف ورعاية من الحبيب . . . إنّه يُريـد أن يغسل غبار الحجاب بالدمع والدم ، ويعـدّ العاشق الوامق للحياة الأبدية ، بل يمهّد لـه وسائـل

(أ) في الحديث القدسي : « من تقرَّب إليَّ شبراً ، تقرَّبت إليه ذراعـاً ، ومن تقرَّب إليَّ ذراعاً ، تقرَّبت إليه باعاً » .

المؤلف

---

(١) النظرة السطحية ترى البلاء والمصيبة نوعاً من إعراض الله تعالىٰ عن عباده وسخطاً منه عليهم ، لكن النـظرة العميقـة تختلف عن تلك . . . إنّهـا تـرى المحن والآلام مواهب من الله لعباده لأجل صقل شخصياتهم ، وتزويدهم بالكمال .

أبطال الظاهر ينسحبون من معركة الحياة لأبسط صدمـة ، لكن رجال المعنىٰ الذين عُمرت قلوبهم بالعشق الإلـٰهي يرون المظاهر الدنيوية من المال والبنين والجاه والثروة حواجز في طريق سلوكهم . . . وهذا هو الفارق الأساسي بين النظرتين .

الشارح

التحليق إلى أوج الكمال والعظمة . . . ليستقبله في النهاية في حريم كبريائه . ومتى قدِّر للعاشق الولهان ، الذي عانى ألم الفراق سنين طويلة أن يدخل إلى حَرَم الحبيب ، فإنَّه يتصوّر أن اللمحة في رحاب ملك الجمال ، والجرعة من سلسبيل الوصال تطفىء ظمأه ، وتروي عطشه ، في حين أن الكأس الأولىٰ هي بداية العطش . . . وبعدها لا راحة لقلبه وروحه إلَّا أن يُسلم نفسه إلى أمواج الوصال . . . إنَّه في هذا الطريق يدنو من مقام القرب حتى تذوب روحه ونفسه في الحبّ ، ويذوب حبّه في تجلّيات المحبوب وإشراقاته .

إنَّ نور الحقّ ، ومثال الحق ، وتجلّي الحق . . . حيث هو موطن العشق ومنزل الحبّ ، وهو محور العواطف الإيجابية ، والنقطة المركزية لأعضائنا وجوارحنا يمثّل حقيقة ذاتنا الطاهرة ، وما أن يصل الإنسان إلى المرتبة القصوى من المحبّة ، ويذوب في المحبوب الأسنىٰ حتى تحصل له المعرفة الكاملة بالنفس الإنسانية ، ويتّصل بذاته ، ويدخل جنة الخلود .

ما أن يذوق العاشق ثمرة الحبّ ، ويحوز على مقام الاتصال بالحقيقة ، ويلج الجنّة المأوىٰ للمحبة حتى يضجر من جسمه وبدنه وجميع العلاقات المادية ، ويقدّمها جميعاً قرابين على عتبة المحبوب . . . يتزايد كرمه وسخاؤه آناً بعد آنٍ ، ويتصاعد لهيب العشق فيه ساعة بعد أخرى ، ولا يرتاح حتى لا يشاهد في ذاته شيئاً سوى الحق والحقيقة ـ أي مرآة المحبوب ـ .

لذا نجد سيّد الموحّدين وأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ، ذلك العاشق الوامق للمحبوب الأسنىٰ ، يتلقّىٰ المصائب الفادحة ، ويتحمّل المشاكل والصعوبات التي تعجز الجبال عن حملها ، برحابة صدر ، تحصيلاً لرضا المعبود .

وحين يودّع المخلوقات ، ويسرع للّحوق بالملأ الأعلى ، والاتصال بالرحمة الإلـٰهية ، والنيل بالوصال المطلق يقول بكل فخر واعتزاز :

« فزتُ وربِّ الكعبة »

والحسين عليه السلام ، سيد الشهداء . . . هذا الفارس المجلّي في حلبة

العشق والوفاء[1] : ، ورائد مسيرة الحبّ والفداء ، هذا البطل المقدام في السير الحثيث نحو المحبوب الأسنىٰ ، الذي كان من أول عمره ، بل منذ اللحظات الأولىٰ لحياته الشريفة ، **لم يلج عالم الكثرة إلاّ وكان يطمح للوحدة** ، تخلىٰ يوم الطف عن جميع العلائق بشكل كامل ، وودّع الأهل والعيال والمال ، وحيث لم يبق في حوزته إلاّ الجسم والروح نادىٰ :

---

(١) يحدّثنا التاريخ أن الإمام الحسين عليه السلام كان يزداد توهّجاً وائتلاقاً وعزيمة كلما قُتل واحد من أولاده وأصحابه يوم عاشوراء ، كانت أمارات رباطة الجأش تزداد وضوحاً على ملامحه .

ولقد كان الأصحاب جميعاً يتمتّعون بهذه المزية ، حتى (جون) مولىٰ أبي ذرّ الغفاري كان قد تنعَّم بهذه التربية الصالحة . لقد حاول الجبابرة أن يفصلوه عن سيده وقائده ، وأرادوا أن يخفوا جسده عن أنظار سيد الشهداء ، ولكن الشذىٰ القدسي والأمواج العطرة كانت تنبعث من ذلك الجسد المرمل بالدماء ، وكما يقول الشاعر :

أرادوا ليُخفوا قبره عن حبيبه
وطيب تراب القبر دلَّ على القبر

هؤلاء أمثلة التضحية والفداء . . .

هؤلاء أبطال الذوبان في الحبّ الإلـهي . . .

عاشوا كسيّدهم ـ سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام ـ وأسرعوا إلى لقاء ربّهم سعداء .

وحقٌّ لنا أن نخاطبهم : يا ليتني كنت معكم فأفوز معكم .

الشارح

« إن كان دين محمّد لم يستقم
إلاَّ بقتلي يا سيوف خذيني »

قد نرى أبطال البشر يقعد الفتور والضعف في كيانهم ، ويدبّ الخور إلى وجودهم في مقتل واحدٍ من أولادهم ، وعندما يصبح انتصار العدو عليهم أمراً قطعياً يفكرون في الهدنة وعقد الصلح . . . بينما نجد هذا البطل الجبروتي والعاشق الملكوتي كلما كان يُصاب في روحه وجسمه وأولاده ، كان يزداد شوقاً إلى الموت !

كأنه كان يشاهد جمال المحبوب الأخّاذ من خلف ستار الموت ، ويزداد تلهّفاً وعشقاً للّقاء به .

كان يزيح العلائق ـ التي كانت تعدّ كل واحدة منها حجاباً ومانعاً ـ وينطلق كالبرق الخاطف لإنهاء المراحل الأخيرة من السير والسلوك .

كان الأولاد والأصحاب يستأذنونه لخوض غمار الشهادة ، فيأذن للواحد منهم تلو الآخر ، رغم أنَّ كل واحد منهم كان كنفسه العزيزة ، وما أن يراهم مصرّعين

حوله ، مجدّلين على الأرض ، مرمّلين بدمائهم في مذبح العشق حتى يزداد عزماً على لقاء المحبوب !!

وإذ قدّم القرابين ، وودّع الأهل والعيال ، جعل رأسه وصدره وقلبه عرضة للسهام والرماح . . . وأخيراً استقرَّ في حِجر المحبوب بكل هدوء وارتياح قائلاً :

تركت الخلق طرّاً في هواكا
وأيتمتُ العيالَ لكي أراكا
فلو قطّعتني في الحبّ إرباً
لما مالَ الفؤاد إلى سواكا

وفي الحقيقة ، فإنَّ الروح الغالية ، والعمر الثمين ، وكلّ الأعمال التي تصدر من البشر . . . إذا بُذلت في سبيل المحبوب ، فإنَّ ذلك يوجب الربح والسعادة ، وإلاّ فإنه في حكم الإسراف والتبذير .

﴿ والعصرِ إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ ، إلاّ الَّذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ ، وتَواصَوْا بالحقِّ ، وتَواصَوْا بالصَّبْر ﴾ .

(صدق الله العليّ العظيم)

جمال السيرة وجمال الصورة

ليس الجمال ـ الذي هو مركز دائرة العشق ، والشمعة التي تحوم حولها فراشة عالم الوجود ـ جمال الصورة وتناسق الهندام فقط !!

إنَّه لا يقتصر على الحاجب المقوّس ، والعيون الفاتنة ، والشفاه العقيقية ، والثغر الباسم ، والقدّ الممشوق ، والخدّ المتوهّج . . .

كلا ، فإنَّ هذه المظاهر الفتّانة من الجمال الساحر تمثل أدنىٰ مراتب الجمال[1] ، وهؤلاء الصيّادون الغواة ، لم

---

(١) لا يقتصر الجمال الإنساني على الجانب الجسمي فقط ، بل يشمل كلا الجانبين : الجسمي ، والمعنوي .

لقد أثر عن الرسول الأعظم(ص)أنه حينما كان يقف أمام المرآة ، كان يقرأ هذا الدعاء : « اللهمَّ حسِّنْ خُلقي كما أحسنتَ خَلْقي » .

لذا فإنَّ المؤلف القدير يعتبر الجمال الصوري أدنىٰ مراتب الجمال ، ويقارن =

يصطادوا إلّا أتفه الأفراد وأخسّهم .

أجل ، فكل صفة حميدة ، وخصلة جيّدة . . . تبعث على الابتهاج والسرور ، إنّما هي أشعّة من شمس الجمال ، وكلما كان بمقدور هذا اللون من الجمال أن يجتذب أناساً أرقىٰ ورجالاً أشرف ، ويستقطب حوله العظماء من البشر ، فإنه يكون أدقّ معنىٰ وأعمق غوراً .

إنَّ المعرفة ، والعدالة ، والسخاء والشجاعة ، والعطف ، والحنان ، والصدق ، والاستقامة ، والإباء ، والكرم ، والعفّة . . . مظاهر للجمال المعنوي[1] .

= بين مظاهر جمال الصورة وجمال السيرة مستعيناً بما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول :

« زينة البواطن أجمل من زينة الظواهر » .

(١) نعيش في العصر الحاضر ظروفاً مؤلمة ، ذلك أنَّ ٣٥ مليوناً من البشر يموتون سنوياً لانعدام الطعام أو سوء التغذية .

ورغم الجوع القاتل والقحط وقلّة الموارد الغذائية ، فإنَّ ثلّة من هواة الجمال الظاهري والمبهورين بفتنة الحياة وزيفها ، الذين لم يشمّوا رائحة العطف والحنان والرحمة !!! يقفون كل يوم أمام محلّات بيع لوازم الكلاب في الولايات المتحدة الأمريكية ، ليشتروا أنواع أدوات التجميل الخاصة بالكلاب بدءاً بمعجون الأسنان ، وانتهاءً بماء الكولونيا المصنوع خصيصاً لها !!

انظروا إلى إحصائيات الانتحار في العالم ، ولاحظوا نسبة السرقات =

وإذا لم يقترن جمال الفتّانات بالتعرّف على عالم الخصال الحميدة الرحب ، فإنَّ قوة الجاذبية فيهن تكون ضعيفة ، وإنَّ قوّة التأثير في المفتونين بهنَّ تكون مؤقتة ومحدودة .

وأمَّا أصحاب الأخلاق الحميدة ، فهم وإن لم يتمتعوا بجمال الصورة ، لكن بهاء المعنىٰ وجمال السيرة عندهم يغطّي على هذا الجانب ، فيزدادون رونقاً وجمالاً وبهاءً .

إنَّ الذي يهوى جمال الصورة ، ويتبع العشق المجازي يكلّ عن العشق ، ويُعرض عن المعشوق في الغالب ، أمَّا طلاّب المعنىٰ والمتيّمون الحقيقيون فلا مجال لفرض الكلل والملل في هواهم ، بل تزداد سرعتهم في سلوك مدارج الحب والعشق .

وهكذا يبقى المحبوب الخُلُقي

= والاختلاسات ، والميوعة والتحلّل . . . وهي تقضّ على البشرية مضجعها !! ثم لاحظوا مدى اهتمام الإسلام بتهذيب الأخلاق ، والاعتناء بجمال السيرة بدلاً من جمال الصورة .

وكما يقول (جان جاك روسو) في كتابه (العقد الاجتماعي) :

« كلّما تقدَّم الإنسان في سلّم الرقي ، ازداد فساداً » .

الشارح

محتفظاً بمركزه في أعماق قلوب محبّيه حتى بعد موته ، ويبقى عشّاق المعنى منشدّين إليه حتى لو لم يشاهدوه !!

إذا حظيتم بلقاء عالم عاملٍ ، ونظرتم إلى جماله النوراني . . .

وإذا وجهتم النظر نحو محيّا بطل مقدام ، أوان انتصاره وظفره . . .

وإذا شاهدتم الطالع الأخّاذ لخطيب مصقع ومحدّث صادق وهو يلقي خطاباً ناجحاً . . .

متى طالعتكم غرّة رجل كريم تقطر يداه بالندى والسخاء . . .

ومتى وقع بصركم على عيني حاكم عادل وهو يحكم بين الناس بالعدل والقسط والمساواة . . .

فستعترفون وتصدّقون بأنَّ جمال المعنىٰ والسيرة أعظم بكثير من جمال الصورة وتناسق الهندام .

إنَّ لصاحب اللهجة الصادقة وقعاً جميلاً في نفوس الملتفين حوله ، وللوفيّ أنصار ومحبّون كثيرون في المجتمع ،

والشخص الذي يتحلّىٰ بالأمانة والاستقامة يكون مهوى أفئدة الأثرياء والنبلاء .

وإذا لم يمنّ عليكم الخالق عزَّ وجلّ بجمال الجسم ولطافة المنظر ، عليكم باكتساب الحلاوة الناتجة من الحكمة والنشاط المتجلي في سموّ الروح .

أيُّها الناس !

إنَّ البارىء سبحانه يحبّ الأخلاق الفاضلة والخِصال الحميدة ، ولذلك فإنَّه لم يحرق كلاً من كسرىٰ : ملك الفرس العادل ، لعدله . . . وحاتم الطائي : ذلك العربي الذي كان يقطر جوداً وسخاءً ، لكرمه ، في حين لم يكونا مسلمين .

إنَّه يأمر النار لتكون برداً وسلاماً عليهما ، كما أمر النار التي أوقدها نمرود ليحرق إبراهيم الخليل بها ، لتكون برداً وسلاماً عليه .

الماء والهواء ، والتراب والنار تتعشق الإنسانية ، وتهوىٰ أصحاب الفضائل الخُلُقية .

هل سمعتم بأنَّ الأرض رؤفت في بطنها بشاب جميل أو فتاة حسناء بعد

الموت ؟! فلم تعمل على تفتيت جسميهما ! هل تخلّت عن اندثار خدّيهما ؟! أو هل أبت عن ضغطة لبلابل الحسن الجسماني الفتّان في ذلك القفص الضيق المسمّىٰ باللحد ؟!

في حين أنها احترمت السلطان الإيراني العادل ولم تمدّ يدها لتنال من جسده شيئاً .

قيل : إنَّ المأمون العباسي ذهب يوماً لزيارة المدائن ، فأعجب بطاق كسرىٰ واندهش لمشاهدة ذلك البناء الشامخ ، فقال لأبي العتاهية ـ وكان نديماً له ـ أنه يُروى عن رسول الله (ص) أنَّ الأرض لا تمسّ جسد الشخص العادل بسوء ، وأنا أحبّ أن يُنبش قبر كسرىٰ لأشاهد صدق الحديث المذكور بعينيّ ، وبالتجربة الحسية .

عندئذٍ أقدم أصحابه على شقّ لحد كسرىٰ أنو شيروان ، فرأوا الملك الإيراني العادل جالساً على سريره بطلعته النورانية البهيّة ، وكأنَّه لم يمت ، بل أسلم نفسه لنوم ٍ هانيء . . . إنَّهم لم يشاهدوا أثراً من التجعّد على ملامحه ، هذا المنظر الجذّاب

بهر المأمون إلى درجة أنه انحنىٰ من دون اختيار وقبّل وجه ذلك السلطان العادل !!

أيُّها القارىء الكريم :

لاحظ كيف يلتذُّ الخليفة العظيم من تقبيل رجل هرم مثل كسرىٰ ، بعد أن مضىٰ على وفاته قرون طويلة ، وكأنَّه ينتزع القبلة من خدّ فتاة حسناء في مجلسه أو سهرته .

أجل ، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، كان بالإضافة إلى الصفات الخلقية العالية ، يمتازُ بجمال الصورة أيضاً ، بل كان فائق الجمال ، لكن الله تعالىٰ حين يمتدحه في القرآن الكريم فإنَّه يثني على خُلُقه العظيم فقط قائلاً :

﴿ وإنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

أيُّها الشاب العزيز ، الذي تقف كل يوم عدّة مرات أمام المرآة لتزيّن نفسك ، وتمشّط شعرك ، وتتيه في خيلاء وغرور معتزّاً بنفسك . . . ليكن اهتمامك بتحسين السيرة أشدّ من اهتمامك بتحسين الصورة !! واجعل زينتك في مقابل

---

(١) سورة نّ / الآية : ٤ .

الأصدقاء المعنويين الذين هم بمنزلة المرآة ، وابدأ بمطالعة كتاب الأخلاق لتتدارك نقائض إنسانيتك .

قد لا ينفع جمال الصورة في التأثير على شخصٍ قاسٍ ، ولكن جمال السيرة قد يسيطر على روحه ، ويخضعها ثم يسيّرها في المنهج الصحيح .

يحدّثنا التاريخ عن رجل من أهل الشام دخل المدينة المنوّرة في طريقه إلى الحج ، أو لغاية أخرى ، فوقع بصره على رجل جالس إلى جنبه ، فسأل عنه ، فقيل له : إنَّه الحسين بن علي بن أبي طالب .

وحيث كان هذا الرجل الشامي مشحوناً بالدعايات السيئة ضد أهل البيت عليهم السلام[أ] فقد غلا مرجله وراح يكيل

(أ) تمَّ فتح بلاد الشام في خلافة عمر ، واول من سلّمت له أمارة الشام في الإسلام هو يزيد بن أبي سفيان ، حيث حكمها سنتين ، وبعد وفاته عُهد أمر هذه الولاية المليئة بالخيرات إلى أخيه معاوية بن أبي سفيان .

لقد حكم معاوية بلاد الشام لمدة عشرين سنة ، وهو في أعلى درجات العزّ والهيبة ، وحتى في عهد عمر ، حيث الولاة والحكّام كانوا يعزلون ويستبدل بهم غيرهم في فترات قصيرة ، ولم يكن يُسمح لأحد أن يمكث في مكان واحد فترة طويلة كي لا يستقرّ به المقام ، فإنَّ الموقع الذي احتلّه معاوية لم يزحزح عنه ، ولم يزاحمه أحد طيلة هذه الفترة .

=

السّب والشتم إلى الإمــام الحسين بن علي عليهما السلام . انتـظره الإمام حتى يكمـل جميع ما يريد ، ويفـرغ جميع مـا في جعبته من عبـارات بذيئـة . . . عند ذاك نـظر إليـه نظرة ملؤها الشفقة والعطف والحنـان ، وتلا عليـه آيـات من القــرآن الكـريم في العفــو والصفح وحسن الخلق ، ثم أبدىٰ استعداده للرجل الشامي في إمداده بالعون اللازم .

ثم سأله : هل أنت من الشام ؟

قال : نعم .

= لقد بلغ به استقرار المقام درجة فكَّر معهـا في التصدّي للخـلافة . وتمَّ لـه ما أراد ، إذ بعد مضيّ عشرين سنـة من الولايـة ، وبعد أن خـاض حروبـاً دامية ذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين ، نالَ أمنيتـه ، ونصَّب نفسه خليفـة على المسلمين في الشام ومناطق أخرى من الدولة الإسلامية المترامية الأطراف آنذاك .

لهذا فإنَّ الناس في الشام نشـأوا منذ نعـومة أظفـارهم على التربيـة الأمويـة . وحيث كانت هناك خصومة تاريخية قديمة بين بني أميـة وبني هاشم ، ازدادت هـذه الخصومة توتراً في عهد الحكم الإسلامي ، وتركّزت العـداوة تجاه بني هـاشم وفي أولاد علي عليه السلام .

لذا نستطيع القول بانَّ أهالي الشام عجنت ضمائرهم ببغض علي منذ تعـرّفهم على الإسلام .

وهذه الدعاية المغـرضة ، والمخـطَّط لها بـدقّة ، جعلتهم يعتقـدون أنَّ بغض علي وآله ـ عليهم السلام ـ ركن من أركان الدين ، وجزء من الواجبات الدينية .

المؤلف

فقال عليه السلام : خصلة أعرفها من أهل الشام ، وأعلم بجذورها ، ثم قال له :

إنك غريب في هذه المدينة ، ونحن مستعدون لمساعدتك فإن نزلت دارنا استضفناك ، وإن كنت عارياً كسوناك ، وإن كنت محتاجاً أعطيناك .

لقد أثَّر هذا الموقف في نفس الشامي الذي كان يتوقع ردّ فعل عنيفاً ، ولم يكن يتصوّر أن يقابل بالصفح والإغماض ، فتأثَّر كثيراً ، وقال : لوددت أن الأرض انشقَّت وابتلعتني في جوفها .

لقد كان الحسين وأبوه حتى هذه الساعة أبغض الناس إليّ ، أما الآن فهو وأبوه أحبّ الناس إليّ .

نجد في هذه القصة التاريخية كيف أنَّ الرجل الشاميّ قابل الحسين عليه السلام في الشارع العام ، ولم يخجل من مظهر الجلال الملكوتي حتى راح يكيل السباب والشتم والعبارات المقذعة إلى الإمام . . . لكنه عندما قوبل بابتسامة ذلك الإمام المبين ، ورأىٰ إشعاع الأنوار الإنسانية في جبهته المباركة ، وشاهد الأخلاق السامية

والصفح الجميل . . . زال توحّش الرجل الشامي ، وانكسر سلاح غضبه وعداوته ، وصار مدىٰ عمره في عداد المخلصين المتفانين في محبة الإِمام الحسين عليه السلام .





مقارنة بين جمال السيرة وجمال الصورة (١)

١ ـ إنَّ جمال الصورة يؤدّي في الناس العاديين إلى الفحشاء والشقاء ، وفي أصحاب العفة والغيرة يؤدّي إلى البلاء والمصيبة ، أما جمال السيرة فهو يؤدّي إلى

---

(١) عند المقارنة بين جمال السيرة وجمال الصورة يقع الجَهَلة في خطأ كبير ، وينخدعون بمجرد رؤية الوجه الجميل .

بينما نرىٰ المؤلف الفقيه يسعىٰ لإجراء مقارنة دقيقة بين هذين النوعين من الجمال ، فيقول بأسلوبه الرائع : إنَّ الصورة الجميلة مهما سَمَت فهي من عالم الناسوت ، بينما جمال السيرة يعود إلى عالم الملكوت .

فما أبعد البون بين ما هو سماوي ملكوتي ، وما هو ماديّ أرضي ؟!

في المادة ظلمة وضعف ومحدودية . . . أمَّا في الملكوت فنور وإشعاع وتفتّح !

من جهة أخرى : فإنَّ عشاق الجمال الظاهري منساقون بدافع الشهرة والغريزة الجنسية . أمَّا عشّاق الجمال المعنوي فهم مدفوعون بدافع الكمال والسموّ الروحي .

الصفة الغالبة على عشّاق الجمال الظاهري هي الجهل والحمق ، بينما الصفة الغالبة على هواة الجمال المعنوي هي الرزانة ، والعقل .

وهكذا توجد فروق كبيرة بين الفريقين .

الشارح

السعادة والفلاح دائماً .

٢ ـ إنَّ جمال الصورة ضيف عارض يقترن مع أيام الشباب ، ثم يزول ويفنىٰ . . . أما جمال السيرة فإنه خالد مستمر ، ويبقى أثره حتى بعد الموت .

٣ ـ إنَّ جمال الصورة مخلوق دنيوي ناسوتي ، أما جمال السيرة فهو معنوي ملكوتي .

٤ ـ إنَّ عشاق الصورة غالباً ما يكونون من مستوىٰ أدنى ، في حين يضمّ عشاق السيرة أصحاب العلم والفضل والشرف .

٥ ـ إنَّ الدافع الأساسي لدىٰ عشّاق الصورة هو الشهرة والغريزة الجنسية ، أمَّا لدىٰ عشّاق السيرة فالدافع هو السلوك الإنساني والمعنوي .

٦ ـ عشّاق الصورة يزول عشقهم لأجل ما يطرأ على الجمال من اضمحلال وزوال ، أمَّا عشاق السيرة فإنَّ عشقهم يتزايد يوماً بعد يوم نظراً لتقدمهم في طريق الكمال .

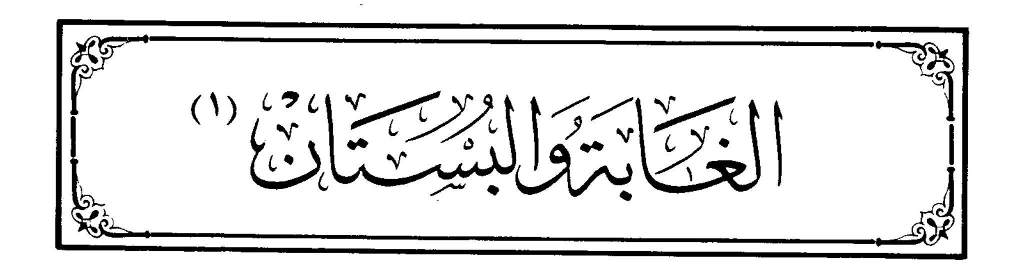
٧ ـ إذا تـزاحم عـاشقـان من عشّـاق الجمال الظاهري ، فإنَّ كلاً منهما يريد إفناء الآخـر والقضاء عليـه . أمَّا إذا تـزاحم اثنان على محبــوب معنـوي فيــزدادان اقتــرابــاً وتفانياً .

وبصــورة موجـزة : هناك فـروق كبيرة بين هذين الفريقين ، حيث النقص والسلب في جانب الصورة ، والكمـال والإيجاب في جـانب السيرة . . . إنَّ هـواة جمال الصـورة ينحصرون في بني البشر ، أمَّا جمال السيرة فهُواته ، عدا البشر ، هم الله[1] والأنبيـاء ، والأوليــاء والأصفيـاء والمــلائكـة وجميــع الموجودات .

(١) إذا ورد في بعض النصوص أنَّ الله جميل ويحبّ الجمـال فليس المقصود من ذلـك هو الجمـال الظاهـري والطبيعي ، بـل المراد هـو العلم والقدرة والـرحمة والجـود وستر العيـوب والعفو عن الـذنب ، وقبولـه التوبـة ، والعدل . . . هـذه هي الصفات الجمالية التي تشكل أساس الجمال المعنوي ، وإذا تحلّىٰ العبد بها اقتـرب من الله . ولذا ورد في دعاء السحر :

« اللهمَّ إنِّي أسألك من جمـالك بـأجمله ، وكل جمـالك جميـل ، اللهمَّ إنِّي أسألك بجمالك كله » .

الشارح



قد تعبّر مشاهدة الغابة ـ بالنظرة السطحية ـ عن النزهة والرغبة في الترفيه عن النفس ، وقد تكون رؤية الأشجار المتراصّة ، وسماع خرير الماء من الشلّالات فيها باعثة على النشاط والمتعة .

لكن إذا نظرنا إليها بدقّة ، وبعين

(١) الحياة بعيداً عن النظام الإلـهي مقترنة بالظلم والجور .

لقد أجاد العارف المحقّق في التمثيل بالغابة والبستان ، فإنَّ الحياة التي لا يحكم النظام الإلـهي فيها تعدّ بمثابة الغابة التي تتفرعن فيها أغصان الأشجار الباسقة وتتحكم في حق الأشجار الصغيرة ، وتسحق أغصانها الغضّة الطرية .

أجل ، فإنَّ حبّ الذات ، والإثرة ، والانفلات . . . وهي مظاهر ثابتة في المجتمع البعيد عن الله ، يتعقّبها الشقاء والظلام .

إنَّ المجتمع الإنساني لو تُرك كغابة مليئة بالأشجار التي لم تنظّم وترتّب ، غير خاضع للقانون الإلـهي ، فإنّه يتحول إلى بركان ينفجر فيحرق كل ما حوله ، ويفني جميع الأشياء .

الأنانية علامة انعدام النظام التربوي الصالح ، وتؤدّي إلى اختلال الموازين ، وسيطرة الهرج والمرج على المجتمع . . . ومن الصعب معالجة الشخص كي يتخلّص من هذا الداء الوبيل .

الشارح

العبـرة والبصيرة ، نجـد في كلِ ورقـةٍ منهـا قصة شقاء وتاريخ بؤس . . . إنَّنـا سنجد في كل التواءٍ وانحناء مشاهد مؤلمة .

أجلِ !

فـإنَّ الغـابـة تضـجّ بمشـاهـد الـظلم والتعدّي ، وتزخر بمعاني الاضطهاد والجور والتحكّم . . . فالأشجار المعمّـرة والضخمة تسحق الشتـلات الغضّة الـطريّـة البـريئـة ، وتـرصّ عليها تحت ضغط أغصـانها القـويّـة المستحكمـة ، وتقف مانعـاً أمـام نمـوّ تلك الأغصــان الــطريّــة بعــالمٍ ملؤه القســوة والضراوة .

وهكـذا تئنُّ الأغصـان اللطيفـة تحت كابوس جبابرة هذا المحيط دوماً .

لا تـوجد زاويـة في الغابـة تشمّ منهـا رائحة العطف والحنان[1] . . .

---

(١) حيث يسود قانون الغاب ، وحيث يضطهد الأقوياء الضعفاء لا أثر للعطف والحنـان ، الهياكـل كلّها مخيفـة وباعثـة على الرعب ، إنَّهـا تمنع من وصـول أشعَّة الشمس إلى الأرض ، لا تجد فاكهة حلوة ، ولا وردة حديثة عهد بـالانفتاح في كـل أرجاء الغابة . . . الأغصان الكثيفة والصاعـدة إلى عنان السمـاء تتزاحم ، وتتشـاحن فيما بينها .

كذلك شأن المجتمعات البعيدة عن التشريع الإلـٰهي . . .

الـظالمون يستـأثرون بكـل شيء ، إنهم ينعمون بـالـورد والعشب والـوادي ، =

لا يُسمع منها صوت غير دويّ غرور الأقوياء وأنانيّتهم ، وأنين الضعفاء وبؤسهم . يعمّ ضجيج الحيوانات المفترسة فضاء الغابة ، فيملأ المنطقة كلها بالخوف والرعب .

= يحصرون البساتين والمروج ، والأنهار العذبة ، والسواقي الجميلة لأنفسهم . . . في حين يجعلون نصيب البؤساء السجن والتعذيب والاضطهاد ، غافلين عن أن سنَّة الله جرت على رجوع ظلم الظالم إليه حتى يقضي على الظالمين .

وهنا لا بأس بذكر قصة تاريخية تبعث على الإعتبار ، ومؤيدة لقوله تعالىٰ :

﴿ إنَّما بغيُكم على أنفسكم ﴾ .

كان محمد بن عبد الملك الزيّات أديباً قديراً ، وكاتباً للمعتصم بالله العباسي ، وذات يوم وصلت رسالة من إحدىٰ المدن العراقية يشكون فيها الجدب والقحط ، ويسألون الخليفة أن يُعفيهم من الضرائب ، دفع الخليفة بالرسالة إلى وزيره ، ولما كان فيها بعض اللغات التي يجهلها الوزير ، ولم يكن المعتصم نفسه محيطاً بمعاني لغة العرب ، فقد استأذن محمد بن عبد الملك الزيّات من الخليفة أن يقرأ الرسالة ويشرح معاني اللغات الواردة فيها . فوافق الخليفة على ذلك .

قال الزيّات : العرب تسمّي الزرع أول ما ينبت بالعشب ، وحين ينمو بالكلأ ، وحين يميل إلى الجفاف تسميه حشيشاً . إنَّ هؤلاء يقولون : إنَّ مزارعنا قد تحوَّلت إلى حشيش ولا طاقة لنا بدفع الضرائب .

فاستحسن الخليفة فهم الزيّات ، وعزل وزيره ، وعيّن محمد بن عبد الملك الزيّات مكانه .

تصدّى الزيّات فترة لوزارة المعتصم ، ثم أصبح وزيراً للعاصم بالله . وأيام وزارته بنى سجناً حديدياً لتعذيب السجناء ، وكان تحت السجن تنور كان يسجّره تحت أقدام من كان يريد مصادرة أمواله ، أو يسيء الظن بهم ، ولم يكن هذا النوع من السجون معروفاً في ذلك الزمان .

كان قد غرز داخل السجن من جميع الجهات بالمسامير وحيث كان السجين =

هـذا الظلم والاضـطهاد لا يقف أثـره عند سحق الضعفاء والبؤساء ، بل إنَّه يحوّل ذلـك المجتمع المـظلم إلى مجموعـة مليئة بالقلق والاضطراب والحـرمان والبؤس . . . فلا تجد شجـرة جميلة ، ولا برعمـاً غضّاً ، ولا ورقة فتيّة في هذه المجموعـة !! كلّ مـا يلوح للناظر فإنّه قبيح المنظر ، كأنَّ الأشجار المتـطاولة إلى عنـان السماء عفـاريت سيئـة ودميمة ملتفّة ببعضها ، حتى أنك لا تحصل

=يضجر ويتألم من شدّة الحر فـإنه كـان يجري على تلك المسـامير ويئنّ حتى تفـارق روحه الحياة .

مضىٰ عهد العاصم بالله ، وجاء دور المتوكل بالله .

لقد قام المتوكل باعتقال محمـد بن عبد الملك الـزيّات ، وألقى بـه في نفس ذلـك السجن الذي صنعـه لتعذيب السجنـاء ، وهكذا سُجن الـزيـات هنـاك أربعين يوماً ، وعلم أن ما ارتكبه من الظلم عاد إلى نحره .

لقـد طلب في أواخر أيـامه من بعض السجنـاء أن ينـاولـوه قـرطـاسـاً وقلمـاً ، فاستأذن السجّان من المتوكـل في ذلك ، فسمح له بإعطائه القرطاس ، فكتب عليـه هذين البيتين :

هـي السـبيـل فـمـن يـومٍ إلـى يـوم   كـأنَّـه مـا تُـريـك العيـنُ في نَـوم
لا تـجـزعـنَّ رويـداً إنها دول   دنيـا تَنقـل مـن قـومٍ إلى قـوم

لاحـظوا تبدل أحـوال الزيّـات من كونـه كاتبـاً إلى تصدّيـه الوزارة ، فتعـذيبـه الناس ، ثم ابتلائه بنفس السجن الذي بناه .

وهكذا يعود ظلم الظالم إلى نفسه .

الشارح

على ثمرة حلوة وطريّة في هذا المكان الفسيح . . .

كل ما فيها بلا عطر ، ورُواء ! !

وطبيعي أن تكون الغابة ـ بعد هذا كله ـ موطناً للسعالي والعفاريت ، ومسكناً للغربان والبوم ، ويسيطر عليها الشقاء بصورة كاملة .

هل يمكنكم معرفة السبب في كلّ هذه المآسي ؟!

إنه انعدام التربية ، والأنانية ، والغرور ، والإنفلات . . .
هذه الصفات هي سبب الشقاء والبؤس ! !
إذ لو كانت الغابة أيضاً تخضع للتربية ، وكانت تُدار من قبل فلّاح ماهر ، فإنها هي الأخرى كانت تتحوّل إلى بستان جميل ، وحقل زاهٍ ، وفواكه ممتازة ، وثمار طيبة .

كان ينمو فيها أشجار كقامة الفتاة الفارعة ، وزهور كخدود العذارى ، فيزداد المنظر رونقاً وبهاءً . . . كانت البراعم المتفتّحة لتوّها تملأ الفضاء بشذاها ،

وتبعث النشوة والطرب في نفوس الناظرين . . .

كان البلبل الفتّان يزيّن أغصان الأشجار ، ويأوي الناس إلى ظلّها .

هذه يد الفلّاح الفنان ، التي توصل النبتة الصغيرة إلى أسمىٰ مقام ، وتجعلها قابلة لجميع أنواع الاستفادة منها . . . إنها يد الفلّاح العادل التي تعيّن لكل شجرة حدّاً ومجالاً ، وتمنع الاعتداء على مجال الآخرين . . . حتى أنها تزيح ظلال الشجرة الباسقة من على رؤوس الشتلات الغضّة الفتيّة كي لا تزاحم نموّها وحريتها .

أجل ، فإنَّ المجتمع البشري اليوم أصبح كغابة موحشةٍ يملأها الجور والظلم . . . فالشعوب تحكمها الأنانية وفقدان الموجّه ، الأقوياء والجبابرة يضطهدون الضعفاء بكل قسوة ، الحميّة والمروءة تركتا دورهما ونُسختا ، أمَّا الصدق والاستقامة فقد هجرا مملكة الآدميين ، والإحسان والمحبة لم يبق منهما عين ولا أثر . . .

العلم الذي كان يُرتقب كونه ذريعة

لـراحـة الجسم والـروح أصبح اليـوم أداة للخـراب والدمـار ، وسبباً لهـلاك العنصـر الإنساني الشريف .

وفي الحقيقـة : فـإنَّ أغلب هـؤلاء المتظاهرين بالمظهـر الإنساني فقـدوا السيرة الإنسانية وجمال السلوك البشري .

وناهيك عن المنظر الكريه الذي يظهر للعيان ، عندما يرتفع هذا البـرقع الإنسـاني عن وجـه أغلب النـاس ، فتـرىٰ الـنمـر والفهـد ، والـدبّ والخنـزيـر ، والحيّـة والعقرب ، وسائر الحيوانات المؤذية .

عنـدئذٍ تـرى أنَّ الشيطان الخنَّـاس قد عشَّش في قلوبهم وأدمغتهم وكيانهم . . .

هـذه الآثـار السيئـة كلّهـا نتيجـة لـلإنفلات أو الخـروج على القانـون ، وهي عواقب وخيمة تتـرتب تلقائياً على الاستبداد والاضـطهاد ، وعـدم الانصياع لأوامـر فلّاح الأزل .

لـو كـان المجتمـع البشـري يخضـع للتـربية الإنسـانيـة الصحيحـة حسب منهـج السمـاء ، فإنَّ العـالـم كان غيـر ما نشـاهـده عليـه اليـوم ، كنت تـرى الجنّـة والنعيم في

هذا العالم ، وكنت تشاهد الناس وهم على أتمّ ما يكونـون من التحابب والجـدّ والنشاط والعمل الصالح . . .

كنت تلحظ فيهم الخيـر . . . يعلوهم الجمـال والعـاطفـة ، ويتفجـرون حـلاوة وطراوة ! !

ولكن ما يؤسف له أنَّ أغلب الناس لا يزالون يعيشون فترة الـوحشية ، ولا يـريدون أن ينتقلوا إلى التمدّن والحضارة .

لاحظوا الجرائم التي ترتكب في عالم الغـرب ، هـل تجـدون لهـا مثيـلاً في المجتمعـات المتـوحشـة ؟! حتى الفنـون والصناعات التي كان ينبغي لها أن تستخـدم في حفظ الفرد والمجتمع ، إذا بها تستخدم لإفناء الناس .

إنَّ مصـانـع السـلاح الـخـفـيـف والثقيل . . . تنتج الأسلحة الفتاكـة ، وتصنع أدوات قتل النوع الإنساني .

أيُّها الناس !

إنَّ المتمـدن هـو الـذي يعيش تحت ظـلّ التعليمات الصـادرة من صانـع البشر ، وينفذ الأوامر التي يقتضيها النظام الإلـهي .

إنَّ التمدن يشـاهد في آفـاق الحزب
والتجمّــع ، والمجتمــع والــدولــة ، التي
يحكمهـا النـظام الإلـٰهي ، وتجعــل الكتب
السماوية منهاجاً لها ، وبالخصـوص الكتاب
الحيّ الخـالـد لخـاتم الأنبيـاء(ص)، الـذي
أذعن فلاسفة الشرق والغرب ، وعظماء بني
البشر بمقدرته العلمية ، وصحَّة براهينه [أ] .

(أ) للشاعر المسيحي مارون بيك عبّود ، رئيس الجامعة الوطنية في عاليه - لبنان سابقاً - في تأييد الدين الإسلامي الحنيف ، أبيات جميلة وذات مغزى دقيق ننقل بعضها هنا .

لله دينـك جنـة مخـتـومـة ... مـن كـلِّ فـاكـهـةٍ بـهـا زوجـان
ديـنٌ تـدفّـق حـكـمـةً وتـجـدّداً ... كـالبحـر لـفـظاً والسـمـاء مـعـانِ
ألّـفـت مـنـه وحـدةً كـونـيـةً ... الـعـبـدُ والـمـولـىٰ بـهـا سيّـانِ

واستمـع إلى البـروفسـور درابـرز أروب (P. Draper's Europe) يقـول بالنسبة إلى القرآن الكريم :

« القرآن مليء بالأحكام والتعاليم الراقية ، والدرجات الأخلاقية العالية . إنه يتألف من سور وأجزاء ، ولكنه لا تـوجد صفحـة منه تخلو من النصـائح والمـواعظ القابلة للتصديق والقبول من قبل الجميع . هذه التعاليم الخاصة التي تشمل القوانين الخُلُقية تعتبر مصدر هداية للإنسـان العادي في جميـع مظاهـر حياتـه . إصرار دائم على لـزوم الصلاة ، وإيحـاء مستمر بـالعطف والـرحمة ، والصـدقة ، والعـدالـة ، والصوم ، وسائر الأعمال الخيّرة .

يتضمَّن القـرآن تعاليم بـالنسبـة إلى السلوك الاجتمـاعي ، والفـردي ، حـول الافتراض ، والشهادة ، والنكاح ، والأطفال ، ومضـارّ الخمرة ، والأهـم من ذلـك الحثّ على مجاهدة المشركين والمنافقين .

ولا يوجد بالنسبة إلى الحياة في آسيا ظرف يستغني الإنسان فيـه عن القران . فهذه النصائح والتعليمات تُعتبر بالنسبة إلى أهالي آسيا وإفريقيا أفضل من أية فلسفة إلٰهية . لقد=

﴿ إنَّ هـذا القرآنَ يَهـدي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ويُبشِّرُ المؤمنين ﴾[1] .

أجل ، فما أن يصبح إنسانٌ قرآنياً ، ويتحوّل شعب إلى شعب قرآني . . . حتى يصبح جميلاً بهياً ، رحيماً ، عطوفاً . . . ويرقىٰ إلى المقامات الإنسانية السامية .

= قلت هـذا في شأن كتاب يعتقد الملايين من بني الإنسان أنه وحي إلهي . ولكن اعلموا أني كما تحدثت عنه باحترام ، فإنّي حرّ في آرائي الخاصة .

إنّي أفكر دوماً في مقدار كون الناس في آسيا وإفريقيا مدينين في حياتهم اليومية إلى هذا الكتاب ، ومقدار ما اقتبس الأوروبيون والأمريكان منه في علومهم ومعارفهم .

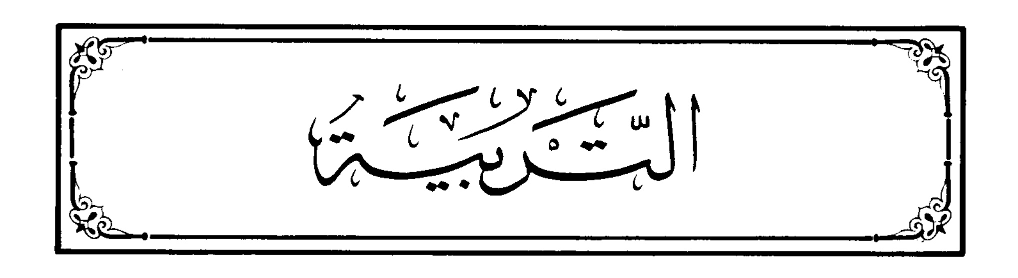
هذا الكتاب المقدس أي القرآن ، مشتقٌ من القراءة ، وهو يعني في الواقع أنه كتاب جدير بالقراءة » .

نقلاً عن مجلة (نور دانش) العدد ٧٢ ص ١٥ .

المؤلف

---

(١) سورة الإسراء / الآية : ٩ .



التربية

خلق الله تعالىٰ عالم الوجود بقدرته وإرادته ، وعلى سبيل الحكمة فقد خلق الأشياء كلّها لأول وهلة بصورة (النطفة) ، لكي يتسنّىٰ لها تحت إشراف الطبيعة والأسباب والوسائل الخاصة بها أن تمرّ بمراحل مختلفة في النموّ والتنشئة ، وتعبر منازل الطفولة لتصل إلى درجة البلوغ .

من الواضح أنَّ حركة كل موجود إلى هنا حركة طبيعية ، ودبيب كلّ دابة فطري . . . أمَّا بعد هذه المرحلة فإنه يحتاج للوصول إلى الكمال المطلوب والهدف النهائي إلى يدٍ قديرة أخرى[1] .

---

(١) إنَّ الاهتمام بتربية الأولاد وتأديبهم يعتبر في نظر المناهج الإسلامية آكد من تلبية حاجاتهم الجسمية . يتحمل الآباء في هذا السبيل مسؤولية خاصة ، عليهم أن يعوا دورهم الخاص في هذا المجال وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

« لا ميراثَ كالأدب » .

إنَّ تربية الأولاد واجب ديني مقدّس ملقىٰ على عواتق الآباء ، وهي فريضة =

فمثلاً . . . إستناداً إلى أمر الله ومشيئته العالية ، تقوم الطبيعة في باطن الأرض بتربية وتنشئة الحجر والتربة لتتبدل بعد آلاف السنين إلى حديد ، أو معدن آخر .

إنَّه يمهّد الأرض لتنشئة أنواع الأشجار ، وتحويل النبتة الضعيفة إلى شجرة باسقة ، أو انه يهيىء عوامل نموّ الحيوانات والدوابّ المختلفة في أحضان الأرض ، لتكون في متناول بني الإنسان ، وكذلك يخلق الطيور على اختلاف ألوانها لتطير هنا وهناك .

لكن جميع هذه المخلوقات تتوقف عن الحركة والسير عندما تصل إلى نصابها الطبيعي .

ويصل الدور إلى الإنسان في تحويل خامات الحديد أو قطع الحديد المتروكة ـ بفضل التربية ـ إلى مِعول ومطرقة ، ومنجل ومسحاة ، وسيف . . . وآلاف الأدوات

= حتمية ، وفي ذلك يقول رسول الله (ص) لعليّ عليه السلام :
« يا علي ، لعن الله والدَيْنِ حَمَلاَ وَلدهما عُقوقَهما » .

الشارح

والآلات الثمينة[1] .

قد يحصل الإنسان على مئات الكيلوغرامات من خامات الحديد في مقابل مثقال من الذهب . . . ولكن بعد أن تخضع خامات الحديد للتربية الصناعية قد تبلغ قيمة المثقال من الحديد أضعاف قيمة المثقال من الذهب .

وهكذا الفضة والنحاس والفلزات الأخرى .

وحتى الأحجار التي لا قيمة لها ، قد تبلغ قيمتها إلى الملايين بعد أن تعمل اليد البشرية العجائب فيها .

إنَّ خشب الأشجار غير المثمرة الذي لا فائدة فيه بعد بلوغه النصاب الطبيعي غير

---

(١) يقصد المؤلّف العارف في هذه الفقرة : أنَّ الإنسان كما يستطيع تحويل الحديد الذي لا يتمتع بقيمة عالية ـ بفضل تربيته ـ إلى أنواع الأدوات والوسائل التي يحتاجها ، والتي تصبح ذات قيمة بعد أن عملت يد الصانع فيها . . . كذلك يستطيع الوصول إلى أسمىٰ درجات الإنسانية إذا خضع لمنهج تربوي سليم .

إنه يستطيع أن يطأ هامة الكون ، ويسمو على العالم المادي .

من أجل ذلك فقد أرسل الله الأنبياء والرسل ليأخذوا بيده في هذا السبيل ، ويرشدوه إلى الطريق الصحيح الذي يضمن السعادة الأبدية .

الشارح

الإحراق ، تستطيع يد الإنسان الفنان أن تصنع منه الأبواب والشبابيك ، والكراسي والمنضدة ، وآلاف الصنائع البديعة الأخرى .

إنّه يُستفاد منه في زاوية المطبخ ، إلى قاعات الاستقبال الجميلة ، وتزيين الجدران والفرش . . . وغير ذلك .

هذا الفكر الخلّاق للبشر يحوّل الكلب إلى راعٍ للماشية ، وإلى حارس ، وإلى جليس لأفراد الأسرة ، ومتصدّر لبعض المجالس ، بل وعضو مهم من أعضاء جهاز الشرطة .

إنّه يستألف الفيل والحصان ، ويستفيد منهما . . . يؤهّل الأسد والنمر والأفعىٰ ليستخدمها في مقاصده .

يحرّك البلبل نحو التغريد ، ويدعو الببغاء إلى النطق ، وأخيراً فإنه يرفع من قيمة الموجودات الطبيعية في ظلّ التربية إلىٰ آلاف بل ومئات الألوف والملايين من المرات .

إنّ فنّ أمثالنا هو الذي يجعل الحديد الثقيل يطير ويحلّق في السماء عالياً ، يصنع

الطائرة ، ويجعلها تجاري الريح والبرق في الفضاء العالي . . . إنَّ هذا الفن هو الذي يصنع من المادة الباهتة آلات جميلة وجذّابة للخياطة والتطريز ، بحيث تتعرف عليها الأصابع البلورية للفاتنات . . . إنَّه هو الذي يصنع من الأعشاب البرية علاجاً لآلاف الأمراض والآلام ، وأخيراً فإنَّه يوصل جميع المحاصيل الطبيعية إلى الكمال المطلوب .

نخلص من جميع ما تقدَّم إلىٰ أنَّ للإنسان جسماً وروحاً مستعدّة ، ونفساً خالدة ، لذلك فهو يحتاج إلى تربية خالدة .

إنَّه يجب أن يتربَّىٰ في محضر وجه الله الباقي ، وتعمل اليد التي صنعت آدم في تنميته وتنشئته .

الفارق الكبير بين الإنسان وساير الحيوانات أنَّها تتربَّىٰ وتصبح أليفة بقوّة الخوف والطمع ، أمَّا أنت فإنَّك تعدّ نفسك للتربية حبّاً في الوصول إلى أوج الإنسانية برغبة تامة كاملة ، وعند ذاك تتألق كنجمة متلألئة في أفق الآدمية .

بل إنك لا تحتاج إلى المربّي ،

فقدرة البارىء المصوّر جلّت أسماؤه كافية لتزيين وجودك ، يكفيك أن تستلهم من جانب الخالق الواحد الأزلي ، وتسلك سبيل التوفيق .

ولكن ما هو جدير بالذكر هنا أنَّ هناك أصواتٍ متفاوتة تنبعث من داخلك ، وهناك أوامر تصدر من مصادر متعددة في ضميرك ، وما يبعث على الأسىٰ والأسف أنك لم تألف صوت صديقك الحميم ، ورفيقك الوفي ، أعني حقيقتك الطاهرة ، وتتلقىٰ كلمات هذا المعلم القدير ، المفيدة ، بصعوبة . . . ويعتريك الشك والريب !

إنَّ الضجيج الناشىء من تزاحم منافسين قويّين في سماء فكرك وفضاء وجودك يؤدِّي بك إلى الحيرة والتردّد ، وبذلك تعجز عن التمييز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ .

لذا فقد أرسل الله الرَّحيم أساتذة حاذقين ليصلوا بينك وبين صوت الحميم الوفيّ ، ليفسّروا لك كتاب العقل ، وفي الحقيقة فإنَّ الأنبياء الذين اصطفاهم الله

لهداية البشـر يتكفلون بإراءة طـريق السعادة والفـلاح[1] ، ويرسمـون لك خـارطة الفتـح والظفر ، كمـا يقول القـرآن الكريم مخـاطباً رسوله الكريم :

﴿ فذكِّرْ إنَّما أنتَ مُذكِّرْ، لَسْتَ عَلَيهِمْ بِمُصَيْطِر ﴾[2] .

ويقول في سورة أخرى :

﴿ وَذَكِّـرْ فـإنَّ الـذِكـرىٰ تـنـفَـعُ المؤمِنين ﴾[3] .

---

(١) يمتـاز الأفراد الـذين تلقّوا تـربية صحيحـة في مـدرسـة الأنبيـاء بـأنهم لا يخرجون على الموازين الإنسانيـة ولا يتسبّبون في إثـارة الرعب والفـزع ، أو إشاعـة القلق والاضـطراب في البيئة التي تُحيط بهم . لا يتجـاوزون حـدودهم وحقـوقهم ، على العكس من الحكّام الذين يتشدقون بشعار العدل والمساواة ، ولكنهم في مجال التطبيق لا يُرى منهم إلّا العسف والاضطهاد .

إنَّ أصول التربية الإسلامية الصحيحة تدعو أمير المؤمنين عليه السلام إلى منع جنوده من سبّ جنود معـاوية ، قـائلاً : « إنِّي أكـره لكم أن تكونـوا سبّابين لعّـانين » لكن معاوية يتنكر لجميع الأسس الإنسانية ويأمر بسبّ علي عليه السلام على المنابر صارفاً على هذه البدعة المقيتة من بيت مال المسلمين .

وفي حرب صفّين منع أصحاب معاوية جيش الإمام أميـر المؤمنين عن الماء ، ولكن بعد أن استطاع جيش الإمام عليه السـلام من السيطرة على المـاء ، لم يقابلوا أصحاب معاوية بالمثل ، بل سمحوا لهم بالماء . . .

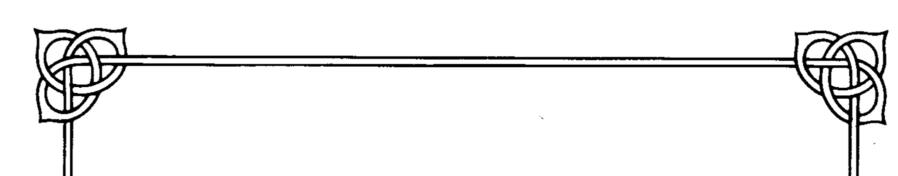
ومـا ذلك إلّا لأن التـربية الإسـلامية الصحيحـة تأبىٰ الانتقـام من العدو بهـذا الأسلوب الخسيس .

(٢) سورة الغاشية / الآية : ٢١ و٢٢ .

(٣) سورة الذاريات / الآية : ٥٥ .

الشارح

إلاَّ أنَّ وجـودك الكســلان الـمحـبّ للراحـة ، ونفسك الميّـالـة إلى الشهـوات ، القصيرة النظر ، حجاب سميك يحول بينك وبين مشـاهـدة الـوجـه المشـرق لـذاتـك ، ويمنعك من سماع آيات العقل والروح .



رسالة الإنسانية

الجزء الثاني

ويشتمل على أربعة فصول





الفصل الأول

ويتضمن:

- مقدمة الشارح
- العلم
- العلم والعمل
- الماضي، الحاضر، المستقبل
- إصلاح النفس
- مكافحة الخصم العنيد
- الحرية والرق



مُقَدِّمَةُ الشَّارِح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أيها القارئ الكريم:

الكتاب الذي بين يديك هو الجزء الثاني من رسالة الإنسانيّة، الذي فرغت من شرح جزئه الأول، الذي كان طافحاً بالمباحث الأخلاقيّة والأسس الإنسانيّة، وقد جاد به يراع العارف الفقيه الجليل آية الله العظمى الميرزا حسن الحائري الإحقاقي، الذي يعدّ من العلماء والمراجع العظام.

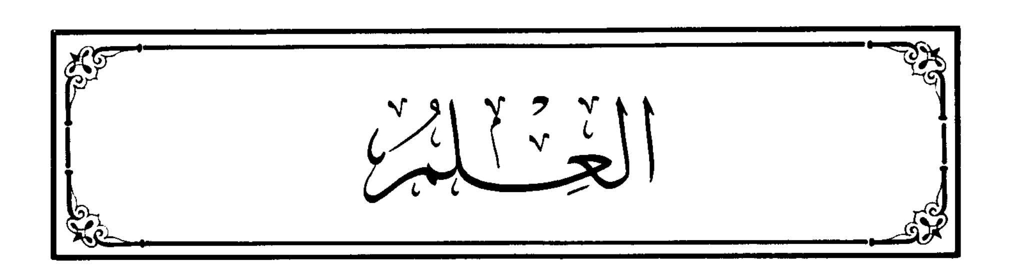
ولسماحته آثار قيّمة في شتى فروع الثقافة الإسلاميّة، لكن همّه الأول ينصبّ على تدوين المباحث الخلقيّة منسجمة مع الآيات القرآنيّة وأحاديث الأئمّة الأطهار عليهم السّلام، كي يصل المسلمون - والشيعة بوجه أخصّ - إلى المعنى الحقيقيّ للإنسانيّة، ويصوغوا أنفسهم مع هذه المفاهيم والمقوّمات.

لقد قام هذا العالم الجليل بتأسيس مراكز في أكثر الدول الإسلاميّة لتربية الناشئة وتثقيف الشباب، وهم الآن يتلقّون علومهم في تلك المراكز والمعاهد بجدّيّة تامّة. أضف إلى دعمه المتواصل للمدارس العلميّة القديمة في بعض الدول الإسلاميّة، وهذه الجهود والآثار العظيمة التي يبذلها سماحة الإحقاقي في سبيل خدمة الإسلام ونشر مذهب الشيعة هي التي تدفع مخلصيه إلى إمداده بكل الوسائل ودعمه في هذه المسيرة النيّرة.

نسأل الله تعالى دوام التوفيق لسماحته، وأن يكثر في العلماء العاملين أمثاله آمين.

حسن شمس گيلاني





العِلْمُ

قال تعالى :

﴿إنَّما يخشىٰ الله مِنْ عِبادِهِ العلماءُ﴾[1] .

العلم هو الأداة الوحيدة لحفظ السلام والاِستقرار في العالم !!

هذه الجملة هي شعار الفلاسفة، ومستند الساسة .

انها تجري على لسان الحاكم والأمة ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير[2] . . .

---

(١) سورة فاطر / الآية : ٢٨ .

(٢) ما هو العلم الذي يؤدي إلى الاِستقرار والسلام ؟!

إن المظاهر الخلّابة ، والمناظر الجميلة للحضارة الغربية ، والتقدّم العلمي والتكنولوجي في العالم دعت البشرية إلى تصوّر أن العلم يستطيع التغلّب على الغرائز والسيطرة عليها ، فيقدر على سَوْق العالم نحو الفضيلة .

إنهم غافلون عن أن العلم بلا إيمان يشبه العقل والضمير في مواجهة السيل الجارف للغرائز ، فان العقل أو الضمير ينسحب من الميدان أمام ضراوة الغرائز ، ويُنسى دور التوجيه العقلاني للسلوك عند ذاك .

إنّ الأهواء والشهوات قد تتسبّب في إحراق بناء العلم والعقل ، كما يقول =

نحن لا ننكر أهمية العلم وإعجازه!!

فالجميع يعرفون سمّو مقام العلم ورفعة شأنه ، ويذعنون بذلك دون نقاش أو جدل.

= الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة إلى بعض المنحرفين :
« قد أحرقتِ الشهواتُ عقله ، وأماتَتْ قلبه ، وأولهت عليها نفسه».
ما أكثر المثقفين وذوي الدراسات العُليا ، الذين لا يملكون أنفسهم تجاه الغرائز !!
وكثيرون أولئك الذين صرفوا قسطاً من أعمارهم في الدراسة والتعلّم ، وقطعوا أشواطاً في نيل العلوم ، واطلعوا على مضار المشروبات الكحولية ومفاسد القمار والرشوة . . . وربما نراهم يكتبون مقالاً حول الموضوع أو يؤلفون كتاباً في هذا المجال ، ولكنهم في مقام العمل والتطبيق يرتكبون هذه الذنوب والمعاصي.
نستنتج من ذلك : أن العلم وحده لا يفي بالغرض ، ولا يستطيع جرّ الإنسانية نحو السلام والهدوء والإستقرار.
يجب أن نقول لهؤلاء : العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر.
فان ثمرة العلم العمل به ، إذ لا فائدة من علمٍ لا يقترن بالعمل.
وعن بعض هؤلاء العلماء يتحدث النص الآتي :
«أوحى الله تعالى إلى داود : لا تسألني عن عالمٍ قد أسكره حبّ الدنيا ، فأولئك قُطّاع الطريق على عبادي».
يجب أن لا يغيب عن بالنا ، أنه طبقاً للإحصائيات المنتشرة عن الدول المتقدمة علمياً وتكنولوجياً ، يتزايد عدد الجرائم والجنايات يوماً بعد يوم . فما من يومٍ يمرّ على هذه الدول إلاّ وتأخذ الجرائم في نسبة تصاعدية ، وما من ساعة تمرّ حتّى تُحاط مراكز الشرطة بمعلومات جديدة عن جرائم جديدة.
إذن ، ليس في مقدور العلم أن يسيطر على الغرائز أو يكبح جماح الشهوات الثائرة.
حوادث القتل ، وسرقة السيارات ، والإختطاف ، والإغتيال، والتفجير، =

﴿ هل يستوي الذين يعلمون والـذين لا يعلمون﴾[1].

إذ من الواضح أنـه لا مجال للمقـارنة والمسـاواة بين العالم والجـاهل. وفي هـذا يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام :

« الناس موتىٰ وأهل العلم أحياء!!»

=والنهب، نماذج شائعة نقرأ عنها كل يوم في صحف الغرب.

أما في الإسلام فكما يقول تعالى :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعـروة الوثقىٰ، لا انفصـام لها﴾ سورة البقرة / الآية : ٢٥٦.

نجد أن بناء السعادة يتركز على دعامتين : الإيمان بالله ، والعمل الصالح.

والسرّ في تقدّم الإيمان على العمل الصـالح في القـرآن الكريم هـو أن العمل الصـالـح المقبـول لـدى الله والمنسجم مـع المعـاييـر الإنسـانيـة هـو المستنـد إلى الإيمان ، وإذا فقد عنصر الإيمان فلا قيمة له مطلقاً.

الإيمان من الأسس المهمة والـدعائم الأصيلـة في حياة البشـر ، وبدونـه ينهار كيان البشرية وينحدر إلى أسفل سافلين ، ويتحول الإنسان إلى حيوان مفترس.

وأدل دليل على ما نقول أن بنايات المحاكم في جميع الدول مليئـة بالأضـابير والملّفات التي تحكي اعتداءات المجرمين وجرائمهم، وتعكس خطواتهم الدنيئـة في معارضة القانون والنظام.

في حين أن العدالة في ظـل الإيمان والعلم تستـطيع أن تمـدّ ظلالهـا الوارفـة على البشرية جمعاء !!

في ظـل الإيمان يستـطيع الأثـريـاء أن يسـاهمـوا في طـرد الفقـر عن البؤسـاء والمسـاكين !! وإلاّ فـان الأثـريــاء الـذين لا إيمــان لهم ، في حين يتمتعــون بالعلم ، تتضاعف ثـرواتهم يومـاً بعد يـوم ، ويستثمرون أمـوالهم في مصانـع السلاح لصنع المزيد من الوسائل المدمّرة التي تُفني الإنسانية جمعاء.

الشارح

(١) سورة الزمر / الآية : ٩.

يعني بذلك أن المسافة بين العلم والجهل كالمسافة بين الحياة والموت !

ولكن ينبغي أن نعلَم ما هو المراد من هذا العلم ؟!

وما هي الثقافة التي تستطيع أن تنقذ البشرية ، وترفع راية السلام والفلاح في العالم ؟!

إن ما يؤسف له أن جميع الخطباء والكتّاب ـ بلا استثناء ـ يتركون هذه الجملة ناقصة ولا يثيرون هذا الموضوع .

أجل !

فان العلم يتكفّل الإِستقرار والراحة والأمان . . .

ولكن أيّ علم هذا ؟

هل هو الفيزياء والكيمياء ؟!

كلّا !! فان هذين العلمين بمقدار ما يهيئان وسائل الراحة للنّاس وعلى جميع المستويات، فانّهما يهيئان وسائل القلق والهلاك والدمار مئات أضعاف ذلك.

نحن نسلّم بأن إساءة التصرّف من قبل الأشرار في استخدام العلم للأغراض المبيدة والمهلكة لا تقلّل من شرف

العلم ، ولكن الإستعداد فيه لأن يكون في خدمة الأشرار والمُفسدين يكفي لإثبات عدم كفاءته في تحسين الأوضاع المعنوية .

أما علم الفلك والجغرافيا فلا يمسّان موضوعنا بشيء .

وكذلك الحساب والهندسة فهما بعيدان كل البعد عن مجال بحثنا .

وأما علم الطبّ فمتى استطاع أن يحقّق سلامة الأبدان والصحة العامة فانه ينجز عملاً جبّاراً بلا ريب .

إن رعاية الصحة العامة أهم بكثير من علم الطب ، فانّ وقاية البناية من الحريق أسلم وأفضل بكثير من إخماد النار بعد اندلاعها فيها . . . ومع ذلك فان قواعد الصحة العامة وأصولها لا تفي بمعالجة المشاكل الإجتماعية ولا تضمن سلامة الأفكار والعقائد .

لا أريد إحصاء العلوم والمعارف وتتبّعها واستقصاءها ، والحديث حولها ، ولكن إذا ألقينا نظرة عامة على المدارس العصرية من رياض الأطفال حتّى الجامعات ، على اختلاف فروعها ، فإننا سوف لا نجد بارقة من مشعل الهداية فيها .

وكما نشاهد جلياً فانها في الغالب

مراكز للانتفاضات العابثة ، والحركات الهدّامة ، والأنشطة الفاسدة.

إن المراكز التي يتصوّر كونها محاور للسعادة ، تصبح بُؤراً للشقاء والدمار.

* * *

وإذا اعتبر البعض العلوم السياسية أداة لتحقيق السلام في العالم ، فتلك عقيدة تضحك منها الثكلى !! لأن الركنين الأساسيّين لضمان السعادة والاستقرار هما الصدق والاستقامة ، والسياسي بعيد كل البعد عن ملاكي الرحمة هذين !!

إن المكر والخداع ، الكذب وخيانة العهود، الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين من الشروط الأساسية للسياسي.

بالله عليكم ! لاحظوا بدّقة ، لتروا أن الظلم الذي لا يُحدّ ، والقتل الفظيع ، والطغيان الذي لا غاية له ، وهذه السُحُب الداكنة، وهذا الإعصار الذي يلف في جوفه كل شيء فيملأ العالم ذعراً وخوفاً هل هو صادر من الجهّال، أم من نشاطات علماء العصر الذهبي كما يسمّونه ؟!

هل المجتمع الإنساني يُدار اليوم من قبل الأميّين ، أم إنّ القبضة الفولاذية للساسة

المثقفين تتحكم فيه ؟!!

لا شكّ أن الماسكين بزمام الأمور، والمنفذين لسياسات الشرق والغرب، والمسؤولين عن خطط الزور والطغيان هم من الشعوب المتحضّرة، ومن دعاة المدنيّة ... وهم أنفسهم مثار القلق والذعر في العالم.

انهم بعد تسخيرهم لبقاع الأرض، يخطّطون لتنفيذ عملياتهم التخريبية في الفضاء، وها هي حرب النجوم أقوى شاهد على ذلك.

هؤلاء العلماء، وحَمَلة المدنيّة الزائفة، والحضارة المهلهلة، يميّزون بين الشرقي والغربي بلا دليل.

وهؤلاء لا يرضون بالاعتراف للمنحدر عن أصل أسود بأنه إنسان أيضاً.

* * *

إذن، فهذه العلوم والمعارف التي يلهج بها المثقفون اليوم لا تعالج مشكلة، ولا تحقّق السعادة.

بل إن الأمة التي يكون حظّها من هذه العلوم أكثر، يكون خطرها على الشعوب المظلومة أشدّ.

العلم المدنَّس بحبّ الجاه والرئاسة والزعامة ، والمشوب باتّباع الهوى والشهوة ، لا يدع مجالاً لحامله كي يفكّر في إسعاد الآخرين ، ويتجه نحو الفلاح !!

مهما تقدّمت هذه العلوم واتّسعت ، فإن شجرة التوجّه المادي تزداد أغصانها وتنمو، وشجرة الفساد تضرب بجذورها في أعماق الأرض ، ويزداد الناس غفلة عن الخالق العظيم وقدرته اللامحدودة، وينسون هيمنته يوم الحساب !!

ومع هذه الحال، أنّىٰ للبشرية أن ترىٰ السعادة أو تقترب منها ؟!

أجل ، فالعلم أداة لتحقيق السلام العالمي ، ووسيلة لنيل الراحة والإِستقرار . . . ولكن ليست هذه العلوم التي جرى ذكرها ، بل انه علم التوحيد ودرس الإِنسانية !!

إنه الإِيمان بالخالق الحكيم ، القادر ، والإِعتقاد بسلطان العادل العليم ، الذي يجازي كلّاً حسب عمله ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

إنه الخضوع أمام جلال المولى الذي يرفق بعبده ، والسيّد الذي يرعى شؤونه .

﴿ إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتَعارفوا، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكُمْ﴾[1]

إنه الدراسة في المدرسة التي تقول :

« لا فضل للقرشي على الحبشي ، ولا للعربي على العجمي إلاَّ بالتقوى » .

إنَّه الإستماع إلى هذا القانون العام ، والإِنقياد لهذا المذهب الذي يقول :

﴿ فَمَنْ يعمل مثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه . وَمَنْ يَعمل مثقَال ذرّةٍ شرّاً يَرَه﴾[2] .

* * *

والخلاصة :

إنَّ الإِيمان بالمبدأ والمعاد وحده ، يربي البشر على الرأفة والعطف والحنان وحبّ الخير والسلام .

الإِعتقاد بالله هو الذي يُرسي دعائم السلام العالمي ، ويحقّق النعيم الأبدي .

إنَّه كيمياء السعادة، وإكسير السيادة ، والأداة الوحيدة للإِستفادة الخيّرة من سائر العلوم والمعارف .

والسلام على من اتبع الهدى .

---

(١) سورة الحجرات/ الآية : ١٣ .
(٢) سورة الزلزال / الآية : ٨ .





العلم والعمل

لا تنحصر فائدة اكتساب العلم وتحصيل المعارف على إطّلاع الإنسان على الحقائق ، وإزاحة ستائر الجهل من أمامه فقط ، بل إنَّ المزيّة التي توجد في العلم هي العمل به واكتساب مفاخر الحياة .

وعلى الرغم من أنَّ الاطلاع على الحقائق يتضمن شرفاً كبيراً لكن العلّة الغائية هي العمل والتطبيق ، حيث السلّم للتعالي والتكامل في كلا الجانبين : الفردي ، والاجتماعي[1] .

---

(١) العلم والعمل جناحان للتحليق في سماء الفضيلة :
يمكن السيطرة على المجهولات في الطبيعة بفضل العلم ، ومن خلال أشعّة العلم الذهبية يمكن تطبيق النظام في الحياة المادية .
إنَّ العلماء يمتازون بمكانة سامية في المنظار الإسلامي ، يقول الله تعالىٰ في سورة الزمر / الآية التاسعة : ﴿ **هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ .
ولا تنس أيها القارىء أنَّ الرسول الأعظم صلّىٰ الله عليه وآله ، يعتبر العلماء الواعين ورثة له . فحين يُسأل الرسول الكريم صلّىٰ الله عليه وآله ، عمَّن يقوم مقامه =

لنفرض أننا قُمنا بدراسة مستفيضة عن جوهر الإنسانية ، وصرفنا جهداً علمياً وفلسفياً عظيماً ، واقتفينا أثر الكتب السماوية واقتبسنا من أنوار الأنبياء والأولياء عليهم السلام ، وعرفنا أنَّ حقيقة الإنسانية هبطت من مقام الحبّ الإلٰهي !! أو أنها وجدت من أشعة أنوار العقل الكلّي ، وأدركنا أنَّ الإنسان قد خُلق من النور الإلٰهي ، ولكن قل لي بربّك : ما فائدة

= في الدور الريادي والقيادي يقول : « إنَّهم العلماء الذي يقومون بهداية الناس وتعليمهم » .

كان الإمام السجّاد عليه السلام جالساً ذات يوم ، إذ جاءه رجلٌ ماسكاً بتلابيب رجل آخر مدّعياً أنه قاتل أبيه ، طالباً القصاص منه . سأل الإمام السجّاد ولي المقتول : إن كان لهذا حقّ عليك فاعفُ عنه ، فأجابه : له عليّ حقّ ولكن ليس بالمقدار الذي يدعو إلى العفو عنه وإلغاء القصاص . فسأله الإمام : وأيّ حق له عليك ؟ قال : لقد علّمني أصول الدين . فقال له الإمام عليه السلام : والله إنَّ حقّه هذا يضاهي دماء الناس جميعاً ما عدا الأنبياء والأئمة .

هذا السلوك من النّبيّ (ص) والأئمة عليهم السلام كان سبباً لحثّ المسلمين وترغيبهم في العلم ، حتى صاروا ـ على حد تعبير فولتير ـ أساتذة الأوروبيين في أغلب العلوم .

ومع شدّة اهتمام الرسول والأئمة عليهم السلام بشأن العلماء وتبجيلهم ، فإنَّ أحاديثهم كلّها تؤكد على أنَّ العالم بلا عمل كالشجر بلا ثمر ، ذلك أنَّ قيمة العلم وأهمية العالم تظهر متى اقترن العلم بالعمل ، وإلاَّ فما أكثر العلماء الذين كان ضررهم على المجتمع أشدّ من اللصوص وقطاع الطرق !!

الشارح

هـذه العقيدة من دون العمـل؟! وإذا لم يُثمـر هذا العلم عملاً نافعاً فإنَّه لغو وعبث .

أجــل ، فـإنَّ مجــرد الاطـلاع على الحقـائق لا يحقّق لنا السعـادة . إذن فثمـرة هــذا النــوع من المعــارف هــو أن نتخلّق بــالأخــلاق الفـاضلة ، وأن نتحـلّىٰ بقــوة الإرادة ، فنتصف بصفــات الحق ، ونـمــدّ أجنحة عواطفنا على رؤوس الآخرين !

وإذ كنّـا أشعة من نـور الحق ، وجزءاً من الخير المطلق ، فلا بد أن توجد فـوارق بيننا وبين من يعتبر نفسه من سلالـة القردة ، وإذ كان كلّ فرد يعبّر عن مواريث أسلافـه ، فإنّنا يجب أن نحوز تراثاً عظيماً .

إنَّ عقيدتنا المقـدّسة ـ نحن الشيعـة ـ يجب أن تثيــر في كيــانـنــا غيــرة الأجــداد وإباءهـم ، ولذا فـإننـا يجب أن نستنـد إلى عزم راسخ في أن نـوفق بين أنفسنا وأصـولنا الـطاهـرة ، ونجعـل الآخـرين يقتبسـون من أشعة أعمالنا وصفاتنا .

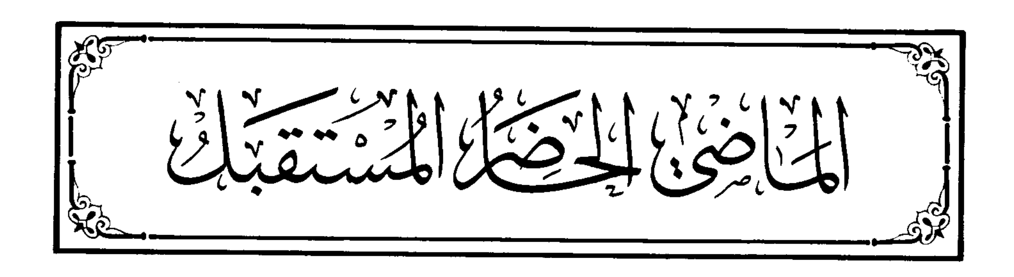
لقد بات من البديهي أن معرفة فوائـد الأطعمـة الصـالحـة ، أو مضــار الأطعمــة المسمومة لا تفيد شيئاً من دون اختيار النافع

والاحتراز من الضار ، بل علينا أن نتناول الطعام النافع ونمتنع عن تناول الأطعمة الضارّة .

على الحكماء والفلاسفة الذين يدّعون وصولهم إلى مدارج الفضيلة ويزعمون أنهم اطّلعوا على حقائق الخليقة أن يقرنوا علومهم بالعمل ، وإذا كانوا يعتبرون أنفسهم غصناً في شجرة (الأحدية) ، أو ورقة في غصن (الحقيقة) ، أو أشعة من شمس (الربوبية) فعليهم أن يجعلوا سلوكهم منسجماً مع ذلك المقام الشامخ ، ويهتمّوا بشؤونهم الذاتية . . .

وإذا لم يعملوا على طبق عقيدتهم ، فليسوا يحرمون السعادة فحسب ، بل يستحقّون العقاب الصارم ، والجزاء القاسي .

إنَّ (علم اليقين) يتضمّن العمل حتماً ، ويدعو إلى التطبيق والتنفيذ . أمَّا الذي يكتفي بالزعم ويقف عند حدّ التصورات والخيالات ، فهو غير واصل إلى مرتبة اليقين ، وغير واثق من علمه !! .



القسم الأكبر من الحيوانات يجهل الماضي والمستقبل ، ويشتغل - بحكم طبيعته - بحاضره ووضعه الآني .

---

(١) مطالعة الماضي ، والتدبّر في الحاضر ، والتأمّل في المستقبل . . . أمور تشغل اهتمام العلماء والمحقّقين وعلماء الاجتماع . إنَّ على الناس الذين يريدون استغلال الفرص ، واستثمار الطاقات ، أن ينسوا الماضي الفائت ، وأن لا يقلقوا على المستقبل الذي لم يحضر بعد ، عليهم أن يركزوا جهودهم وقواهم حول اللحظة الحاضرة ، ويستفيدوا من هذه الفرصة أعلىٰ الدرجات وأتقنها .

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام منقول في (تحف العقول) :

« عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الأيام ثلاثة . فيومٌ مضىٰ لا يُدرَك ، ويَومٌ الناسُ فيه فينبغي أن يغتنموه ، وغداً في أيديهم أملُه » .

ويقول (ديل كارنيجي) :

« أغلقوا الباب الحديدي على الماضي ، وأسدلوا ستاراً فولاذياً على المستقبل الذي لم يوجد بعد ، حتى يتم لكم استغلال الحاضر بأحسن صورة ، وتتمتّعوا عند ذاك بالسعادة » .

وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنَّ كثيراً من الناس يشغلون أنفسهم بالأسف وعضّ أنامل الندم على الماضي ، كما يعانون من قلق شديد إزاء المستقبل . . . هذه الأوهام والتخيّلات قد تُحدق بالإنسان فتملأ حياته قلقاً واضطراباً ومعاناة ، وقد تتصاعد ألسنة الحيرة والقلق فتحوّل الحياة إلى جحيم يُحرق كل شيء . =

إنَّ الحيـوانـات لا تعـرف شيئـاً غيـر الجـوع والعطش ، الحـرّ والبـرد ، وبكلمـة واحـدة : جلب المنـافـع ودفـع المضـارّ الحالَّة . والحيـوانات الأليفـة كالبقـر والغنم ونحـو ذلـك ، والـطيـور الـدواجن وأكثـر الحيوانات البرية والبحرية ، والـزواحف من هذا القبيل .

إنَّهـا تعتبـر من جـانب تـدبيـر شؤون حياتها أضعف الأنواع .

وهناك نوع آخر من الحيوانـات تتعدَّى نـطاق الحـاضـر لتفكـر في مستقبـل أمـرهـا أيضاً .

تعتبـر النحلة والأرضـة من روّاد هــذه المجموعة ، وأمَّا النحل فإنَّه في الواقع مدبّر حكيم ، وفيلسـوف يفكّر في العـاقبـة ، إنَّـه

= وقد يتمادىٰ البعض في تصـوير مستقبـل مجهول وتـزيينه بصـورة جنّة عـالية ، فيتناسىٰ الحقائق ويغفل عن الواقع فتراهم يطيرون في عالم الخيال ، ويحلّقـون في الأجواء الموهومة .

ولكي يصحّح القرآن الكريم الرؤية الإسلاميـة ويؤكّد على مـا ينبغي أن يكون عليه الإنسان تجاه الماضي والمستقبل يقول :

﴿ لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم ﴾ .

سورة الحديد/ الآية : ٢٣ . **الشارح**

يستلهم في أعماله من مخزن القدرة اللّامتناهية ، وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ وأوحىٰ ربُّكَ إلى النحل . . . ﴾ .

لذا فإنَّ النحلة تكدّ وتعمل لا لنفسها فقط ، بل تفكّر في قوت الآخرين أيضاً .

ورغم أنَّ بعض الناس يعتبرون سلوك هذه الطائفة مستنداً إلى الغريزة ، فإنِّي أرىٰ أنَّ الحيوانات جميعاً تمتاز علاوة على الغريزة بشعور ووعي ، ولذا فإنَّ النحل ونظايره يعمل بوعي وشعور ، ولنا على إثبات ذلك أدلَّة وبراهين ليس هنا محلّ ذكرها .

ولكن يمكن القول بأنَّ الحيوانات جميعاً لا تحمل فكرة عن الماضي ، ولا تهتم به . إنها لا تفهم شيئاً عن التاريخ ، ولا عن مرور الأيام والأعصار . بل إنَّ النسيان جزء من كيانها .

أجل ، إنها تستفيد من التجارب الماضية بعض الخبرات ، وتكتسب بعض العبر ، ونجد عدداً ضئيلاً منها يتألم لفقد الزوج والصاحب والرفيق لبعض الوقت !!

أمَّا النوع الإنساني ، فإنَّه استناداً إلى مواهبه وعلى أثر التربية التي يتلقّاها من البيئة ، والمدرسة ، والمجتمع ، ينقسم حسب الأزمنة الثلاثة إلى ثلاث طوائف :

١ ـ فالأحمق يتحدث عن الماضي فقط . . . يقضي عمره بنقل وسماع أساطير عن عنتر وعبلة ، وبطولات فرسان الأساطير الخرافية ، إنَّه يتغنّىٰ بأمجاد آبائه وأجداده ، ويُرضي خاطره بتلك فقط .

٢ ـ والكسلان يتحدث عن المستقبل فقط . . . إنَّه يحدّثك ويعدك بما سينجزه من مشاريع في المستقبل .

٣ ـ أمَّا رجال الواقع فإنهم يهتمون بالحاضر ، ويجعلون شعارهم العمل والجدّ . هؤلاء يسعون وراء هدف سامٍ ، ويغتنمون الفرص للعمل وأداء الواجب الإنساني . لا تشغلهم الأيام السعيدة أو المؤلمة الماضية لهم ولأسلافهم ، ولا الطموحات والآمال المستقبلية عن العمل والاجتهاد .

بل ، إنَّهم يستفيدون من عبر ومواعظ التاريخ ، ويعملون لضمان سعادتهم في

المستقبل ، ويخططون لحياتهم وفق شعار (إنَّ الوضع الحاضر وليد الماضي ، وصانع للمستقبل) .

والقرآن الكريم يؤكّد على هذا السلوك فيقول :

١ ـ من الماضي : العبرة والتفكّر :
﴿ فاقْصُصِ القَصَصَ لعلَّهم يتفكَّرون ﴾[1] .

٢ ـ ومن الحاضر : الجدّ والجهد :
﴿ وأنْ ليسَ للإنسانِ إلاَّ ما سعىٰ ﴾[2] .

٣ ـ ومن كليهما زادٌ لضمان السعادة في المستقبل :
﴿ وما تُقدّموا لأنفِسكم من خير تجدوهُ عند الله ﴾[3] .
﴿ والعاقبةُ للمتَّقين ﴾[4] .

---

(١) سورة الأعراف / الآية : ١٧٦ .
(٢) سورة النجم / الآية : ٣٩ .
(٣) سورة البقرة / الآية : ١١٠ .
(٤) سورة الأعراف / الآية : ١٢٨ .

وبصورة موجزة فإنَّ القرآن الكريم ، جمع بين راحة الجسد وضمان سلامة الأفكار وراحة البال في هذه الآية :

﴿ لكَيلا تَأسَوْا على ما فاتَكم ولا تَفْرَحُوا بما آتاكم ﴾[1] .

لا تتأسفوا على الأزمنة الماضية ، ولا تفرحوا بالفوائد الدنيوية والمادية ، فإنَّ كليهما يمنعان عن قيامكم بواجبكم ، ويؤدّيان إلى تعب الروح والجسد . اهتمّوا بالعمل وأداء الواجب فقط ، واضمنوا السعادة الأبدية، وانتظروا المزيد من الأجر والثواب .

* * *

وهناك من يسيء استغلال مفهوم (عليك بالحاضر) فيخدع نفسه قائلاً : انسَ الماضي ، ولا تشغل بالك بالمستقبل ، وجّه همّك نحو اللذة والترف ، واصرف عمرك في الطرب واللعب ، وكأنَّ المقصد الأهم هو الإنفلات والتفسّخ وعدم

---

(١) سورة الحديد / الآية : ٢٣ .

الالتزام بالقيم والمُثُل العالية .

إنَّ السبب الرئيس لكسل هؤلاء وضعف إيمانهم هو الجهل والغفلة ، ولقد صوّر الشاعر هذه الفكرة في بيت من الشعر ، لا نعلم إنْ كان ينتمي إلى هذه الطائفة المسكينة التي تخدع نفسها أم أنه من ذوي اليقظة والوعي :

ما فاتَ مضىٰ ، وما سيأتيك فأين ؟
قُم فاغتنم الفرصة بين العدمين

ويقول الدكتور ماردن :

« السعادة تقوم على ثلاثة أسس : نسيان الماضي ، واستغلال الحاضر ، والأمل بالمستقبل . وهذه الأسس الثلاثة ترتكز على قاعدة أقوىٰ هي : الإيمان بالله .



إصلاح النفس

قال تعالى :

﴿ وإنّ لكم في الأنعـام لَعبرةً نُسقيكم ممّـا في بطونـه ، من بين فـرثٍ ودمٍ لبنـاً خـالصـاً سـائغـاً للشـاربيـن﴾[1] .

لقد أودعت أجهزة الإصـلاح والتصليح في باطن كل شخص ، وكل شيء!!![2] .

---

(١) سورة النحل / الآية : ٦٦.

(٢) كيف نصلح أنفسنا ؟!

لقد اهتم الحكماء الإلّهيون والعرفاء الاماميون ، منذ فترة طويلة جداً، بموضوع النفس ، وعالجوا الطرق والوسائل المختلفة التي تأخذ بيد البشرية إلى إصلاح الذات ، وتحقيق الهدف السامي في الحياة وهو الوصول إلى مقام الإنسانية.

إنهم اقتبسوا هذه الأساليب والطرق من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم ، والأئمة الأطهار عليهم السلام : فكتب الحديث طافحة بالطرق المؤدية إلى تهذيب النفس ، وتربية الأفراد، وصقل مواهبهم لإيصالهم إلى سُدّة الفضائل والمكرمات . ولكن يا للأسف، فان الجهل بارشادات هؤلاء القادة العظماء جعلنا ندور في دوّامة من الحيرة والإرتباك.

إن المدنيّة الأساسية لمجتمع ما تكمن في إصلاح ذلك المجتمع ، ولا يخفى أن للاسلام دوراً مهمّاً في هذه المدنيّة ، إذ إن ميدان الحضارة الإسلامية أوسع بكثير=

إنكم ترمون الزجاجات المكسورة بعيداً كل يوم ، وتتخلّصون منها بإلقائها مع القمامة والنفايات . . . ولكن الآخرين يجمعونها بهمّة وجدّية ، ويحرصون على إزالة الأوساخ والقذارات منها .

=من سائر الحضارات .

من الممكن تقسيم شبابنا ، والأمة بصورة عامة ، الذين يعيشون في هذا العصر إلى ثلاث مراحل نفسية وثقافية :

١ ـ الاغتراب الكامل عن الثقافة الإسلامية الأصيلة .

٢ ـ الجهل بأسس التعاليم الإسلامية .

٣ ـ عدم وضوح الرؤية حول المستقبل الإنساني .

ولكن الإغتراب عن الثقافة الإسلامية الأصيلة يستند إلى أن الأمة تجهل تراثها ولا صلة لها بكتابات العلماء والفقهاء والمحقّقين والعرفاء والفلاسفة الإسلاميين . انهم لم يستفيدوا من تلك الآثار شيئاً . وإذا كانت بعض هذه الآثار ترجمت الى اللغة الفارسية ، فان الغالب على المترجمين أنهم لم يستطيعوا أن يترجموا جميع ما ورد فيها بدقة ، ولم يوفقوا لبيان المصطلحات والمفاهيم العميقة بلسانٍ يفهمه عامة النّاس .

لذلك فان أغلب الأفراد بقوا غرباء عن الثقافة الإسلامية الأصيلة ، وراحوا يشعرون بنوعٍ من التخلّف ، وتصوّروا أن ما يبدو لهم اليوم باسم الحضارة الغربية هو الثمين والقيِّم ، وغيره لا يملك قيمة أبداً .

من هذا المنطلق الخاطىء انبهر المفكرون والمثقفون من أبناء أمتنا تجاه عالم الغرب، واصبح الإنشداد نحو المدنية الغربية أمراً مستحسناً وموضة العصر .

أما المادة الثانية فهي جهل الناس بأسس التعاليم الدينية . وهنا يجب القاء القسط الأكبر من التبعة على عاتق المفكرين .

لقد استغل بعض رجال الدين عواطف الناس، ومشاعرهم النقيّة ، واستخدموها للإنتفاع منهم ، وامتصاص جهودهم وآثارهم . . . لقد شغلوهم بما ليس من صلب الدين ولا جوهره ، وعلى سبيل المثال وجّهوا كل طاقاتهم وجهودهم نحو المستحبات ، إلى درجة أنهم تناسوا الواجبات وغفلوا عنها . =

إنَّ مـا يعتبـر فـاقـداً للقيمـة في أنظارنا ، يعتبر رأس مال، ومن المواد الأولية لمعمل الصناعات الزجاجية !!

هذه الزجاجات المحطّمة ، والقناني المكسورة ، التي لا قيمة لها ، يُذيبها

= وهنا لا بأس بأن نورد المثال الآتي :

إن الجانب الأساسي من السيارة هو محركّها ومقودها ، فإذا غفل السائق عن هذين الركنين الأساسيين وركز اهتمامه على مقاعد السيارة ، ومظهرها الخارجي، وتنظيف الدواليب ، وتغليف الأبواب الداخلية ، فان السيارة ستصاب بالعطب والعطل ، وإذا باللحظة الحاسمة تكشف عن تهرّؤ المحرك وخروجه عن حيز الإنتفاع .

إذا ركّز العلماء والوعّاظ اهتمامهم على المستحبات ، وتناسوا الأسس الأصيلة للإسلام ، وهي العدالة والصدق والإستقامة وحفظ الأمانات ، فان الأمة ستتعرض للسقوط والإنهيار .

وهذا هو السرّ في تركيز القرآن الكريم والسنة المطهرة على أساس الدين ، لا المستحبات .

لو فرضنا إنساناً يقوم بزيارة المراقد المطهرة كل يوم ، ويشتغل كل يومه بتلاوة الأدعية ، لكنه لا يلتزم بالصدق والعدالة والأمانة ، فان النصوص الدينية لا تعتبره من جملة المسلمين حقاً .

نستنتج من ذلك أن الجهل بالتعليمات الدينية يوجّه ضربات قاسية نحو إصلاح النفس ، ويهدم السلوك التكاملي للإنسان .

أما المادة الثالثة فهي الغموض الذي يكتنف مستقبل البشرية .

يقول القرآن الكريم حول هذه النقطة : ﴿ **وما تدري نفس ماذا تكسب غداً** ﴾ ، وهو في حد ذاته حافز نفسي لتحرك الإنسان نحو المستقبل الأفضل . إذ أنه يجدّ ويبذل الجهود الممتازة لاستقلال شخصيته والحفاظ على الاعتماد بالنفس والثقة بالذات . . . انه يؤمن بذلك أن صناعة المستقبل الجيّد بيده ، ولذلك فهو يخطو نحو الأفضل دوماً .

وهنا ينبغي أن نعترف بأن الدين الإسلامي لو كان مطبّقاً بصورة =

أصحـاب مصانـع الـزجـاج، ليصنعـوا منهـا أدوات جديدة ويبيعوها بأسعار غالية .

انتبهـوا قليـلاً إلى القـدرة الخـارقـة للصـانع المتعـال ، التي أودعها في طبـايـع الموجودات .

انكم ترمون النفايات خارج البيت كل يـوم ، تحملون التراب والـرماد ، والأطعمـة الفـاسـدة ، والغـذاء البـائت ، ومسـوّدات الأوراق ، وأعقاب السجـايـر ، والقشـور، وسـائـر الأوسـاخ إلى الـرصيف لتحملهـا سيارات البلدية بعيداً عن دوركم ، تحملونها بحـذر ويقـظة كي لا تتلوثـوا بميكـروبـاتهـا الخطرة ، وتدفعون المبالـغ الكثيرة لإخـراج القـذارات من (بـالوعة) البيت ، لتنقـل إلى

= صحيحة ، لكان باعثاً على التحول ، والتطوّر ، ولكان بانياً لأسس التكامل .

وذلـك لأنـه يتضمن مجمـوع القـوانين التي تُـرسي دعـائـم الـوحـدة الاِجتماعية ، وتقيم الحضارة الرصينة ، وتحفظ الشباب من الاِنحدار في هوّة الرذائل والذنوب .

لكن مـا يؤسف له أن الـذين غصبوا الخلافة الإسـلاميـة ، وتسلّطوا على زمـام الأمـور طوال الأجيـال الماضيـة وجّهوا أقسىٰ اللكمـات الى روح الإسـلام بسلوكهم المنحرف ، ودنّسوا الوجه المشـرق إلى درجة غيّبـوا الدين الإسـلامي الحنيف خلف غيوم الانتهازية، وحـبّ الجاه، والأنانية، والإثرة ، والمصالح الشخصية .

وهـذا مـا أدى إلى اعـراض الشبـاب عن الإسـلام، وإقبـالهم على المـذاهب المادية .

الشارح

الصحراء أو يستفاد منها كسماد للبساتين.

ولكن هل تعلمون أن ذرّة صغيرة منها لا تذهب هدراً، بل تحوّلها الأشجار والنباتات بفضل القدرة التي أودعها خالق الطبيعة فيها إلى فواكه جميلة، وثمار يانعة ...

هذه النباتات تحوّل النفايات والقذارات إلى أزهار زاهية المنظر، وحديقة غنّاء، وبساتين جميلة !!!

إنّها تصنع النعم الجمّة للمجتمع البشري، والحيوانات، على حد سواء.

حتى الأجساد المهترئة، والهياكل المتعفّنة تتغيّر ماهيتها بواسطة النباتات إلى مداد معطرة وطيّبة المذاق، ونافعة.

أجل !!

فقد أودعت أجهزة الإصلاح في باطن كل شخص، وكل شيء.

* * *

ألا ترون كيف أن الصانع الحكيم يُخرج من بين الدم والفرث والمواد الباعثة على التقزز والاشمئزاز في جوف الأم، لبناً طيب المذاق، سائغاً طاهراً، يُعتبر أفضل الأطعمة للأطفال الرضّع ؟!

هذا الحليب الذي يغطّي حاجة الحيوانات في إرضاع صغارها، ويزوّدنا بأنواع الزبد، واللبن، والجبن، والقشطة.

جلّت قدرة الباري، وعظمت خلقته... حيث أودع هذا التأثير الكيمياوي العجيب في أثداء الأمهّات من بني الإنسان، وسائر الحيوانات.

* * *

مثل هذا التحوّل والتغيير الطبيعي تجده في سلوك الأشخاص الخيّرين، ورجال الأخلاق الفاضلة والسلوك الممتاز.

إن المصلحين في المجتمع، رغم كونهم أعضاء في لجنة القوى الوهمية والغضبيّة والشهوية، تترشح منهم صفات ممتازة وخصال حميدة، فيصبحون نماذج للكمال البشري.

من الصعوبة بمكان أن يعيش الإنسان في بيئة مليئة بالأبالسة، مشحونة بالوحوش والسباع، منغمسة بعبّاد الشهوة وطلّاب الهوى وأتباع النفس الأمّارة بالسوء... ويكون في الوقت ذاته محتاجاً إلى وجودهم والتعايش معهم، فلا تؤثر فيه

وساوسهم ، ولا تجرفه صفاتهم الدنيئة ، بل يقتبس من وسط ذلك الفضاء الملوّث والجوّ المسموم، ومن أعماق تلك البؤرة العفنة درس الإنسانية ، ويتلو (رسالة الإنسانية)، ويشقّ أستار الجهل السميكة وحُجب الفساد، فيسير وراء لمعة الحقيقة ، وقبسة الهداية ، فيستنير بنور الهدى والصلاح والرشاد.

لا شك أن ذلك ليس عملاً هيناً. . .

إنه يحتاج إلى نبوغ، ومهارة.

يتطلب دقّة، وتفوّقاً.

يستلزم عقلاً واعياً، وإيماناً عميقاً!!

إن مصنع الأَنسَنة (صياغة الإنسان صياغة كاملة) هو الذي يوجد من تركيب الطبائع المختلفة، موجوداً معتدلاً جميلاً. . .

وإن لطف الصانع الرحيم الكريم هو الذي يخرج من بين جماهير البهائم ، إنساناً يملك صفات الملائكة.

وكذلك هؤلاء الشبّان الطاهرون الذين يعيشون في بيئة فاسدة، فانهم رغم شبكات الفساد والدعارة، ورغم الدعايات المليئة بالاِنحراف والضلال. . . . يختارون العقيدة الصحيحة ويلتزمون بالسلوك

المستقيم، ويسيرون في جادّة التوحيد والصراط المستقيم..

هؤلاء لا يقلّون أهمية عن الحركة الإصلاحية المستمرة في الطبيعة، بل يُشبهون الطبيعة في الفصل بين الخير والشر، والصالح والفاسد.

إنهم يبدلون الفاسد إلى صالح !!

وهذا شأن العقل المدرك، والذكاء الفطِن... فانه يستطيع الإفادة من كل الإمكانات لصالح الهداية والصلاح.

أجل !!

فقد أودعت أجهزة الإصلاح في باطن كل شخص، وكل شيء.

* * *

لكن ذلك كله يتوقف على الفتوّة والشَّهامة !!

يحتاج إلى رجل ينازل الأبطال، ويتحدّى منافسيه العنيدين، وينتصر على الأعداء الخارجيين والخصماء الداخليين.

ليس كلّ من يحمل المظهر الإنساني رجل هذا الميدان !!

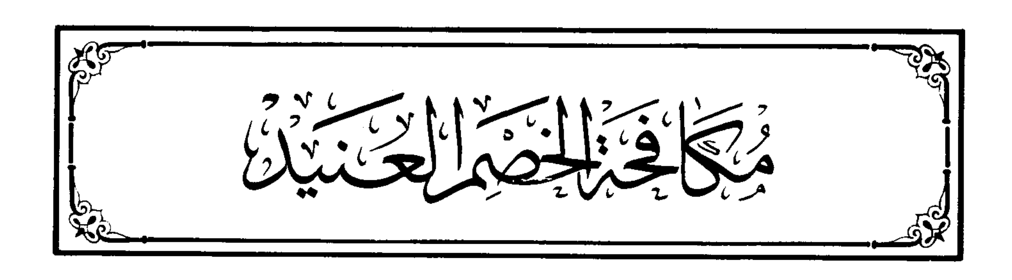
وليس كـل بطل كفؤاً لمبـارزة عفريت النفس الشرّيرة!!

بـل ان الرجـال الـذين وهبـوا أنفسهم لله ، وتخلقوا بالأخـلاق الملكوتيـة، وتنكّروا لزينة الحياة الدنيا وسفاسفهـا، هم القادرون على التخلّص من الشياطين والأبالسـة، كي يظهـروا على حقيقتهم النـاصعة، ويحقّقـوا سعادة الدنيا والآخرة.

وفي هذا المجال فان الحـرّ بن يزيـد الرياحي نموذج فذّ !!

هـذا الـحـرّ الـواقعـي ، والـفـتـى الشهم ، والفـارس المغـوار . . . انفلت من أسـر الثروة والجـاه والريـاسـة ، وتخلّى عن مجتمع الأبالسة وبيئة العفاريت ، وتنكّر لكل صفـات الوحـوش المفترسـة ، وراح يجري بهمّة ونشاط نحو معسكر الإنسانية ، وبذلك خلّد لنفسه الذكر الطيّب مدى الأجيال.





مكافحة الخصم العنيد

قال تعالى :

﴿يا أيّتها النفسُ المطمئنة * آرجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّة * فآدخلي في عبادي * وآدخلي جنّتي﴾[١] .

إن الجسم الإنساني وإن كان معّرضاً لأخطار أعداء الصحة واعتدال المزاج والحياة ، وتتهدّده الميكروبات الحاملة للأمراض المختلفة ، والأوبئة المزمنة الحادة . . . إلَّا أنَّ العدو الألدّ للصحة ، والمُفسد للأعضاء والجوارح، وعلة العلل لأغلب الأمراض مادة شهية تسمى بـ (الكوليسترول) التي تتولد من الشحوم الحيوانية[٢] .

---

(١) سورة الفجر / الآيات ٢٧ ـ ٢٩ .

(٢) يتطرّق المؤلف العارف والمحقّق الخبير إلى بيان الأخطار الأساسية التي تهدّد سلامة المزاج ، والتي تحصل على أثر غفلة الإنسان عن الوقاية التي هي خير من العلاج . =

هذه المادة ليست قابلة للهضم ، في حين أن جميع المواد الدسمة تُجتذب في الأمعاء الدقيقة، والأثني عشر بواسطة بعض الغُدد المفرزة .

= ولما كانت رعاية الصحة واعتدال المزاج من الأمور الضرورية في حياة الإنسان ، فإنه ينبغي التعرّف على النسب الصحيحة لمكوّنات الدم وسائر الأجهزة والأنسجة في الكيان الإنساني . وفي سبيل التعرف على هذه الحقيقة فان المؤلف العارف المحقّق يمثّل بأحد الأعداء الألّداء في داخل الجسم ، ألا وهو (الكوليسترول)، إنه عبارة عن الدسم الذي يستقر في شتى أنحاء البدن ، فيسبّب أضراراً كبيرة للدم والكبد والمعدة.

إذا ازدادت نسبة (الكوليسترول) في الدم، فان الشخص يصاب بالسكتة القلبية ، ويودّع هذه الحياة.

وإذا استقرت هذه المادة في الكبد، فانها تؤدي إلى تعطيل الكبد قطعاً.

وإذا أخذت طريقها نحو المعدة ، فانها تسبب اختلالاً في الجهاز الهضمي بلا ريب.

نستطيع القول بايجاز : إنها تدمّر وتهدم كل ناحية من الجسم تجد طريقاً اليه. لذلك فان الأنبياء والأولياء كانوا يراعون الحذر واليقظة ويلتزمون بالدقة في طعامهم وشرابهم .وكانوا يمتنعون عن الإفراط في الأكل والشرب، كي لا يقعوا فريسة هذا العدو اللدود.

إن القرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة حيث يقول:

﴿ **كلوا واشربوا ، ولا تُسرفوا**﴾.

وهذا موضوع مهم جداً ، فان رعاية الإعتدال في تغذية الروح والجسد من الأمور الضرورية . وقد طفحت كتب الحديث بنصوص تؤكد على هذا الجانب ، فلا إفراط يؤدي إلى التخمة ، ولا تفريط يؤدي إلى الضعف والعجز عن القيام بالنشاط اللازم للأعمال اليومية.

إن الحذر من الغذاء الضار ليس مقتصراً على الجانب المادي والعضوي ، بل أنه لازم في الجانب المعنوي والخُلقي أيضاً .

فكما يجب مراقبة مقتضيات سلامة المزاج ، كذلك يجب رعاية موجبات =

عندما يصل (الكوليسترول) إلى أعماق الشعـر ، يلحق الأذى بجهـاز الـصبـاغـة فيـه ، ويجعل الشعـر أبيض ، وعندما يستقر في بَصلة الشعـر فـانـه يمنـع من نـمـوّه وإنباته ، ويسبّب تساقط الشعر.

=سلامة الروح.

إن مـا يدعـو للإستغـراب أن الأشخـاص الـذين يهتمّـون بـالشـروط الصحيـة لأجسـامهم ، ويعيرون الإهتمـام البالـغ للبيئة التي يعيشـون فيها لتكـون سـالمـة من الأمراض والأوبئة الفتاكة . . . لا يبذلون جزءاً من مائة جزء من ذلـك الإهتمام تجـاه سـلامـة أرواحهم ونفـوسهم . إنهم لا يحفـظون أنفسهـم بمنـأى عن الـكـلام البذيء ، ويرتكبون الذنوب والمعاصي دون مبالاة.

انظروا إلى الحديث الآتي كيف يصوّر هذا الواقع :

« عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : مالي أرى الناس إذا قرّب اليهم الطعـام ليلاً تكلّفوا إنارة المصابيح ، ليبصروا ما يدخلون بطونهم ، ولا يهتمون بغـذاء النفس بـأن ينيروا مصـابيح ألبـابهم بـالعلم ، ليسلمـوا من لـواحق الجهـالـة والـذنـوب في اعتقاداتهم وأعمالهم؟!».

هذا فيما يتعلّق بالحمية من الجانبين : الجسدي والـروحي . وأما فيمـا يتعلّق بالقمح والشعير غير المنخولين ، فان الأطباء يقولـون : إن الغلاّت مغلّفـة بقشر رقيق يحتوي على الفيتامين B ، وهذا له دور فعال في سلامة الجسم.

وعلى سبيـل المثال فـانّ مرض التـواء المفاصـل وارتخاءهـا يحصل على أثـر الإضطرابات العصبيـة والمعديـة والقلبية ، وقـد ينتهي الى الموت . . . وهـذا يكون نتيجة انعدام الفيتامين B من الطعام .

إن النتـائج العلميـة التي توصـل إليهـا الأطبـاء والعلمـاء عن طـريق التجـربـة والإحصاء والمتابعة ، حصل عليها الأولياء العظام عن طريق الوحي والإلهام .

يقول سويد بن غفلة : كنت حاضراً عند علي عليه السلام وقت الطعام فـرأيته جـالسـاً على مـائـدة ، وفي يـده رغيف أرى قشـار الشعيـر في وجهـه ، فتـألمت لذلك ، واعترضت على الخادمة لعدم اهتمامها بأمر أمير المؤمنين ، ورعاية كبر سنـه وضعفه ، وقلت لها : لماذا لا تنخلون الشعير لـه حتّى يكون مليئـاً بالقشـور ؟ فردّت =

إنَّه يسبّب الحصى في المرارة ، ويُضعف الكبد ، ويؤدي في نهاية المطاف إلى الضيق في جدران الشرايين وتصلّبها ، وضغط الدم ، وضعف القلب ، والشلل، وعشرات الأمراض المستعصية الأخرى.

كل هذه الأمراض ، والسكتة القلبية ، والموت الفجائي .. آثار للحملات الظالمة (للكولّيسترول) !!

لكنه في نفس الوقت مكافح قوي في مقابل السموم المهلكة وفي مواجهة الأعداء والخصوم ، وهو ضروري لصحّة الإنسان وسلامته .

إنَّ الشرط اللازم للإستفادة من هذا الصديق الجاهل، والولد العنيد هو مراقبته

= عليّ (فضّه) قائلة : هو الذي أمرنا بذلك ، ومنعنا أن نصنع خبزاً من شعير منخول.

يقول سويد : عُدت إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وشرحت له الحوار الذي دار بيني وبين الخادمة ، فقال : هذه سنّة رسول الله صلى الله عليه وآل وسلم ، ثم قال:

«بأبي وأمّي من لم يُنخل له طعام».

* * *

بعد هذا الإستعراض الدقيّق ينتقل المؤلّف القدير والباحث المحقّق إلى عدوّ الروح الفتّاك ، هذا العدوّ الذي هو أخطر من عدوّ الجسم ، ألا وهو النفس الأمّارة ، ويبيّن أهمية إخضاعها لرقابة العقل والدين ، ببيان شافٍ تجده في المتن .

الشارح

بشدّة، وتنظيم الطعام بشكلٍ لا يؤدي إلى طغيانه ، والاِحتفاظ به صديقاً وفياً ، ومساعداً جيّداً.

نعم ، يكمل العلاج في التقليل من تناول الأطعمة الدسمة، خصوصاً الشحوم الحيوانية ، والاِعتدال في استعمال الأملاح ، وعدم الافراط في الأكل والشرب[أ] . . .

والأفضل من ذلك كلّه : شيء من الجوع المستمر!!

قال تعالى : ﴿ **كُلوا واشربوا ، ولا تُسرفوا** ﴾[1] .

* * *

إن العقلاء ، وبالأخص الأنبياء والأولياء منهم ، حيث كانوا يقضون كثيراً من أوقاتهم في الجوع ، ويتناولون الأطعمة البسيطة ، فحكمة ذلك مضافاً إلى مواساة

(أ) قال علي أمير المؤمنين عليه السلام :

«يا حسن، عليك بأربع خصال تستغني بها عن الطب . قال : بلىٰ . قال : لا تجلس إلى الطعام إلّا وأنت جائع ، ولا تقم عن الطعام إلّا وتشتهيه ، وجوّد المضغ ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء» .

المؤلف

---

(١) سورة الأعراف / الآية : ٣١ .

الضعفاء والمساكين ، هذا الجانب الصحي . . .

وإلاّ فإنهم لم يكونوا عاجزين عن الطعام والشراب ، بل كانوا قادرين على ملء بطونهم من ألّذ الأطعمة والأشربة .

يقول إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : « ولو شئت لاهتديت إلى مصفّى هذا العسل ، ولباب هذا القمح » في حين كان طعامه الغالب من خبز الشعير ، غير المنخول .

إن علماء التغذية في هذا العصر يعلمون جيّداً الآثار المفيدة والنتائج الباهرة الموجودة في نخالة الشعير .

وأما الزيوت النباتية فانها وان كانت في حد ذاتها خالية من(الكولّيسترول) ولكنها ما ان تدخل الجسم حتّى تتسبّب في حدوث هذه المادة ، لذا يجب أن يكون استعمالنا للزيوت والشحوم أقلّ من الحدّ الأدنى ، كذلك يجب الِامتناع عن جميع السكرّيات والحلويات الصناعية ، بل وحتّى من جميع الأطعمة المصفّاة .

من جانب آخر يجب إضافة قدرة الجسم على المقاومة ، وزيادة مناعة البدن، وذلك باستعمال الأطعمة المليئة بأنواع الفيتامينات التي تكافح هذه المادة

وتعالجها . . . وأهمها الفيتامين (A , B, C).

هذه الفيتامينات توجد بوفرة في الخبز الأسمر الذي لم يُنخل دقيقُهُ ، وقصب السكر الذي لم تتم تصفيته في المعمل ، والخضروات

كما يجب استعمال سائر الفيتامينات بصورة معتدلة، وهي موجودة في الخضروات والفواكه والألبان.

ما أن تُراعى الموازنة في نسبة (الكولّيسترول) في الجسم، ويُمنع من طغيانها وضراوتها، حتى تصبح هذه المادة الخطرة صديقاً وفياً ، وعوناً جيّداً على إزالة السموم وطرد الآفات.

إن (الكولّيسترول) يكافح أعداء الجسم ، ويناضل من أجل سلامتنا ، وبذلك يضمن لنا الحياة السعيدة المُنعشة !!

* * *

إزاء هذا العدو الداخلي للجسم يوجد عدوّ داخلي للإنسان في جانبه المعنوي . . .

إنه النفس الأمّارة !!

عندما يُفسح المجال لها ، وعندما تنفلت من القيود، تسبّب للإنسان الفساد والهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة ، تبدأ

أوّلاً ، وبأسلوب ليّن ، جرّ الفرد إلى المنطقة الخطرة ، وبعد استفحال أمرها واستحكام مرامها ، تمسك بزمام الأمر، وتصبح كالزوجة السليطة البذيئة حيث تهوي بالرجل إلى هوّة سحيقة ، ودرك أسفل، وهناك الدمار والويل!!!

هذا الموجود الخطر رغم كونه ملازماً للإنسان ، وشريك حياته ، ورغم كونه جزءاً من كيانه . . . لكنه صديق جاهل، وزوجة ماجنة، وزميل مشاكس، وعنيد.

إن ضرره أشدّ بكثير من الأعداء !!!

لذلك يجب إخضاع هذا المنافس الشرس، والزميل المشاكس لسيطرة العقل والدين ، والإمساك بقياد هذا الفرس الجامح بفضل توجهات الأحكام الإلهية.

وكما يمسك الرجل المروّض للفيلة بمطرقة يضرب بها على رأس الفيل ، يجب استخدام الأوامر والتعليمات السماوية بدقّة في ترويض النفس الأمّارة ، وجعلها تسير في مسار الشرع الحنيف.

يجب تحميلها مضافاً إلى القيام بالواجبات، والابتعاد عن المحرّمات، بالأعمال الشاقة التي هي النوافل.

ومن الواضح أنَّها ما ان تتعرف على النصائح الإلهية والأوامر السماوية ، وتتذوق طعم الطاعة والعبودية ، وتنقاد للعقل والإيمان، معتبرة ذلك من واجباتها الأساسية حتّى تصبح صديقاً وفيّاً ، وزميلاً جيداً، وحبيباً . مفضلاً، ومدافعاً قوياً ، يكفي لطرد الشياطين والوحوش عن مملكة الوجود، ويقف بكل جرأة وشجاعة ليعلن بطولته واستعداده لمبارزة الشجعان من الإنس والجن .

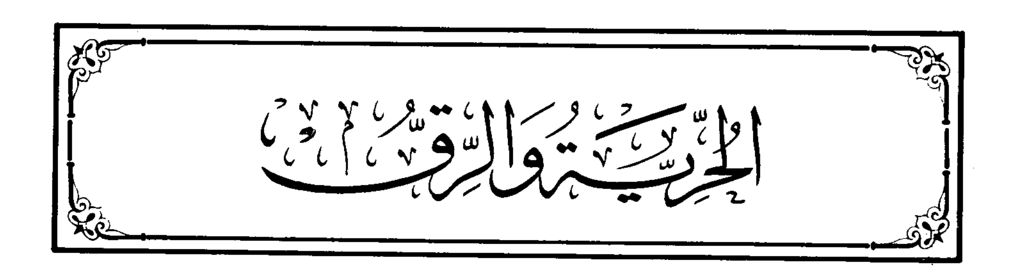
* * *

إنَّها تطرد الأجانب والأعداء عن الساحة بفضل تلك الهداية والإستقامة ، وتصل إلى مقام وزارة العقل، وتسمع هذا النداء الجبروتي من العالم الأعلى بملء قلبها ووعيها :

﴿يا أيّتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربّك ، راضية مرضية * فأدخلي في عبادي * وآدخلي جنّتي﴾[أ] .

(أ) لقد تعرضت كتب الأخلاق إلى بيان مراتب النفس من الأمّارة ، واللّوامة ، والمطمئنة ، والراضية، والمرضية، مع بيان رموزها وأنواع نشاطها، والقصص المتعلّقة بها . ولذا فلم نر من الضروري أن نفصل الحديث عنها في هذا الكتاب .





الحرية والرق

الأعمال التي تصدر عن إرادة مستقلة ، والتي تستند إلى المنطق والإيمان تسمّىٰ (أفعالاً) ، والتي تصدر متأثرة بالغضب والشهوة والعواطف والأحاسيس

---

(١) كيف نحصل على الحرية ؟!

من الشروط الأساسية للتكامل والتعالي : الحرية .

حرية الفكر ، وحرية العمل ، وحرية اختيار الدين ، ولكن بشرط أن تكون الحرية خاضعة لقوانين العقل والدين ، حيث السعادة والفلاح .

إنَّ الذين تأسرهم آلاف الأوهام والتخيّلات ليسوا أحراراً ، بل إنَّهم عبيد مسترقون لتلك الأوهام والتخيّلات . . . الحرّ هو الذي يحطم الأغلال والقيود ويتخلص منها .

إنَّ الذي يتبع الشهوة والغضب يكون عبداً ذليلاً لهما ، لا خير فيه إنَّه يعتبر مجرماً عنيداً .

كما تتفتح البراعم من غصن أهيف في بيئة طليقة ، وظروف مناسبة كذلك الإنسان تتفتّح مواهبه في بيئة حرّة ، وإذا نمت قواه العقلية والإيمانية بصورة صحيحة فإنه لا يخضع لمؤثرات البيئة الفاسدة . إنَّ الذين يتحركون في إطار الغضب والشهوة إنَّما هم عباد هذه القوىٰ الشيطانية لا عباد الله .

أمَّا عباد الله المخلصون فإنَّهم متحرّرون من هذه القيود والأغلال .

يُذكر أنَّ (الإسكندر المقدوني) كان يتمتع بهيبة ونفوذ قويين . وكان لا يمرّ =

وكلمات الآخرين تسمَّىٰ (إستجابات) .

إنَّ حرية الإِنسان تتحقق عندما تكون أعماله كلها (أفعالاً) . أي إن كل ما يفعله ويقوله يكون مطابقاً للعقل ومنسجماً مع الإيمان . أمَّا الشخص الذي تكون أقواله وأعماله وليدة الأهواء والرغبات ، ومتأثّرة بتشجيع الصديق وتحريك العدوّ . . . فإنَّه أسير أحاسيسه وعبدٌ لعواطفه .

إنَّه يعيش حالة من الرِّقّ !!

لنضرب مثالاً بسيطاً للفعل والاستجابة :

= بقرية أو مدينة إلَّا وسيطر الخوف والذعر على قلوب الناس جميعاً . ولكنه مرَّ يوماً بقرية فرأىٰ شيخاً هرماً ينظر إليه بكل ازدراء وتحقير .

تعجَّب الإِسكندر من هذا الرجل الذي لم يؤدِّ واجب الاحترام نحوه وسأله :

لماذا لم تحترمني ، ولم تقم بواجب التبجيل ؟!

فراح بعض الحاضرين يبرِّر ذلك التصرف بعدم معرفة الرجل للملك . . .

فراح الملك يسأله : هل تعرفني ؟!

أجابه الرجل ـ ولعلَّه كان (ديوجانس الحكيم) ـ : نعم ، عرفتك . أنت عبدٌ لعبيدي !! ولا ينبغي لي أن أخضع لمن هذا شأنه .

فسأله الإِسكندر : وكيف ؟!

قال : لأن لي عبدين : أحدهما الغضب ، والآخر الشهوة ، وقد أطلقت سراحهما ، ولكنك الآن عبد مملوك خاضع لهذين العبدين ، فكيف أكرمك ؟!

الشارح

تصـوّروا حيوانـاً يسير في طـريق عـام محمّلاً بحمل ثقيل ينوء بحمله ، ومن خلفه رجل يسيّر ذلك الحيوان بعصا في يده .

إذا قـارنّـا بين هــذا الإنسـان وذلــك الحيـوان نجـد أنهمـا كليهمـا يسيـران في الطريق ، لكن سلوك الرجـل نسمّيه فعـلاً ، لأنه ينوي هدفاً صحيحاً ، ويتابع نقصاً معيناً من تحــركــه ، ولا يستنــد إلّا إلى إرادتــه المستقلة ، ولكن سيــر الحيـوان المحمّــل استجـابة منبعثـة من الخوف ، ولـذلك فـإنَّ العمل الصادر منه قسري وجبري .

إنَّ حياة الإنسان زاخـرة بهذه الأفعـال وتلك الاستجابات . . . وكلَّما ابتعد النـاس عن حدود التوحيد ، ومدينته الفاضلة ومثلهـا العليـا ، واقتربـوا من الاتجاه المـادي وعدم الإيمـان ، فـإنَّ الاستجــابـات تتــزايـد في نفوسهم ، ويسرعون الخطىٰ نحو الشقاء .

وهذا ما نشاهده في الأفـراد والشعوب في عصرنا الحاضر ، حيث تبدو آثار الاتجاه الحيواني فيهم أكثر فأكثر .

إنَّ الحســد والمنـافســة ، والخُيـلاء والغرور ، والانبهار بالشهـوة وحبّ الـرئاسـة

أهم عوامل الرقّ والاستجابة . . . بينما تنحصر عوامل الرقيّ والسعادة والكمال في الأفعال فقط .

ذلك أنَّ الفعل ينحدر عن مقام الوجود ، ويستند إلى فعل الحقّ جلَّ شأنه ، وينسجم مع الإرادة الإلـٰهية الجازمة . . . إذن فكله صواب وثواب . على العكس من الاستجابات التي تستند إلى النفس الأمّارة ، وتؤدّي إلى الذلّة والانحطاط ، والهلاك والدمار ، والابتعاد عن المبدأ المقدس الأعلى .

إنَّ الذي ينحصر سلوكه في (الأفعال) هو الحرّ فعلاً !! إذ أنه يستند إلى الحب والعشق الحقيقي ، وهدفه الأسمىٰ هو تحقيق واجبات الإنسانية ، وهذا يصل إلى درجة الكمال في معرفة الحقائق والانجذاب نحو الحق تعالىٰ ، ويصبح موحداً كاملاً . . . وهكذا تظهر صفات الجلال والجمال فيه ، ويصبح مظهراً ربوبياً .

ومن هنا لم يكن للمعصومين سلام الله عليهم أجمعين فعلٌ سوىٰ فعل الله ،

وكانت أفعالهم كلها مستلهمة من جـانب الله تعالىٰ :

﴿ ومـا رمـيتَ إذ رمـيتَ ولـكـنَّ الله رمىٰ ﴾[أ] .

﴿ ومـا ينطقُ عن الهـوىٰ ، إن هو إلاَّ وحيٌ يوحىٰ ، علَّمه شديدُ القوىٰ ﴾[ب] .

ويقول أمير المؤمنين ومولىٰ الموحدين علي عليه السلام مخاطباً ربّه :

(مـا عبدتُـك خـوفـاً من نـارِك ، ولا طمعـاً في جنّتـك ، بـل وجـدتُـك أهـلاً للعبادة) .

ومن البـديهي أنَّ إنسانـاً حرّاً كهـذا ، حيث يصـل إلى هـذه الـرتبـة من الحـريـة والانعتاق ، لا يتأثر بالجنة والنار أيضاً ويحق له أن يقول :

(لـو كُـشِـفَ الـغَـطاءُ مـا ازددتُ يقيناً)[ج] .

(أ) سورة الأنفال/ الآية : ١٧ .

(ب) سورة النجم/ الآية : ٣ و ٤ و ٥ .

(ج) عدم ازدياد اليقين يعني وصوله إلى أعلىٰ درجـات التوحيـد واليقين حيث لا مرتبة بعدها . المؤلف

أو يقول :

(كيف أعبد ربّاً لم أره) .

وهكـذا يُعلن عن اتصالـه بـالحق والحقيقة . . .

من الواضح أنَّ ذات الحقّ جـلَّ وعلا أعـلىٰ من أن تقع ضمن دائـرة مـن الـوهـم والخيـال والتصـوّر ، وأجـلّ من أن تُـدرَك بالحواسّ ، سواء في الدنيـا أو في الآخرة . فـالكـلام إذن في التجلّيـات ، حيث يكـون وجـود هـذا المـربـوب (المخلوق) تجلّيـاً لصفاته . . .

وحيث كـان أعلىٰ وأسمىٰ صفات الله تعالىٰ هو عدم الانفعال والتأثّر بشيء ، وإباء ذاته عن كونها محلاً للاستجابات ، فإنَّ هذا المخلوق لا يتـأثّـر بشيء سـوىٰ إرادة (ربّ الأرباب) .

وهنـا يُزاح الستـار من أمامـه ، وتزول الحـواجز المـادية تمـاماً وتنفتح عين قلبه ، وتنكشف لـه كـل الحقـائق إلاَّ الـذات الإلـٰهية .

إنَّ رؤيـة الله بعين القلب ، مشـاهـدة

لصفاته الإلٰهية في الحقيقة ، ولهذا فإنَّ علياً ، وهو حامل تلك الصفات الكاملة ، ويرىٰ في نفسه الصفات الإلٰهية يقول : كيف أعبد ربّاً لم أره ؟!

كلّ مخلوقٍ يعرف الله تعالىٰ بمقدار اتّصافه بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة ، ويراه بعين القلب !!

إنَّ الصفات الذاتية لله تعالىٰ من العلم والقدرة ونحوهما هي عين ذاته ولا توجد إثنينية بينه وبينها، فلا أحد يستطيع أن يراها أو يعرفها أو يتَّصف بها . . . لكن الصفات التي يحملها الأنبياء والأولياء وبصورة خاصة محمّد وآله عليهم السلام إنَّما هي صفات مخلوقة ، خلقها الباري تعالىٰ ونسبها إلى نفسه ، فكما نقول : بيت الله ، وروح الله ، وخليل الله ، وكليم الله ، وحبيب الله . . . كذلك نقول : صفات الله ، وأفعال الله ، وذاته المقدّسة أجلّ وأسمىٰ من الصفات والأفعال ، ولذلك فإنّنا نسمّيها الصفات الفعلية الإضافية ، ولذا تُقاس درجة معرفة كل مؤمن بمقدار واجديته لهذه الصفات . . .

ومن هنـا كانت معـرفة النفس معـرفـةً للحق .

(مَنْ عَرَفَ نفسَه فقد عَرَفَ ربّه) .

بـل النفس الناطقـة نفسهـا صفـة من صفـات الله تعـالىٰ ، ولــذا ورد على لســان أكابر العلماء :

(إنَّ الصورة الإِنسانيـة أكبر حجّـة الله في أرضه)[أ] .

ولكنّـك ـ أيها المشـرّد التـائـه ـ حيث تستفـزّك أقـوال الآخـرين وأعمالهم من دون منطق متى تستطيـع أن تعبد الإِلٰـه الـواحد ؟ وأين ؟

كـل أقوالـك وأعمـالـك مستنـدة إلى الغضب والشهوة ! !

جميــع نمـاذج سلوكــك منبعثــة من

(أ) هـذه الجملة مشهورة على ألسن العلمـاء ، ويقصدون منهـا أنَّ الصـورة الإِنسانية المصفّاة البريئة من الشوائب ، والمستوفية لنماذج الكمال وصفات الخير ، تحكي عن الله تعالىٰ ، فهي حجة الله في أرضه ، وهل حجـة أكبر منهـا حيث تهدي إلى الله ؟!

فالصورة الإِنسانية أكمل أنواع الصور في عالم المخلوقات .

المؤلف

الاستجابة لتحريض الآخرين وإثارتهم !!

كل ما في تصرفاتك يحكي التأثّر بالآخرين ، والانفعال بتصرفاتهم !!

كيف تكون حرّاً إذن ؟!

أنت رقّ مملوك للآخرين ، وفي أسرهم . . .

وفي هذه الحال كيف يمكنك أن تنال التوحيد الواقعي في رحاب الله الواحد جلّ اسمه ؟!

عندما كان أسد الله الغالب ، مولانا أمير المؤمنين عليه السلام جالساً على صدر عمرو بن عبد ودّ ، يريد أن يحتز رأسه من جسده ، صدرت من عمرو حركة مُشينة تجاه الإمام سلام الله عليه ، فانصرف الإمام عنه شيئاً من الزمان ، ثم قطع رأسه .

عندئذٍ سئل علي عليه السلام عن سبب انصرافه ساعة أجاب : إنَّ قتلي لعمرو إنَّما هو تحقيق لمرضاة الله تعالىٰ ، وإنَّ ما صدر منه كان أمراً فردياً يختص بي فتأنّيت حتى لا يختلط العمل الخالص لمرضاة الله بالعوامل والنوازع الشخصية !!

وهكـذا ينبغي أن يكون السـائـر على نهج علي عليه السلام .

رجـل آخـر بصق على لحيـة سلمـان الفـارسي ، فوضـع سلمان يـده على لحيتـه وقـال : أخي ، إن أنا جُـزت الصـراط يـوم القيـامة واجتـازت لحيتي فلن يضـرّهـا هـذا البصـاق ، وإن لم تؤهّل لاجتيـاز الصراط ، فإنها أحقّ بتحقير أعظم !!

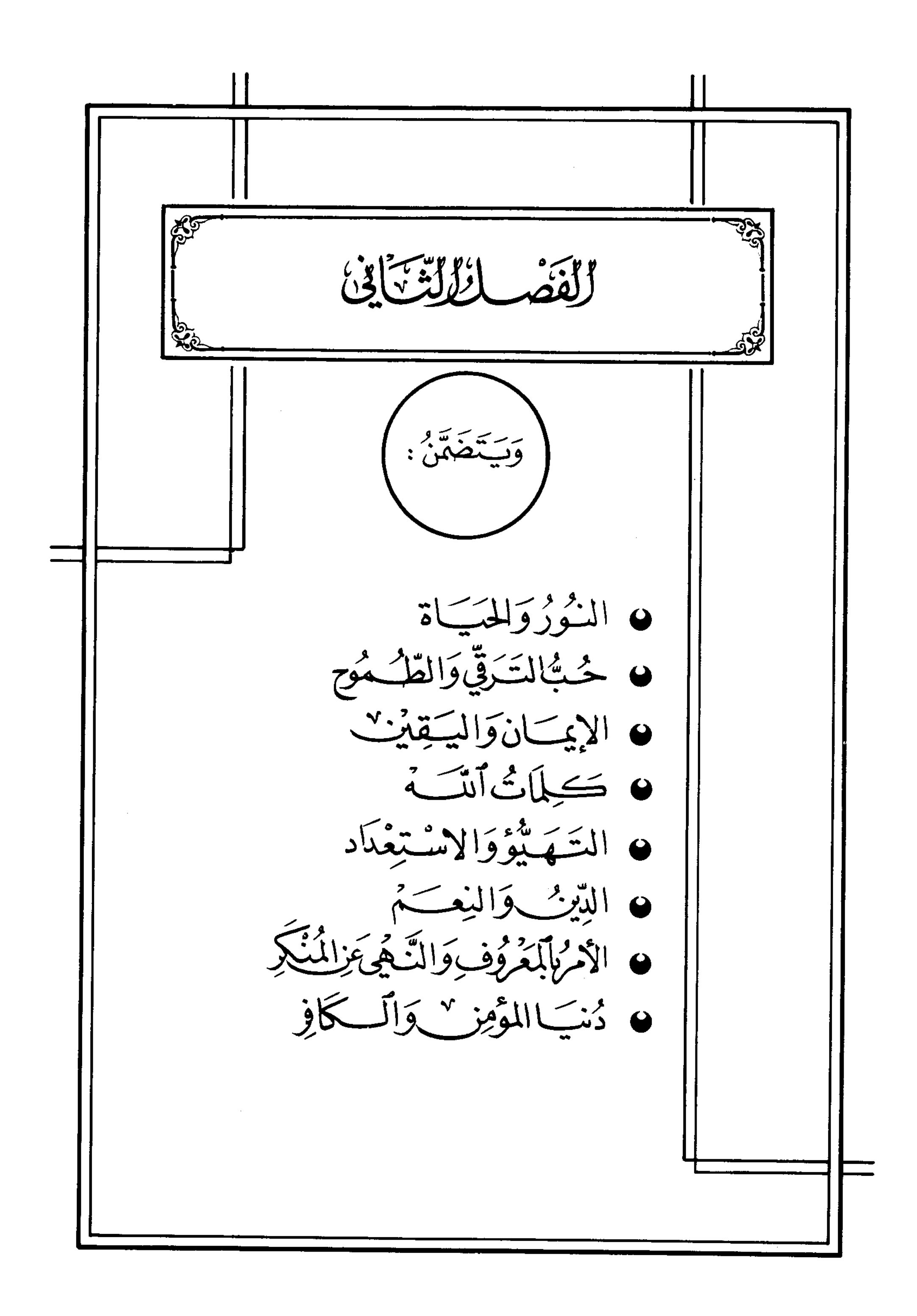
شخص آخـر من الـمؤدّبـين بـآداب الإسـلام كـان راكبـاً فـرسـه يجتـاز بعض الأزقّة ، وإذا بطست مملوء منَ الرماد الحـار يُفـرغ من على سـطح أحـد البيـوت في الزقاق . . . ويصادف الرماد لحظة عبور هذا الـراكب . نزل الـرجل من فـرسـه ، ونفض الرماد عن رأسه وملابسـه ، ثم ركب واستمرَّ ذاهباً في طريقه !!

سـأله المتفـرّجون : لمـاذا لم تعاقب أهل ذلك البيت ؟!

قـال : إنَّ هـذا الجسـد العـاصي يستحق النار ، وإذ اكتفىٰ الله تعالىٰ بـالرمـاد بدلاً من النار عليّ أن أشكر الله تعالىٰ .

هؤلاء نماذج راقية من الإنسانية موجودون في كل عصر وزمان ، وهم مشاعل للهداية ونماذج للاقتداء ، وبهم تنزل الرحمة الإلـهية وتتواصل على العباد .



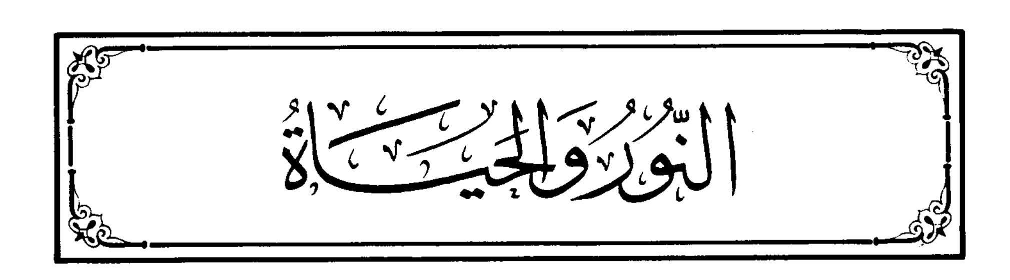


الفصل الثاني

ويتضمن:

- النور والحياة
- حب الترقي والطموح
- الإيمان واليقين
- كلمات الله
- التهيؤ والاستعداد
- الدين والنعم
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- دنيا المؤمن والكافر





النور والحياة

الشعلة المتَّقدة التي تحصل من احتكاك الحجارة بحجر النار ، والضوء المنبعث من الدودة المضيئة ، واللهب المتصاعد من المشعل ، والضياء المنبعث من الشمع ، والأنوار التي تبعثها المصابيح الكهربائية ، التي تضيء ليالينا المظلمة الحالكة . . .

الأشعة الذهبية التي تُطلقها الشمس فتنير العالم نهاراً ، وتدخل إلى كل زوايا هذا الكون الأحدب فتذهب بظلمة الليل البهيم . . .

وحتى الأسماك التي تبعث إشعاعات فوسفورية في قعر البحار وسط ظلمات أمواج المحيطات . . .

كل هذه النماذج من الأجسام المضيئة ، من أين تكتسب ضياءها ؟!

هذه الحجارة ، وهـذا الزيت ، وهـذا المصباح ، وهذه الشمس . . . من أين تأتي بالنور ؟!

هـل إنهـا وجـدت مضيئـة عن طـريق الصـدفـة ، وتميّـزت عن مـا سـواهـا بهـذه الصفة ؟!

هـل الضياء متمـركـز فيهـا ، ومنبعث منها ، أم إنَّ كل الموجودات مـظاهر للشعلة المتوهّجة في عالم الوجود ؟!

أم إنَّ (الله) وهـو (نـور السَّمٰـوات والأرض) هو الذي تجلَّىٰ فيهـا ، وإنَّ أشعة نـور الأنـوار انعكست في هــذه المـرائي ، فأظهرت جمـال المحبوب في هـذه المرائي الصافية الجلية ؟!

لو قلنا : إنَّ هذه الموجودات المضيئة التي تبعث النـور في كـل زوايـا الـوجـود ، والتي تمتـاز بالتقـديـر والاحتـرام في جميـع أرجـاء الكون ، إنَّمـا اكتسبت ذلـك بفضـل مـواهبها الـذاتية وقـابلياتهـا الفرديـة لـم نتعدّ الصواب .

هـذا الحجر الأصمّ البخيـل ، يختزن

الطاقة الضوئية في داخله ، وحين تتوالىٰ الضربات عليه ، يبعث من مخزن تلك الطاقة شعلة مضيئة ، فباستطاعته أن يسلك الرياضات الطويلة ، ويدفع الأجزاء المعتمة والسميكة من ذاته فيتحوّل إلى مرآة صافية تعكس نور الشمس ، ويبلغ بها الصفاء إلى حيث تصبح مصدراً لإضاءة كون بأسره .

وهذا درس أخلاقي يعطيه الحجر لطلّاب التربية والأخلاق وتهذيب السلوك .

لقد كانت الحجارة غافلة في حالتها الأولىٰ عن حقيقة ذاتها ، بل كانت غافلة عن صانعها ومبدعها ، ولكنها عندما صارت مرآة صافية تيسّر لها أن تعرف الحق والحقيقة ، وأن تظهر فيها التجلّيات .

لقد أبدع الباریء المصوّر جلّت أسماؤه كل الصنايع الإمكانية من النور ، بل جعل (النور) و (الوجود) متلازمين متكافئين .

فالنور هو الوجود ، والوجود هو النور . . . في الحقيقة .

إنَّ الوجود الذي وهبه الباري تعالىٰ

بمشيئته وإرادته شعلة من النور ، غير مشوبة بـالـظلمـة ، ولا تـوجـد فيهـا الحجب المـظلمـة . . . ووجـود الشعلة النـاريـة المنقدحة من الصخرة الصمّاء دليل على أنَّ الوجود لا يخلو من النور ، إذ به قوامه .

كلَّمـا كانت كفـاءة الموجـود وليـاقتـه أكثـر ، انعكست فيه أشعـة الوجـود أكثـر ، وكلّمـا حصل لـه التجلّي أكثر ازداد لمعـانـاً وإضاءة لما حوله .

عـالم الوجـود طافـح بـأشعـة المشيـة الإلـٰهية .

كـل فـرد عمــل على تصفيـة نفســه وتخليصهـا من الشـوائب ، فـإنَّـه يجعلهـا مستعـدة لتـقبّـل الـفيض الإلـٰهـي والنــور السـرمدي ، وبـذلك يصبـح مظهراً لصفات الحق ، ويكون وعيه لعظمة الإبداع والخلق أكبر .

والنـوع الإنساني هـو أعـظم مـظاهـر الأنــوار الـربّـانيــة ، وأصفـىٰ المــرائـي السبحـانيـة ، مـع هـذا الفـارق ، وهـو أنَّ الأجسام الأخرىٰ وإن كانت مظاهـر للنور إلَّا أنهـا تعكس الضيـاء على العــالم المـادي

فقط ، ولكن الحقائق البشرية تستطيع إضاءة الصـور والمعاني كليهمـا من أشعـة طلعتهـا البهيّة .

هـل يمكن أن يكون الصخـر والزيت والفتيـل والقمـر والسمـك والنجم والشمس مظاهر للنور ، ولا تكون أنت ؟!

هــل يمكن التصـديق بــأنَّ الجمــاد والنبـات والحيـوان مــراكـز لانتشــار أشعـة التوحيد وتستثنىٰ من ذلك ؟

هـل يُعقل أن لا يكـون لخليفة الله[أ] في الأرض ، هذه الجوهرة المشعّة قسط من نور الوجود ؟!

أجـل ، فـإنَّ القسط الأوفـر من أنـوار الوجود مودعٌ في باطن الإنسان .

إنَّ مركز انتشـار النور في الإنسـان هو المخ ، ويتشكّل هـذا النور بـأشكال وصـور مختلفـة حسب اختلاف الأجهـزة والآلات . فالعين والأذن واللسان وسائر المراكز الحسّية

(أ) إشارة إلى قوله تعالىٰ : ﴿ وإذ قال ربك للمـلائكة إنِّي جـاعل في الأرض خليفة . . . ﴾ سورة البقرة/ الآية : ٣٠ .

المؤلف

مظاهر لهذه الشمس الإنسانية ، شأنها في ذلك شأن التيار الكهربائي ، ومحطة توليد الطاقة حيث تتشكل هذه الطاقة بأشكال مختلفة ، فتارة تبعث الضياء كالمصابيح ، وتارة تبعث الحرارة كالطباخ ، وأخرىٰ تكوي ، ورابعة تستقبل الأمواج . . . وهكذا تتشكل بصور الثلاجة والطباخ والمروحة والمبردة والمكواة والمسجّل ، ولكن الجميع يحكي عن حقيقة واحدة هي التيار الكهربائي .

إنَّ السلسلة العصبية في جسم الإنسان تشبه أسلاك الكهرباء ، فإنها ممدودة من المخ أو المخيخ والنخاع الشوكي إلى جميع أجزاء البدن ، وترتبط بكل الأعضاء والجوارح مادّة إياها بالطاقة .

هذه القوة الحاكية لإبداع الخالق موجودة في كيان كل الموجودات الحية ، ومن بينها الإنسان ، ومحدودة بحدود . . . ولكن الإنسان يستطيع ـ في ظل الرياضة والتدريب ـ[أ] أن يزيح ستائر الجهل ،

(أ) المقصود هو التمارين الأخلاقية ، والتدريب على مجانبة الشهوات وخصال الحيوانات ، وارتداء لباس التقوىٰ والإنسانية . المؤلف

ويتجاوز مراحل البهيمية . ويصبح مصدر ضياء وإشعاع ، ويسلّط الأضواء على ذرّات الوجود في أعماق المحيطات ويطّلع على الأسرار[أ] ، ويتعلم رموز الإنسانية ، وكنه الآدمية ، وبذلك يكون مصداقاً تاماً للنور والإضاءة ، ويضاهي نور الشمس في تلألئها .

« إتَّقوا فراسة المؤمن ، فإنَّه ينظر بنور الله » .

(أ) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إنِّي بطرق السماوات أعلم من طرق الأرض » . وقال رسول الله صلَّىٰ الله عليه وآله بعد أن وضع يده على كتف سلمان الفارسي : « لو كان العلم في الثريّا لتناوله رجال من فارس » .

المؤلف





حب الترقّي والطموح

لا شأن لنا بالناس الذين لا توجد في كوامن ذاتهم رغبة في التقـدّم والترقّي ، ولا توجد دوافع ذاتيّة للنمو والازدهار عنـدهم ، فـإنهم في مصـاف البهـائم ، والجـانـب الحيـواني متغلّب على كيـانـهم ، بـل إنَّ خطابنا متوجه إلى الذين ينشدّون نحو التقدم والتكـامـل ، ويـرغبـون في أن يحلّقـوا في سماء الفضيلة دائماً .

هؤلاء يحسّـون في أعمـاقهم بقـوّة تدفعهم نحو الجد والاجتهاد ، وتحثّهم على النشاط ، ولا يقنعون بأي رتبة أو مقام .

إنَّهم غيـر راضيـن لـمـا يجـري حولهم ، ويصوّبون أنظارهم نحـو المستقبل دوماً ، خصوصاً في حالات البطالة والعـطل فإنَّ الهموم والآلام تسيطر عليهم .

وكمـا قلت مراراً ، فـإنَّ ما يؤسف لـه

أن هؤلاء لا يستـطيعـون استقبـال أوامـر مـرشـدهم الـداخلي ، وغيـر متعـرفين على لسان قائدهم الغيور ، ولذلك فكلّما حصلوا على مـا يريـدون وحقّقوا جـانبـاً من آمـالهم ازدادوا تبرّماً بوضعهم وتضاعفت طلباتهم .

قـد يرغب الفـلّاح الـطمـوح الـذي يعمـل أجيراً في بستـان غيـره في أن يمتلك قـطعة من الأرض بنفسـه يحرثهـا ويـزرعهـا ويحصـل على ثمارهـا دون أن تكون عـائدة لغيره ، ولكنه ما أن يحصل على أمنيتـه هذه حتى يتمنىٰ الحصـول على قريـة بكاملهـا ، ويودّ أن يصبح إقطاعياً كبيراً يعمل الفلّاحون لحسابه .

وما أن تتحقق أمنيته هذه حتى يوسّـع من دائرة أطماعـه ، فيرغب في ضمّ القـرىٰ والإقطاعات المجاورة لملكه .

ثم يفكّر في الحكومة والاستيلاء على السـلطة ، فـيحـلم في الـنيـابـة والـوزارة والأوسمة الرسمية .

إنّـه ينشد ضـالّة ، يبحث عن شيء ، لكنه لا يدري ماذا يفقد ؟!

إنَّ العقل ،وجــوهـر الإنسانية يسوقانه نحـو العلم والعمل ، ويـأمـرانـه بـالحـريـة والتسـامي والترفّـع عن الأمـور الخسيسـة ، والسيـر في جادّة الـطّاعة لله والخـدمة وحبّ الخير للخلق ، لكن نفسه الإبليسية تزيّن لـه الدنيا والشهـوة والرئـاسة والشهـرة والسيطرة والاستيلاء .

إنَّ ذلك يشبه قصة آدم وحوّاء تماماً ، فـإنَّ الخـالق الحكيم نهـاهمـا عن الشجـرة المعلومـة ، وعرّفهمـا أن سعادتهمـا وسعادة ذرّيتهمـا إنَّما هي في عدم الاقتراب من تلك الشجـرة ، فلهما أن يـأكلا من كـل أشجـار الجنة وثمارها ما عدا تلك :

﴿ وقلنـا يـا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُـك الجنّة وكُلا منها رَغداً حيث شئتما ولا تقربـا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾[1].

لكن إبليس أغـوىٰ أبوينـا وفسَّر لهمـا كلام الحق تعالىٰ بغير معناه :

﴿ وقال : ما نهَاكما ربّكما عن هـذه الشجـرةِ إلَّا أنْ تكونـا مَلَكَيْن أو تكـونـا من

(١) سورة البقرة/ الآية : ٣٥ .

الخـــالــدين وقــاسَمَهمــا إنِّي لكمــا لـمِن الناصحين ﴾[1] .

لقد طمع هذان الكائنان الساذجان في سعادة أبدية فخُدعا بكلام إبليس وتنـاولا من الشجرة المنهيّة ، وكانت نتيجة هذه الزلّة أن طُـردا من الجنة ، وابتُليـا بالمحن والشـدائد والمصائب في الدنيا .

* * *

وأخيــراً بعـد أن يصـــل الفــلاّح إلى تحقيق أمانيه المـذكورة يُـدرك أنه كـان أكثر راحـة عندمـا كان فـلاحـاً بسيـطاً يعمـل في مـزرعة غيـره . لأنه عنـدما كـان فلاحـاً كان يتمتع بصحة جيدة ، وكانت حيـاته مغمـورة بـــالسعـادة والنشـــاط . . . كـان يحبّ أهله وأطفاله كما يحب نفسه ، كان يكنّ للجميع الاحترام ويبادلهم الثقة . . .

إنَّـه كان يشـاهد لـطف الإلـٰه في كل حين ، وكـان يستنـد إلى قـــوّة رحيمـة تعلو رحمة الراحمين ، بيده الـــرزق ، يرعـــىٰ

(١) سورة الأعراف/ الآيتان : ٢٠ و ٢١ .

البؤساء والمساكين . . .

كان قويّ البأس ، متكامناً . . . لا ينازع أحداً في شيء ، وإذا ابتُلي بمن يعارضه وينازعه كان سهل التعامل يحلّ نزاعه بتحية حارة أو كلام ليّن يزيل به الأحقاد من الصدور .

ولكنه الآن في مسند المشيخة ، وخلف كرسي الرئاسة ، لا يرتضي أهله وأطفاله ، ويتبرّأ من أصدقائه وأقربائه ، ينظر إلى من فوقه نظرة ملؤها الحسد والبغضاء ، ويعامل من تحته بالكبر والغرور . . .

إنّه يفكّر بالحصول على أصدقاء لهم نفوذ في دوائر الدولة ، ويتستر باسم السياسة ليرسم الخطط الجهنمية ويتخذ الحيل والأساليب الماكرة طريقة ناجحة له .

جلساؤه الآن هم الحكام الظالمون ، والمحامون الغشاشون ، عليه أن يرضي الجميع ، ويجامل قطاع الطرق والخونة . . .

إنّه لا يستلذّ بطعم الراحة ، ولا يهدأ في نومه ، ولا يهنأ .

وتتحطم أعصابه . . . فيحاول أن يهدّئها بشتّى الوسائل ، ليدفع الهم والغم عن نفسه فيلجأ إلى المسكرات بدلاً من اللبن المتخثّر !! وتشتد عليه الأمور فلا يتصور الخلاص إلاّ في الانتحار .

وتكون النتيجة إمّا أن يفتح عينه فيرىٰ أنه قد هوىٰ في وادٍ سحيقٍ للشقاء ، ويستولي الندم على كل وجوده من مشاش رأسه إلى أخمص قدميه ، أو يستمر سادراً في الغفلة والبؤس سالكاً طريق **الهلاك** .

وهذا هو المصير الطبيعي للطموح المتزايد المكرّس للتقدم المادي .

إنَّ القروي المسكين لم يعلم منذ اللحظة الأولىٰ أن تحصيل الثروة والرئاسة إنْ لم يوجّه الوجهة الصحيحة ولم يُصرف في المجال الصحيح فإنَّه سيكون نكبة وشقاءً بدلاً من أن يكون أداة للسعادة .

كان على هذا الجاهل أن يدخل مدرسة الإنسانية أولاً ويتعرّف على قاموسها وأساليبها ، ويتلقّى دروسها من قائدها العظيم أي العقل أو حقيقة الذات .

إنَّ قادتنا من الأنبياء والأولياء عليهم السلام ، والعلماء المتَّقين ، والوعّاظ المتَّعظين كلهم أساتذة هذه المدرسة ، ومعلّمو هذه اللغة . . . انهم مأمورون من قبل الله تعالىٰ لإحكام الصلة بيننا وبين الهداية الباطنية التي تعبّر عن الأحكام والأوامر السماوية .

يقال : إنَّ أرسطو رأىٰ الاسكندر المقدوني يوماً وهو حزين ، فسأله عن السبب .

أجابه الاسكندر : أيها الوزير ، أرىٰ العالم على رحابته يضيق عن أن يكون ميداناً لإرادتي ومتطلباتي ، فلم يبق مكان مهم أو جدير بالاحتلال والسيطرة .

قال له أرسطو : اعلم أيها الامبراطور ، أنَّ الدنيا كلها محدودة من حيث الزمان والمكان ، عمرها قصير وملكها قليل ، وحيث علَتْ همتك وازداد طموحك ، فوجّه همك نحو تسخير العالم الباقي حيث لا حدود ولا فواصل ، وحيث البقاء والخلود .

ففي الحقيقة ، يجب على الإنسان أن يسير في طريق التكامل ويطوي المدارج العالية ، ولا يكتفي بالمراتب الدنيا ، بل يطمح إلى الرقيّ ويواصل مسيرة التقدّم حتى يحصل على السعادة النهائية .

ولقد قال أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء :

« مَنْ تساوىٰ يوماه فهو مغبون ، ومن كان أمسُه خيراً من يومه فهو ملعون » .

فيا طائر عالم الإمكان ، حلّق في أجواء الإنسانية ، ويا فارس حلبة الكمال . . . أسرِعْ في هذا الميدان ، حتى تنال ما تستحقّه ! !

إنَّ مقامك اللائق بك هو (شجرة طوبىٰ) و (سدرة المنتهىٰ) ، فلا تقصر همّك على هذا الكوخ المنحطّ الذي يسمّىٰ بالأرض ، وخلّص نفسك من حصار القفص الضيّق الذي لا يتناسب معك .

ما أشبه قصّتنا بقصة ذلك النسر الصغير الذي سقط من وكره العالي إلى الأرض فجاء غراب وحمله إلى عشّه المتواضع واهتمَّ بالمحافظة عليه

وحراسته . . . ولكن ما أن بلغ النسر الصغير مبلغ الكبار حتى عرف أنه لا ينتسب إلى جماعة الغربان ، بل إنَّه من سلالة ملك الطيور ، فتنكّر لهذا الوكر الموقت والرعاية الأبوية المستعارة ، وحلّق في الأجواء العالية ، فبلغت همّته إلى حيث صار الملوك والقوّاد يتباهون به ويجلسونه على أكتافهم وسواعدهم !!

وأنت !!

أنت ، النسر المحلّق في عالم الوجود . . .

هبطت من قاب قوسي الجبروت ، أو أدنىٰ عالم اللاهوت ، إلى مرحلة الناسوت . . . التقطك غراب النفس الأمّارة !!

وقامت الدنيا بدور الرعاية والأمومة ، وسوّلت لك ، وزيّنت لك الأمور ، فمنعتك من التحليق في سماء المعالي والنظر إلى هذه المناظر الخلاّبة من الأعلىٰ .

إنَّ الطائر الذي من شأنه التحليق نحو السماء من الظلم أن تحبسه في قفص ضيّق ، أو تربط رجله بحبل وتشدّه إلى

الحضيض !!

إنَّ النـظرة العاقلة ترجـح الموت على حياة كهذه .

إنَّ مقام طائر الإنسانيـة أسمىٰ من كل شيء ، بــل لا يلحقــه لاحق في السمــو والعظمة ، فلماذا تجرّه إلى الهاوية ، وتقصّ جناحيه ، وتسكنه الحفر المظلمة والخـرائب التي تليق بالبوم ، وتقرن بينه وبين العفاريت والسَّعالى ؟!

هذا الطائر ذو اللحن الجميل يأبىٰ أن يكون جليس الغراب ونعيقه . . . دعه يبعث الألحان الملكوتية !!

واترك له المجال للتحليق . . .



الإيمان واليقين

قال تعالى :

﴿ لا تجدُ قوماً يُؤمِنون بالله واليوم الآخر يُوادّون مَنْ حادّ اللهَ ورسُولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أوْ عَشيرتَهم ، أولئكَ كَتَب فِي قُلوبهم الإيمانَ وأيّدهُم بروحٍ منه ويُدخِلُهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورَضُوا عنه ، أولئك حِزبُ الله ، ألا إنَّ حزبَ الله هُمُ المُفلِحون ﴾(٢) .

---

(١) الإيمان بالله تعالى ، واليقين بالمبدأ والمعاد . . . أعلى الطرق في الوصول إلى السعادة وبناء على ذلك فان علماء التربية في المنهج الإسلامي يؤكدون على ضرورة ترسيخ الإيمان بالله في باطن الطفل ببيان سهل بسيط .

يستطيع المربي القدير أن يستغلّ المواهب الفطرية للأطفال ، فيفهمهم أن الذي خَلقنا ورزَقنا ، وأن الذي أوجد الطين والنبات ، والأزهار الطرية ، وأن الذي نظّم السماء وبناها وركّز النجوم فيها والذي يحرسها ويحميها هو الله تعالى . . .

وهو الذي يراقب كل أعمالنا .

يجب ترسيخ هذه الفكرة في أذهان الناشئة ، حتّى يحصل لهم اليقين الكامل بها ، وهي أن الإيمان بالله أعظم العوامل في السعادة . فإذا حصل هذا الإيمان للشخص فانه كما يقول المؤلف ، لا يُقدم على الجريمة حتّى في الخلوة . =

فيمـا يتعلّق بـإصـلاح المجتمع الإنسـاني ، وسعادة الـدنيا والآخـرة ، اختار كـل فريق من علمـاء الأخـلاق ـ سـواء فيهم الشرقيون والغربيّون ـ مذهباً.

يـرى جمـاعـة من الحكمـاء تحسّن الحيـاة ورقيها في العـدالة . وطـائفة أخـرى تـرى ذلك في التقـوى ، وطائفـة ثالثـة ترى الأساس في السخاء والمحبة ، ويرى غيرهم أنـهـا في الـعلم والـعمـل ، الـمسـاواة والإحسان . . . الخ .

نحن بـدورنا نعتـرف بأن هـذه الأمور جميعاً توجب السعادة ، ولكن يجب البحث عن العامل الأساسي الذي يؤثر في حصول هذه الصفات الحسنة والملكات الجيّدة .

إذن ، مـا هـو الحجـر الأسـاس لبنـاء السعادة وقصرها المشيد ؟!

= مـا أكثر العلمـاء الماديين الـذين يحتلّون القمّة في اكتشـافاتهم واختـراعـاتهم ولكنهم يفقـدون هذه الحقيقـة. انهم يظنـون أن هذا العـالم الرحب وُجـد على أثـر الصدفة . . . في حين يوجد بعض النوابغ في الغرب يثبتون بطلان كلمات المـاديين وأنها واهية لا تستند إلى أساس صحيح ، ونتيجة لذلك يصرّحون بوجود القادر القاهر العليم ، الذي خلق النظام في هذا العالم .

من هؤلاء انيشتين ، الذي سنتحدث عنه في التعليقة القادمة .

الشارح

(٢) سورة المجادلة / الآية : ٢٢ .

إذا قلنا : إنّ وجود الإيمان واليقين في باطن الإنسان أقوى صفة تحوّل الإنسان إلى محور للأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة ، ويؤدي إلى استحكام بُنية الحياة ، ويجعل الأوضاع المعيشية منسجمة ومنتظمة ، ويمنح شجرة الإنسانية شرفاً وعلوّاً، فلم نعد الواقع .

الإِيمان بوجود المراقب العادل . . .

الإِعتقاد بوجود الناظر العليم والقادر . . .

التسليم القلبي بوجود السلطان القوي القاهر ، الذي يمنح الثواب والعقاب لكل عمل بلا جدال . . .

وأخيراً :

الإِعتقاد بوجود المبدأ والمعاد ، أساس كل سعادة وهدوء واستقرار ! !

إنه السماء التي تستطيع نجوم الملكات الحميدة، والسجايا الفاضلة، أن تتلألأ فيه .

أما حيث ينعدم الإيمان واليقين ، فان بقية الأخلاق الفاضلة تشبه طريقاً لا مقصد فيه ، وسلوكاً ينعدم الهدف الصحيح

فيه ، إذ لا تكون النتيجة إلَّا التعب والإرهاق.

إنَّ الذي يرتكب جريمة في ناحية بعيدة عن الأنظار ، إذا علم أن هناك ناظراً عاقلاً ومشاهداً واعياً يرى حركاته وأعماله ، فانّه يُقلع عن جريمته .

ولذا فإن مرتكبي الكبائر أو الصغائر ، وهكذا آلاف الذنوب والمعاصي ، ضعاف الإيمان غالباً ، ولا يعتقدون بوجود الناظر البصير السامع ، وإلَّا لما كانوا يرتكبون الأعمال الشنيعة بكل جرأة ووقاحة .

أما رأيتهم كيف يتحاشون من أن يراهم الطفل المميّز ، ويشاهدهم الناظر الضعيف ، فلا يرتكبون العمل القبيح أمامه ؟!

وصدق فيهم قوله تعالى :

﴿ يَسْتخفُونَ مِن النَّاس ولا يَستخفونَ مِن الله﴾[1]

* * *

إذا استثنينا بعض الجبابرة

---

(١) سورة النساء / الآية : ١٠٨.

الحمقىٰ ، الذين يستولون على نفوس النَّاس وأموالهم ، وغالباً ما تكون السلطة التنفيذية في المجتمع بأيديهم ، فان كلّ مجرم يقوم بتنفيذ جريمة متستراً عن أعين الناس ، ويرتّب خطته الإجرامية بحيث لا يطلع عليها أحد حتّى الصبيان .

لا شك أن هذه الاحتياطات ناتجة عن الخوف من ردّ الفعل ، والعقاب .

أعواد المشنقة ، وسيوف الجلّادين ، والسجن المؤبّد مع الأعمال الشاقّة تهدّد هؤلاء ، وترغمهم على التكتّم في القيام بالجريمة .

لكن إذا علم هذا المجرم ، ولو بعلم اليقين[أ] ـ الذي هو أضعف درجات اليقين ـ أن هناك خالقاً عظيماً ، يراقبه في تلك الزاوية التي يختفي فيها للقيام بجريمته ، واعتقد أن السميع البصير القادر يشاهد حركاته وسكناته ، وأنه أشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة ، فانه سوف يمتنع

(أ) أقوى من علم اليقين : عين اليقين ، وأقوى من كلا الإيمانين : حقّ اليقين .

المؤلف

عن ارتكاب جريمته[1].

وكذلك الحاكم الجائر إذا حصل له اليقين - في أقل درجاته ومراتبه - بوجود مالك الملك، والقهّار الجليل في العالمين، وعلم بأن العزة والذلة، والحياة والموت، كل ذلك في يده تعالى[أ] . . . فانّه كان يمتنع عن إلحاق الأذى حتّى بنملةٍ ضعيفة، وكان يُقلع عن الظلم والإِعتداء!!

أوما سمعت قول الإمام أمير المؤمنين

(أ) قال تعالى: ﴿قُل اللّهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممّن تشاء، وتعز من تشاء، وتذلّ من تشاء، بيدك الخير، إنك على كلّ شيء قدير﴾ سورة آل عمران / الآية: ٢٦.

المؤلف

---

(١) يعتقد انيشتين - وهو نابغة القرن العشرين - أنه توجد في العالم المجهول قوة عاقلة وقادرة يكون الكون كلّه شاهداً عليها، والإعتقاد بمثل هذه القوة العظيمة هو الإيمان بالله تماماً.

وقد عبّر المؤلّف العظيم عن هذا المعنى بعلم اليقين، الذي هو المرتبة الضعيفة من مراتب اليقين. أما المرتبة العليا فهي التي تبدو جليّة في كلام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

« إلّهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، ولكن رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

في هذه المرتبة يخطو الإنسان في مجال إسعاد الآخرين وسَوقهم إلى طريق الهداية والفلاح، لأنه على يقين من أن كل ذرة في وجوده، وكل خليّة في كيانه، وكل صغيرة من أقواله وأفعاله مشهودة لله تعالى حاضرة عنده.

الشارح

عليه السلام حيث يقول :

« واللهِ لو أُعطيتُ الأقـاليم السبعة بمـا تحت أفـلاكهـا على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جلب شعيرة ما فعلت» .

فلو اقتـدى كـل الحكـام بعلي عليـه السلام لسادَ العدل كل مكان .

إذن ، فـضمـان الـسـلام العالمي ، والأمان الكـامل ، والحيـاة الحرة الكريمة للمجتمـع الإنساني . . . كـل ذلك مرتبط بالإيمان واليقين .

من الإيمـان واليقين ، يتـولّـد الحيـاء والعفّة ! !

ومن الحيـاء والعفّة ، تـوجد الأخـلاق الفاضلة ! !

وهكـذا تـوجـد السلسلة الذهبيـة من صفـات الإنسانيـة ، بحيث تُحكم الصلة بين بني البشـر، في ظل عـالم يمـلأه الحبـور .

* * *

أضف إلى ما تقدم :

متى كـان للإنسـان قلب واعٍ وبصيرة نافذة ، فـإنَّه يشعـر تمامـاً بأنَّ مـا حولـه من النباتات والجمادات كلها تُبصر وتسمع ! !

لكـل منهـا لسـان فصيـح ، وعين نافذة ، وأذن واعية . . .

وكمـا قـال ذلـك الشـاعـر الحكيم بالفارسية عن لسانها :

نحن جميعـاً نسمـع ونُبصـر ويمـلأنـا الحبور والفرح . . .[أ].

ولـكنّـا نـكـفّ عـن الـكـلام حـين نواجههم .

لأنهم غُرباء عنّا ! !

وإذا ثقُـل على القارىء الكـريم قبول هـذه المقولـة ، فعليه أن يـرجع إليّ وجـوده وينظر إلى السامعين والنـاظرين الكتـاب في ذاته .

في الدرجة الأولى : يـوجد في مـركز كـل إنسـان مـراقب بصيـر وذكي ، يـرقب حركاته وسكناته ، وأقواله وأفعاله بدقّة .

هـذا المـراقب البصيـر ليس مـطلعـاً بـأعمال الجسـدّيـة فحسب، بـل هـو محيط بـالأفكـار والأوهـام والخـواطـر التي تـدور

(أ) وهكـذا نجد أن الحصى تسبّح في كف الـرسـول الأعـظم (ص) بـأمـر الله ، وتتكلّم الشجرة والبهائم مع النبي والإمام ـ بقدرة الله عزَّ وجلّ ـ بلسان فصيح .

المؤلف

بخلده!!

هذا المراقب العظيم يحتل أسمىٰ مكانٍ من البدن ، ولكنه حاضر لدى كل زاوية ، ومحيط بكل خليّة وبكل جزءٍ من كيانه !!

إنه يأمر وينهى ، ويتصرّف في جميع أنظمة الروح والجسد.

وهو القاضي العادل ، والحكم المنصف...

إنه الرسول الباطني...

وإمام البدن...

واسمه العقل!!

وقد يعبّر عنه بالناطقة القدسية.

وفي الدرجة الثانية : هناك كاتبان أمينان ، وشاهدان عادلان ، أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره .. إنهما يراقبان أقواله وأفعاله ، ويسجّلان كل شيء في سجلّ خاص يسمى بصحيفة الأعمال[أ] .

(أ) قال تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾ سورة ق / الآية : ١٨.
مضافاً إلى الملائكة الموكلين الآخرين.

المؤلف

وهكــذا الأرض والفضــاء يشـبهــان شريطين للتسجيـل جاهـزين للعمل في كـلّ آن .

إنهما يسجّلان ـ بدقّة ـ كـل ما يصـدر منـه ، ويصـوّران أفعــالـه، وإذا اقتضى الأمر ، فان أفعال الإنسان تُجسّد له ليراها[أ] .

أضف إلى ذلـك : الذوات المقـدّسة التي أُمرت من قبل الله تعالى بمراقبة أعمال الإنســان ، والشـهــادة في الـمـحـكـمـة الإلّهية ـ إتماماً للحجة ـ [ب] .

* * *

والخلاصة :

إنَّ الإيـمــان بــالله الـعــادل

(أ) بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالهـا ، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذٍ تحدّث أخبارها بأنَّ ربّـك أوحىٰ لها . يـومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً لِيُـروا أعمالهم ، فمن يعمـل مثقالَ ذرّة خيراً يـره . ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾ سورة الزلزال / الآية : ١ ـ ٨.

وفي آية أخرى نجد قولـه تعالى: ﴿ هـذا كتابنـا ينطق عليكم بـالحق ، انا كنّـا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ سورة الجاثية / الآية : ٢٩ .

(ب) ﴿ وكـذلك جعلنـاكم أمّة وسـطاً لتكونـوا شهداء على النّـاس ، ويكـون الرسول عليكم شهيداً﴾ سورة البقرة / الآية : ١٤٣ .
وفي الزيارة الجامعة «شهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء» .

المؤلف

القدير، واليقين بالثواب والعقاب ، يحركان كلّ النّاس إلى الأعمال الصالحة ، ويمنعان من الأعمال الرذيلة . . . وبذلك يحقّقان السعادة للإنسان .

أما الإنسان الشريف والحرّ ، فانه يعبد الله ابتغاء مرضاته ، وامتثالاً لأمره، ولأنه أهل للعبادة . . . فيكون حينذاك مصدر الصفات الفاضلة والأعمال الصالحة ، ويبتعد عن الأخلاق الرذيلة تماماً .

ولولا ذلك ، فإن العبادة على أمل الوصول إلى النعيم عمل يتناسب مع التّجار الذين يتوخون الربح في كل تصرفاتهم .

والعبادة فراراً من الجحيم عمل يتناسب مع العبيد الذين يلجئهم السوط إلى التخلي عن المخالفة والعصيان .

أما الذي يعبد الله إجلالاً له ، وقضاء لحقّ العبودية تجاه ذات واجب الوجود جلّت أسماؤه فانه شريف وحرّ .

وفي هذا يقول مولانا أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء :

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنّتك ، ولكنْ

رأيتـك أهلاً للعبادة ، فعبدتُك».

* * *

وهذه سنّة الله ، أن يكـون لكل فعـلٍ ردّ فعـل ، وأن يعـود أثـر كـل عمـل إلى صاحبه :

﴿فمن يعمـل مثقال ذرة خيـراً يـره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[1] .

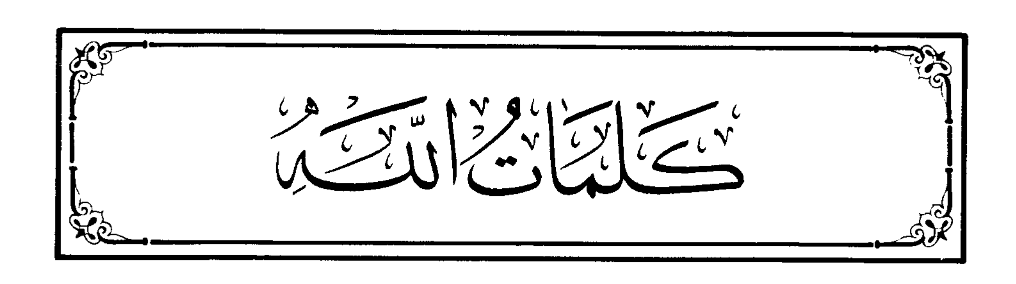
﴿ إن أحسنتُم أحسنتُم لأَنفُسِكم وإن أَسأتُم فلها﴾ [2] .

بـالضبط ، كما يـرجـع الصـدى من الجبل عندما تُنادي باتّجاهه!!

---

(١) سورة الزلزلة/ الآيتان : ٧ ، و ٨ .

(٢) سورة الإسراء/ الآية : ٧ .



كلمات الله

قال تعالى :

﴿ ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إنَّ الله عزيز حكيم ﴾[١] .

مما لا ريب فيه أن كلمات الله ليست من الشؤون الذاتية للباري تعالى ، ولا تناسب بين البحر والمداد من جهة وذات الله جلَّ جلاله من جهة أخرى . . . بل انها من مخلوقاته ، وربما كانت بعضاً من اسمائه وصفاته الفعلية[٢] .

(١) سورة لقمان / الآية : ٢٧ .

(٢) استعمل لفظ (الكلمة) في القرآن والحديث للاشارة إلى مخلوقات الله تعالى ان الموجودات التي وُجدت بيد القدرة الإلّهية تفوق الإحصاء ، وهي بين متناهية في الصغر كالذرة ومحتوياتها ، ومتناهية في الضخامة والكبر كالمجرات والسُدُم .

=

لقـد أُطلقت الكلمة على الأشخـاص أيضاً في القرآن الكريم ، فهو يقـول في حق عيسى :

= ولا يغيب عن بالنا أن لفظ (الكلمـة) استعمل في مـواضع من القـرآن الكريم لـلاشارة إلى الإنسـان الكـامـل ، كمـا جـاء في سـورة البقـرة/ الآية :١٢٨ : ﴿ **وإذ ابتلى . . .** ﴾ فالكلمات هنا كناية عن الرسـول الأعظم صلّى الله عليـه وآله ، وعتـرته الطاهرة .

روى الحافظ القندوزي الحنفي عن الإمام الصادق عليه السلام : أن المفضّل سـأل الامام الصـادق عليه السـلام عن معنى الكلمات ، فقـال عليه السـلام : « هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربّه، فتاب عليه الله» والكلمات كانت : « يا ربّ أسألك بحق محـدّ ، ، وعلي، وفاطمـة والحسن ، والحسين إلاّ ما غفـرت لي» . وكـذلـك يقـول العـلامـة السيـد هـاشم البحـراني حـول الآيـة ٣٧ من ســورة البقـرة ﴿**فتلقى آدم . . .**﴾ . « سئل ابن عباس عن هذه الكلمات فقال :

هي : اللهمَّ بحقّ محمد وعلي ،وفاطمة ، والحسن والحسين» .

إذن فـأمير المؤمنين عليـه السلام وأبنـاؤه هم الآية الكبـرى ، والكلمـة التـامـة للباري تعالى ، فشخصيتهم العظيمة وعلمهم الواسع أسمىٰ من ان يستطيع الشخص الإحاطة بجميع أبعادها وجوانبها.

قد يبلغ إنسان من الشهرة والأهمية درجة يصبح معها حديث الساعة ، ومشـاراً إليه بالبنـان ، فتتحدث عنـه الصحف ، وتُنشر عنـه المقالات في المجـلات ، وتوزع صـوره على الشـوارع ، وتصـاغ حـولـه القصـائـد والأشعـار ، وتُـرسم لـه صــور بطولية . . . لكننا حين نقارن ذلك كله بمقام الامام أمير المؤمنين عليه السلام ، نجد أن الامام أسمىٰ من هذه المستويات . .

بلغ الله بهم أرفـع درجـات المكـرّمين ، وأعلى منـازل المقـرّبين ، حيث لا يلحقهم لاحق ، ولا يفوقهم فائق، ولا يطمع في إدراكهم طامع !!

يسعىٰ العلماء والفلاسفة الى صنع تلامذة !! لا أتباع .

ويسعى القـادة الاجتماعيـون والسياسيـون إلى الحصـول على أتبـاع متعصبين =

﴿ وكلمته ألقاها الى مريم ﴾[1].

﴿ ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسىٰ ابن مريم ﴾[2].

وورد في الحديث الصحيح إطلاق الكلمة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

فقد خاطب الباري جلّ وعلا حبيبه الرسول الكريم صلَّى الله عليه وآله ليلة المعراج قائلاً : « عليٌّ كلمتي التي ألزمتها المتقين» .

= ومتزمتين !! لا أناس مهذّبين .

ويهتم العرفاء والاقطاب لصنع ذوي تسليم !! لا مؤمنين مجاهدين . . .

ولكن علياً عليه السلام هو الذي صنع هذه النماذج كلها ، وهم كثيرون في أصحابه . وذلك لأن علياً كان متعادلاً متوازناً قبل أن يكون اماماً عادلاً ، وقد جمع الكمالات الإنسانية كلها في ذاته ، فكان زاهداً ، جندياً مضحياً ، عارفاً ، قاضياً ، مفتياً، خطيباً، عاملاً، قائداً للمجتمع ، حكيماً، ساهراً ليله في العبادة، تبهر النجوم ليلا عبادته وتهجّده ومناجاته .

ولهذا نقول بكل صراحة :

إن المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام هم الكلمات التامة لله ، والمخلوقات الكاملة ، ولهم الخلافة العظمى . . . وكما يقول الامام الرضا عليه السلام :

« بِنا فَتَح الله وبنا يختم» .

ولذلك حق لهم أن يكونوا قادة الأمة الحقيقين بعد رسول الله (ص) .

الشارح

(١) سورة النساء / الآية : ١٧١ .

(٢) سورة ال عمران / الآية : ٤٥ .

وفي دعاء السَحَر :

« **اللهمَّ إنِّي أسـألـك من كلمـاتـك بأتمّها ، وكلّ كلماتك تامّة** » .

يستفاد من هذا النص أن هناك مراتب ودرجـات بين الكلمـات ، ففيهـا الكلمـة التـامـة ، وفيهـا الأتمّ ، في حين لا يتصـوّر وجـود المراتب والـدرجات في ذات الحـق جل وعلا .

لـذلك ، وبقـرينة استعمـالات الكلمة في القرآن والحديث ، نقول : إن المراد من الكلمات هو الأنبياء والأولياء .

* * *

وفيما يخصّ الإمام أميـر المؤمنين عليه السلام فهناك روايات ونصوص مؤيدة ، منها مـا رواه الخوارزمي في (المنـاقب) عن ابن عبـاس أن رسـول الله صلَّى الله عليـه وآله قال :

« **لـو أن البحـر مِـداد، والغيـاض أقـلام، والإنس كُتّاب، والجنّ حُسّـاب، ما أحصوا فضائلك يا أبا الحسن**» .

ويـورد صاحب كتـاب (في طريقي إلى التشيع) ص ٨ هذه الرواية بنحو آخر :

« **لـو أن الأشجـار أقـلام ، والبحـر مـداد، والجنّ حساب ، والإنس كتّـاب، ما**

أحصوا فضائل علي بن أبي طالب» .

بهذا البيان والتوضيح ، يكون المقصود الأول من كلمات الله في التفسير والتأويل محمداً وآل محمد عليهم السلام .

أجل ، فليس المراد من كلمات الله ، أو فضائل الأمير سلام الله عليه ، هذه الكلمات والألفاظ والفضائل الظاهرية ، وإلاَّ فلم تكن هناك حاجة إلى بحر وسبعة أبحر ، بل كانت تكفي محبرة واحدة لإحصائها كتابة .

بل المقصود أن الوجود السامي لوليّ الله (أو كلمة الله التامة) يحتوي على الأسرار والمعاني العظيمة التي يعجز البحر على ضخامته عن مجاراته والوصول إلى تأويل وتفسير حقائقه ومبانيه .

كما يقول القرآن الكريم :

﴿ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتاب مبين ﴾[1] .

إذ من الواضح أن الرطب واليابس لعوالم الإمكان ليست في ظاهر الكلمات والآيات ، بل هي في رموز هذا الكتاب السماوي البديع وأسراره الباطنة .

وتقريباً للأذهان أورد هذا الحديث

(١) سورة الأنعام / الآية : ٥٩ .

الذي رواه العامة والخاصة عن ابن عباس .

يقول ابن عباس : لقد شرح لي علي ابن أبي طالب ذات ليلة تفسير الباء من البسملة إلى أن طلع الفجر ، ولمّا يكمل الإمام عليه السلام شرح ذلك. فوجدت نفسي كقطرة في مقابل البحر الزاخر . ثم قال : لو أذن لي الله ورسوله لأوقرت لك أربعين بعيراً في شرح معاني فاتحة الكتاب .

إذن فعدم نفاد الكلمات الإلهية ، والفضائل العلوية، وكونها أسمى من الإحصاء والعدّ يعود إلى معانيهم وباطنهم وغيبهم .

فالتفسير الصحيح لكلمات الله ، أنهم **محمّد وآل محمد** صلّى الله عليه وآله، وقد أكّدت ذلك الروايات الصحيحة والقواعد المضبوطة التي وصلتنا عن الذين عندهم علم الكتاب عليهم السلام .

إنهم المقصودون من الكلمات التامات ، والأسماء الحسنى، بلا ريب !! إذ لا يوجد في عالم الإمكان آية أو كلمة أو اسم لخالق السماوات والأرض أعظم من المعصومين الأربعة عشر ، كما يقول أمير

المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء :

«أيّ آية أكبر منّي ؟! وأيّ نبأ أعظم منّي ؟!» .

* * *

إن أسرار الحقيقة المحمدية ، ومعاني الحقائق العلوية ، وأشعة الأنوار الفاطمية . . . وساير المعصومين عليهم السلام هي التي تملأ عوالم اللاهوت والجبروت والناسوت، وعن طريقهم يصل الفيض الإلٓهي، والمدد الغيبي إلى المخلوقات من الذرة الصغيرة حتى الطور العظيم .

وهكذا نقرأ في الدعاء المخصوص بشهر رجب :

« . . . ومقاماتك وعلاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان ، يعرفك بها من عَرَفك، لا فرق بينك وبينها إلاَّ بأنهم عبادك وخلقك . . . فبِهم ملأتَ سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إلٓه إلاَّ أنت » .

وفي الحقيقة فان بحار عالم الوجود رشحة من ينبوع الصادر الأول ، وأشعة الكون إشراق من إشعاعات العقل الكلي الذي هو وعاء المشيئة الإلٓهية .

وإذا كانت هذه المعاني عميقة ، فلا

بـأس بـأن نـوضحهـا بمثـال لكي يسهـل استيعابها من قبـل القرّاء الكـرام ، ويكشف الستـار عن سرٍّ من أسـرار العلم والإحـاطـة بالكلمات التامّات ، وقصـور البحر حتّى لـو أضيف اليه سبعة أبحر عن تجسيد ذلك .

المـلائكة والجنّ والإنس كلّهـا كتّاب وحسّاب، وتستطيع استعمال مياه البحار بدلاً من الحبر لإحصاء الكلمات التامّات ، وذلك بأمر الخالق المتعال ومشيئته وقدرته ! !

لـننـظر الآن كـيف تـقـوم بعـملهـا هذا ، وإلى أين تصل ؟!

من رمـوز الكلمـة التـامـة ، أو الأيّـام الإلّهيـة، أو حجّـة الله البـالغـة ، إحـاطتهـا بجميع قطرات البحار ، وذرّات النفوس التي توجد داخل كل قطرة منها . إذن فكـل قطرةٍ تُـرفَع بـالقلم تحتوي على آلاف الآلاف من الكـائنات الحيـة ، التي تحتاج كـلّ واحـدة منهـا إلى الفيض الوجـودي ، ولها استعـداد محدود في استقبال المدد الإلّهي .

لـذلـك ، إذا ارادت قـطرة المـاء أن تحصي المعلومـات التي يعـرفهـا المعصـوم عن سـاكني هـذه القـطرة وتسجّلهـا على الورق ، فان رطـوبة هـذه القطرة تجفّ قبـل استقصاء جميع مطالبها .

وهكذا جميع قطرات المياه في البحار فانها ضئيلة وتافهة تجاه محتوياتها .

إذن ، فماء البحر لا يقدر على إحصاء أسرار وعلوم الكلمة التامة الإلهية تجاه البحر نفسه وساكنيه ، ويعجز عن الوصول إلى نهايتها .

فضلاً عن سائر المخلوقات والموجودات !!

قد يرد على هذا البيان إشكال مفاده : أن الذرّات والكائنات الموجودة في القطرات يشبه بعضها بعضاً ، لذلك فمعلومات الإمام عليه السلام حول ذرة أو قطرة هي عينها بالنسبة إلى الذرات أو القطرات الأخرى .

ولكن نجيب عن ذلك بأن الأمر ليس هكذا ، وليس بهذه البساطة التي يتصورها البعض ، بل حسب القاعدة التي يتحدث عنها البارىء الحكيم في القرآن بالنسبة إلى القوانين الطبيعية ، حيث يقول :

﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم . . ﴾[1] .

وحسبما يؤيده العلم ، فمن المستحيل أن تتشابه ذرّتان ، أو يتماثل

---

(١) سورة الروم / الآية : ٢٢ .

موجودان من جميع الجهات . . . فلا يكاد يوجد في جسم الإنسان أو الحيوان شعرتان في الرأس أو في الصدر ، أو ورقتان متشابهتان تماماً .

لذلك فان للذرّات والكائنات الموجودة في الماء خصائص ومميزات لا تكفي رطوبة الماء لِاستيعابها جميعاً . . . في حين أن صاحب الولاية الكبرى مهيمن عليها جميعاً ، والكلمة التامة الإلهية جامعة لجميع الحروف التكوينية .

* * *

أيّها القارىء العزيز :

هذا المثل المبتكر ، وهذا الأسلوب الجديد في الِاستدلال الذي لم يسبق أن ذُكر في كتاب ، ولم يتفوّه به متكلم ، وربما لم يدر بخلد انسان ، مضافاً الى اشتماله على معانٍ دقيقة ومطالب عميقة ، فانه يفتح لك باباً من كنوز الأسرار والحقائق ، يفتح لك من خلاله أبواب عديدة ، ويضيف إلى معارف أرباب الفضل معارف جديدة وراقية .

ولا شك أنه يحتاج إلى نظرة طاهرة ، وصدر أشدّ طهارة !!

كذلك نستطيع أن نقول في تأويل البحر والأبحر : أن كل موجود أو كل ذرة تتركب من جزءَين: الوجود والماهية .

وقد اشتهر على لسان الحكماء (**أن كل شيء زوج تركيبي من الوجود والماهية**) ويعني ذلك أن لكل موجود جانبان : جانب رباني (**جهة من ربّه**) وهو الذي يسمّى بالوجود ، وجانب نفساني (**جهة من نفسه**) وهو الذي يسمّى بالماهية .

الوجود هو سفينة نجاة كل موجود يسير في محيطات الماهيات ، وهذه الماهية بمنزلة الفصول والمشخّصات للموجود .

وفي الحقيقة فان الجانب الربّاني لكل فرد إشراقة من إشراقات شمس الولاية ، وأشعّة من حلقات تلك السلسلة النورية .

واذا استثنينا الروح القدس فهناك سبعة أنواع من الوجود والماهية في الكون تتدرج حقائقها واحدة تلو الأخرى كما يلي :

الأنبياء ، المؤمنون ، الإنس ، الملائكة، المؤمنون من الجن ، الحيوانات ، النباتات ، والجمادات .

إنّ ماهيّات هذه المراتب عاجزة عن

إحصـاء الـرمـوز والأسـرار الكـامنـة في وجودها ، ويستحيل أن تفسّر وتـوضح مقـاماً أعلى وأسمىٰ من مقام أنفسها ، وبالتالي فان جـانب (**من نفسه**) يعجـز عن فهم حقـائق جـانب (**من ربه**) في تعـداد الـكلمـات الربانية .

* * *

نظرية أخرى :

متى اعتبـرنا هـذه الحقائق الـوجوديـة السبعـة ، الأبحر السبعـة ذاتهـا ، وأردنـا أن نصـل إلى مبدأ النـور والإشـراق أي العقـل الكلي ـ الـذي هـو كلمـة الله العليـا ـ عن طريق هذه البحار النورانيـة السبعة ، ونحيط بـأسـرار ذلـك الجـوهـر البسيط فهـو من المحـالات أيضاً . وذلـك للقاعـدة الفلسفية المعروفة(**إنّما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها**) .

فمن الـواضـح أن علم الأشعـة لا يتعـدّى دائرة الأشعّـة ، ولا يـرقى إلى مقـام الشمس ، ولا يستطيع النـور ان يحيط بذات المُنير .

وكـذلـك الأثـر لا يـبـلغ مـرتـبـة المؤثـر ، وتعجـز الآيـة عن درك حقيقـة ذاتها . . .

الطريق مسدودٌ ، والطلب مردودٌ .

* * *

إذن ، فالكلمات التامّة ، يعني أنوار المعصومين الأربعة عشر الذين هم أصحاب الولاية المطلقة ، ومظاهر للمشيئة الإلّهية ، لا يمكن إدراكها بهذه المظاهر الناقصة ، ويستحيل إحصاؤها بهذه المراتب المحدودة .

إنها مهما تكاملت في أنفسها ، وزكّت نفوسها ، فانها تستطيع الحصول على معرفة ذاتها فقط . . . علماً بأنها إذا زكت فانها تصبح مرآة ، لكن لظواهر الآيات الربانية ، أي أنها توفّق لمعرفة مرتبة الامامة فقط ، وتبقى جاهلة تجاه باطنها ، كما قال الولي المطلق .

«ظاهري إمامة ، وباطني غَيْبٌ منيعٌ لا يُدرك» .

سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .



التهيؤ والاستعداد

قـال تعالى :

﴿ وأَعِـدُّوا لَهُم ما اسْتَـطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبـاطِ الخَيـلِ تُـرهِبـونَ بِـه عـدوَّ اللهِ وعدوَّكم . . . ﴾[1] .

دعـا القـرآن الكـريم في هـذه الآيـة الكريمة الأمـة الإسلاميـة للاستعـداد واتخاذ التـدابيـر الـلازمـة لمـواجهـة الـكفـار والمعاندين ، وحـذّرهم من الخصم ، معلناً ضرورة الاستعداد للجهاد والكفاح .

حيث لا يـوجـد خـطر من هجـوم العـدو ، وحيث لا يقـابـل النـاس خصمٌ عنيد ، فإنَّ الناس يتعودون على حياة الراحة والـتـرف ، ويـقـضـون وقـتـهـم فـي الغفلة . . .[2] .

---

(١) سورة الأنفال/ الآية : ٦٠ .

(٢) يشير المحقّق الجليل في هذا الفصل إلى أهمية الاستعداد لمواجهة العدوّ في جميع الأحوال ، سـواء في مجال مقـاومة العـدو الداخلي أو في مـواجهة العـدو =

وعلى العكس من أولئك ، فإنَّ الشعب الذي يتهدّده خطر العدو القوي والخصم اللدود ، يكون يقِظاً دائماً ، وعلى أهبة الاستعداد لأية مواجهة محتملة !!

= الخارجي .

العدو الداخلي للإنسان هو النفس الأمّارة بالسوء ، التي تعتبر معارضتها والكفاح معها أعظم الجهاد . إذ عندما عاد الجنود من جبهات الحرب خطب فيهم رسول الله قائلاً : لقد رجعنا من الجهاد الأصغر وعليكم الآن بالجهاد الأكبر . فتعجب الجنود من ذلك وسألوا عن الجهاد الأكبر ، إذ ما هو الميدان الذي يجب أن يخوضوا غماره ، والذي يفوق في الأهمية الحرب التي فرغوا منها لتوّهم ، فقال لهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله : « إنّه جهاد النفس ، والكفاح ضد الأهواء والرغبات » .

إنَّ العدو الخارجي لا ينحصر في الكفار الذين تجب مواجهتهم بأحدث الأسلحة وعلى طول الجبهات . بل يشمل الأعداء الذين يستغلّون الثقافة والأفكار وسيلة للسيطرة على الشعوب ، واستغلال طاقات الشباب في الطريق الذي يؤدّي بهم إلى الانحراف . ومن الواضح أنَّ مقصود المؤلّف الجليل هو ضرورة التهيّؤ والاستعداد للأعداء من كلا النوعين ، فكما يجب الاستعداد بالأسلحة على طول الجبهات لمقارعة العدوّ ومنازلته ، ومجانبة الكسل والترف واللهو ، كذلك يجب أن نبقىٰ في أعلىٰ درجات اليقظة والحذر تجاه أعداء الفكر والثقافة ، ونتسلّح بالسلاح العصري المناسب حتى نأمن على ثغورنا الفكرية من احتلال العدو أيضاً .

لقد أكّد القرآن الكريم على سلامة الحدود والثغور الإسلامية . وصيانتها من خطر العدوّ المداهم سواء من حيث التدريب على الفنون القتالية ، أو المعدّات الحربية ، حيث يتسنّىٰ للمسلمين مقاومة العدو الغاشم . وفي نفس الوقت يجب على المسلمين الحفاظ على الثغور الفكرية والحدود الثقافية ومواجهة العدو المعتدي بشأنها أيضاً . =

الشعب الإيـراني والشعب الهـنـدي ينحـدران كـلاهمـا من الجنس الآري . . . هـذان الشقيقان اللذان عـاش أحـدهمـا في إيـران ، والآخـر فـي الهـنـد ، اختـلفت طبائعهما وأخلاقهما حسب اختلاف الموطن الجديد الذي انفرد كلّ منهما به .

فـالإيرانيـون توطّنـوا منطقـة الخطر ، والمـداهمـات ، إنّهم جـاوروا الشعـوب المحاربة والسفّاكة التي استقرّت في (توران ، و (تركيا) و (كلدو) و (بابل)، ولذلك فـإنّ أرضهم كانت مسـرحاً لعبـور الشعـوب القـويـة المحـاربـة ، وهـذا مـا أدّىٰ إلى ممـارستهم لفنون القتـال ، واستمرار حـالـة اليقظة والوعي فيهم .

وإذا أضفنـا إلى ذلـك قلّة الميـاه في منـطقتهم ، وشـدّة حـاجتهم إلى وسـائـل الحياة ، واضطرارهم إلى استصلاح الأرض

= إنّ العـالم المسيحي يشنّ اليـوم حمـلات لا هـوادة فيهـا ضـد المفـاهيم الإسلامية ، محرّفاً بـذلك الحقـائق والأسس الدينيـة ، وكذلـك أصحاب المـذاهب والتيارات الأخرىٰ فإنهم بدأوا ينفذون إلى داخل جسم الأمة الإسلامية ناشرين الفكر الغربي والثقافة الأوروبية ، ومزعزعين الأسس الإسلامية .

وهـذا ما يفسّـر لنا اهتمـام القرآن الكـريم بالاستعـداد للعدو في شتّى أشكاله وصوره .

الشارح

وفلاحتها ، فهمنا السبب في بذلهم الجهود المضنية وتحمّلهم المشاقّ لتحويل الأرض القاحلة التي يقلّ الماء والكلأ فيها إلى بساتين عامرة ورياض نضرة .

أمّا إخوتهم الهنود الذين استقرّوا في الأراضي الخصبة ، ووسط المياه الوفيرة وأنهار السند والغانج ، والغابات المليئة بالخيرات والنعم ، فإنّهم لم يحسّوا بالحاجة إلى العمل والجهد ، بل اعتادوا على حياة الترف واللذة ، فلم يكن منهم إلاّ تناول الفواكه اللذيذة ، وشرب المياه العذبة ، وقضاء الوطر من الفتيات العديدات ، والتنقل في أحضان ربّات الجمال ، وبهذا حرموا أنفسهم من الرياضات الطبيعية ، والحركات الجسمية العادية .

وحيث كانوا بعيدين عن الأمم المحاربة في منطقة الشرق الأوسط ، ولم يكن لهم خصم يجاورهم غير الصين التي كانت تكتفي بين الفينة والأخرى بأخذ الضرائب والخراج منهم . . . فإنّهم لم يستعدّوا للحرب والقتال ، ولذلك فإنّ التاريخ يحدثنا بأنهم خسروا المعارك مع

السلطان الإيراني (محمود الغزنوي) في أول جولة ، وكذلك قُضي عليهم جراء ضربة قاضية لنادر شاه أفشار ، وهكذا انهار ذلك الجيش الجرّار وتفرّق عددهم الضخم في مقابل الجيش الغازي الإيراني أو الأفغاني .

وهذا طبيعي جداً ، فإنَّ العيون التي ألِفت النوم والراحة ، واعتادت على مجالس الترف واللذة ، لا تستطيع الرؤية في ميادين الكفاح . . . [أ] .

نستنتج من ذلك : أنَّ الحاجة تدعو الإنسان إلى العمل ، وتلجئه إلى بذل الجهد ، ونتيجة لذلك فإنَّها تضمن سعادته .

لقد أصبحت إيران في الأزمنة

(أ) وهنا نستميح القرَّاء الكرام عذراً خصوصاً إذا كانوا ينتسبون إلى القارة الهندية ، إذ لا بدَّ من الاعتراف بأنَّه في القرن العشرين حصلت انتفاضة قوية بين الشعب الهندي نتيجة للضغوط التي مارسها الأجانب بحقهم ، واستطاعوا التخلّص من استعمار القوىٰ الإمبريالية ، فنالوا الاِستقلال ، وقسّمت القارة إلى (الهند) و (الباكستان) ، وهكذا وجدت تيارات قوية نشطة تدعو إلىٰ الوعي واليقظة وعدم الذوبان في الثقافة الغربية .

المؤلف

الغابرة ، نتيجة لهذه العوامل وعلى أثـر هذه الحـاجة مهـداً للعلم والحضـارة ، ومـوطئـاً للشجعـان والأبـطال ، وعـرينـاً لـلأسـود الأشاوس في الشرق . وهكـذا خرّجت قـادة أكفـاء وأبـطالاً عـظمـاء من أمثـال أردشيـر بابكان ، وأنوشيروان (كسـرىٰ) ، ويعقوب الـصفّـاري ، وأولاد آل بـويـه ، والـملك إسماعيل الصفوي ونادرشاه أفشار .

ومـا التلقيح ضـد الأمراض المختلفـة إلاَّ شـاهـد آخـر على مـا ذكـرنـاه . فـإنَّ الكـريّات البيض تُنـذر بـالخـطر بهـذا الأسـلوب ، وذلـك عـن طـريـق إدخـال الميكـروب الضعيف لـلأمـراض الخـطرة والأوبئـة ، فتستعـدّ الكـريّـات البيض في الـدم ، للمـواجهـة الحـادة والعنيفـة مـع الأمراض الفتاكة .

. . . إنَّ هـذا قـانـون طبيعي عـام !! وهو أنَّ الإنذار بالخطر الكامن يعدّ الفـرد أو الأمـة لليقظة والاستعـداد للكفاح ، ويـدعوه إلى الدفاع والمقاومة .

إنَّ اختـلاف البيئـة أثَّـر على عقـائـد الشعبين : الإيـراني والهنـدي . لقـد كـان

الفرد الهندي قبل دخول الإسلام إلى بلده إنساناً خرافياً بحتاً ، يعتنق الخرافة والأوهام ، ويهتم بالجوانب السلبية فقط . . .

لقد كان يعتبر الوجود بأسره شراً ، وكان يرىٰ السعادة الحقيقية في العدم ، لذا فإنَّه كان لا يعثر على عمل يبعث فيه السعادة . . . شعاره الخمول والجمود ، واليأس والكسل ، وهدفه انتظار الموت ! !

وهكذا تتجلّىٰ هذه الأهداف العظيمة عندهم في كلامٍ لحكيم الهند (بودا) حيث اعتبر الموت المنفذ الوحيد في الحياة للنجاة ونيل السعادة ! !

أمَّا الإيرانيون ، فإنَّهم كانوا يرون ـ على العكس ممَّا تقدّم ـ الحياة خيراً محضاً ، ومقاومة الشرور واجباً دينياً ، ولذلك كانوا من أنصار النور والنار ، والماء والعمران ، والزراعة والتشجير . كانوا يعتبرون الطهارة ونظافة الجسم والروح ، في الظاهر والباطن ، من معتقداتهم الدينية الأساسية ، ولذا كان التفكير الحسن ، والقول الحَسن ، والفعل الحَسن شعارهم

الأول .

وهذا هو السبب في تفوّق الإيرانيين على جميع الشعوب آنذاك ، من ناحية العمران ، والتنظيم الداخلي ، والسياسة الخارجية . . .

وبصورة موجزة فإنّ موقعهم الجغرافي ، ومجاورتهم للخصوم الأقوياء والأعداء الفتاكين ، ووجود قوىٰ مسلّحة ضاربة في جوارهم دائماً ، كانت العوامل الأساسية لتقدّمهم في الجانبين العسكري والإداري ، ووصولهم إلى رتبة الدول العظمىٰ في التاريخ .

لكني في حيرة من أمر الإيرانيين في العصر الحاضر. وبعبارة أخرى : من جميع المسلمين والشيعة منهم بالخصوص ، إذ مع وفرة الصرخات المؤلمة ، والإنذارات الشديدة ، وعوامل التهديد الجدّية الصادرة بحقهم من الأعداء ، يعيشون حالة من الغفلة والإنفلات ، ولا يتحرّكون للدفاع عن وضعهم الحاضر .

إن قالوا : نحن نعيش حالة الفقر والبؤس ، ولا نملك رصيداً للمعدّات

الحربية والدفاعية الحديثة ، والأعداء الأقوياء مسيطرون علينا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نخرج رؤوسنا من أوكارنا التي لجأنا إليها ! !

نقول : على فرض أننا صدقناكم في ذلك ، وافترضنا أنَّ أيديكم مغلولة بالسلاسل ومشدودة إلى الأعناق ، بحيث لا تقدرون على عمل ما ، لكن يبقى سؤال واحد : هل أنتم ممنوعون من الاتحاد أيضاً ؟! .

ألا تقدرون على توحيد القوىٰ والصفوف ؟!

هل سيطر الأعداء على قلوبنا أيضاً ؟!

هل يستطيع الخصم من الحيلولة بين اتحاد أخوين ، أو جارين ، أو عالمين ، أو مرجعين للتقليد ؟!

هل بلغت مهارتهم في السيطرة على القلوب وتسخير النفوس إلى هذه الدرجة ؟!

إنَّ أقلّ ما نقنع به هو أن تتّحد الأمة الإسلامية والإيرانيون فيما بينهم ، ويتخلقوا

بالأخلاق الفاضلة ، فإنَّ ذلك هو السلاح الأقوىٰ لانتصار أمة من الأمم .

وإذا كان لنا ما يبرّر أعذارنا في القسم الأول ، فإنَّ التقصير والذنب متوجّهان إلينا في هذا القسم الأخير . . . أو أنَّ ذلك من آثار حبّ الرئاسة ، والشهرة ، وانعدام الزهد والتقوىٰ ، وضعف الإيمان ، وقلّة الحمية !!

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً
ولكن لا حياة لمن تنادي !!

والواقع أنَّ تلك القصة الخيالية المشهورة تنطبق على الإيرانيين والمسلمين في العصر الحاضر :

إيراني مسلمٌ متعلّق بحبل وسط بئر عميقة ، في قعر البئر أفعىٰ عظيمة فاغرة فمها . . . وعلى حافة البئر بعير هائج . . . فأرتان إحداهما بيضاء ، والأخرىٰ سوداء مشتغلتان بقضم الحبل . . . وهناك قليل من العسل ممزوج بالطين على بعض جدران البئر . . . هذا الغافل المسكين محاط بالأخطار من كل جانب ، ومعرّض للهلاك ، ولسع النحل ، لكنه غير مهتم بشيء من

ذلك ، بل يُشغل نفسه بلعق العسل الكدر الممزوج بالتراب .

هـذا المثل يقـودنـا إلى نكتـة أدقّ وهي :

الإنسان الذي يُجالس ويجاور عـدوّاً حيّالاً ، وخصماً لدوداً ، وقوّة شريرة كالنفس الأمّارة ، يجب عليه أن لا يـدع الاحتياط جانباً ، فلا يلهو ويسهو ، بل يستعـدّ ويجهّز نفسه بالأخلاق الفاضلة والملكات العالية حتى يقـدر على دحر وسحق أهـواء هـذه النفس الأمّارة أو السيطرة عليها .

وعلى كل حال يجب على الشخص أن يستعين بالباري عزّ وجلّ ، وحين يقول في صلاته : ﴿ **إيّاك نعبُد وإيّاك نستعين** ﴾ يقول ذلك من صميم قلبه ومع الانتباه والالتفات الكامل .

وأخيراً مع انتصار العقل ، واندحار النفس تتحقّق سعادة الجسم والروح والنفس !! .





الدين والنعم

الـدين هو محـور السعـادة ، وأسلوب الاستفـادة من النعم ، وكيفيـة استـغـلال المواهب الإلـهية[1] .

---

(١) كيف نستغلّ النعم الإلـهية ؟!

الشريعة الإسلامية الغرّاء تعلمنا كيف نستغلّ النعم والمواهب الإلـهيـة . ولقد أجاد المؤلف القدير حيث بدأ هذا الفصل بالحديث عن نعمة العين . . .

العين نعمة إلـهية عظيمة ، وضع لها الشرع الحنيف قوانين وأنظمة خاصة ، وقد جاء في (تحف العقول) عن الإمام السجّاد عليه السلام حول كيفية الإفادة من هذه النعمة قوله : « وأمّا حق بصرك فغضّه عمّا لا يحلّ لك ، وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة ، تستقبل بها بُصراً ، أو تستفيد بها علماً ، فإن البصَر باب الاعتبار » .

يستفاد في العصر الحديث من الأجهزة السمعية والبصرية لتعليم الناشئة والشباب ، وخير أداة للتعليم هـو العين . . . في حين نجد المناهج المفصّلة لاستغلال هذا العضو في انحراف الشباب وفسَادهم . . . المتشدقون بالمدنيّة الحديثة يصنعون الأفلام البوليسية والجنسيّة المثيرة للشهوات والغرائز ويعرضونها على الشباب بواسطة التلفاز ، وعن طريق نعمة البصر التي يجب أن تستغل لمشاهدة جمال الطبيعة ومزايا الخلقة يعدّون أدوات الانحراف والضياع للناشئة .

لقد خلق الله تعالىٰ العين للاعتبار، وزوّد الإنسان بهذه الحاسة ليقارن بواسطتها بين جرائم المجرمين وقسوة العُتاة الجبابرة من جهة، وبين آثار العدل والإنصاف لدىٰ حكّام العدل من جهة أخرىٰ، وعن طريق هذه المقارنة يصل إلى السلوك الإنساني اللائق =

هذه النعم الظاهرية والباطنية التي لا تُحصىٰ . . .

وهـذه الألـطاف الـتـي لا تُـحـدّ ، والمنبعثة من جانب الكريم جلّ جلاله، إنْ لم تـوجّـه وتنضبط بـواسـطة أحكـام الـدين وتعاليمه ، فإنها ـ على عظمتها وأهمّيتها ـ لا تخلو من الفـائدة فحسب ، بـل هي مدعـاة للبلاء والنقمة أيضاً .

العين إحدىٰ النعم الإلـٰهية الـواضحة والنفيسة ، وبها نـدبّر أغلب مـا نحتاجـه في حيـاتنا ، وينعم الجسـد بالنشـاط والحيـويّـة بفضـل وجودهـا . إنّنـا ننعم ـ بوا سـطتهـا ـ بالنظر إلى المنـاظر الخـلّابة على الأرض ، ونشـاهد عن طـريقهـا المسـارح السمـاويـة الجميلة ، ونلتـذّ بها ، فنـزداد بهجة ورونقـاً ونهتزّ سروراً وطرباً . . .

والأهـمّ من ذلـك كله : أنها خيـر أداة

=ويختار الطريق المناسب .

أمّا الذين لا يخضعون لسيطرة الدين وتوجيهاته القيّمة فإنّهم يستخـدمون العين كأداة للفساد واللذّة الموبقة فقط !

الشارح

تعيننا على اكتساب العلوم والمعارف ، وعن طـريقهـا نتعـرّف على آفـاق العلم التي لا تُحدّ !! .

أمَّا إنْ لم تخضع هذه النعمـة العظمىٰ لسيـطرة التوجيهـات الدينيـة ، بـل اعتـادت على النـظرات الدنيئـة في ملاحقـة أعراض النـاس ، فإنهـا تصبح مصـدر وبـالٍ وبـلاءٍ للإنسان ، وسيكـون ضررهـا أكثر من نفعهـا حتمـاً ، إنهـا تؤدّي إلى هبـوب العـواصف المهلكة في سماء وجـود النفس الإنسانيـة ، وتكون مبعث ألم للروح والجسد ، ومـدعاة لـلجنـون والـسفـه ، ودافـعـاً للجـرائـم والخيـانات . . . وبصـورة مـوجـزة : تنقلب النعمة العظيمة إلى بؤرة للشقاء والألم .

لـو لم تُعـالـج أمـراض العين - وهي أمـراض ظاهـرية - فـإنَّها تؤدّي إلى تعـطيـل العين فقط ، لكن عـدم معـالجـة الجـانب المعنـوي من مرض العين وانحـرافها يقضي على روح الشخص وجسده ، ويعرّض شرفه وموقعه الاجتماعي إلى الخطر .

. . . وعلى هـذا ، فـالأعمىٰ أشـرف من هـذا البصيـر وأهـدأ بـالاً بـألف مـرّة ،

والعمىٰ يرجح على البصر الذي يكـون منشأ للدمار والفساد .

انظروا إلى اللسان أيضاً[1] ، فإنّه أداة لـلاستئنـاس بـالآخـرين ، وآلـة للتفـاهم معهم ، وتعبير عمّا يمتـاز به النـوع البشـري عن غيـره . . . أمّـا إذا لم يخضـع للرقـابـة الدينية ، فيشتغل بالكـذب ، ويسخّر للغيبـة والسبـاب وإظـهـار عيـوب الآخـريـن ، ويستخـدم للتهمـة والافتـراء ، فسيكـون مصـدراً لمـلايين المـآسي والمصـائب ، ومدعاة للشقاء والدمار . . .

---

(١) نعمـة أخرى من النعم التي منَّ بهـا الخـالق جـلَّ وعـلا على الإنسـان : اللسان .

يعتبر المؤلف (اللسان) أداة للاستئناس بالآخرين ، وآلـة للتفاهم معهم . . . والواقع أنَّ اللسان هو الأداة الوحيدة التي يستـطيع الإنسـان التعبير بـه عن مكنونـات ضميره وحقائق باطنه ، وهو المعبّر الصحيح عن الشخصية الإنسانية .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء : « المرء مخبوء تحت طيّ لسانه ، لا طيلسانه » .

ويقـول الإمام زين العـابدين عليـه السلام : « وأمّـا حق اللسان فإكرامـه عن الخنـا ، وتعويـده على الخير ، وحمله على الأدب ، وإجمـامه إلاَّ لمـوضع الحـاجة والمنفعة للدين والدنيا » .

وقد أجاد صاحب كتاب (ذرايـع البيان في عـوارض اللسان) في ذكـر الآفات التي تترتب على عدم استغلال هذا العضو في طريق الخير والصلاح .

الشارح

عندئذٍ يكون البُكم أقرب إلى السلامة والنجاة !! .

ما أكثر المضارّ الفردية والاجتماعية التي منشأها اللسان ، وما أعظم الخسائر المادية والمعنوية ، والفتن والأحقاد بين الأطراف المتنازعة ، والقبائل والعشائر ، والأسر والجيران ، التي مردّها إلى اللسان .

إنَّ التاريخ مليء بالأحداث المؤلمة ، والحروب المدمّرة ، والعداوات المفجعة . . . التي نجدها عند التحليل ناشئة من آفات اللسان !! .

وهكذا النعم الأخرى من السامعة واللامسة والذائقة ، التي يجب أن تخضع جميعها لسيطرة الدين وتوجيهاته .

الثروة نعمة جسيمة ، تدعو إلى تحرير الإنسان من الذلّة والحاجة ، وتغنيه من النظر إلى أيدي الآخرين ، ولا يشك أحد في مدىً ما يتمتع به أصحاب الثروة من احترام وجاه بين الناس ، وهذا أمر لا يحتاج إلى إقامة دليل وبرهان . . .

ولكن هناك شرط أساسي ، وهو

استغـلال الثروة واستثمـارها حسب التعـاليم السماوية . . .[1] .

عنـدئذٍ ينتـظم أمر الحيـاة ، فتصـرف الثـروة في بنـاء المسـاجـد ، والمـدارس ،

---

(١) لقــد وردت نصوص دينية في مدح الثروة وذمّها ، وقد تطرّق إلى ذكرها علمـاء الأخلاق في كتبهم . تـوجد ثلّة من النـاس تصرف الجهـود العظيمـة قاصـدة الحصول على ربح أكبـر وفوائـد ماديـة فقط . هؤلاء يسحقون كـلّ فضيلة تقف سدّاً أمــام تحقيق أهـدافهم ونــوايـاهم . إنّهم يستخـدمـون الثـروة كـطريق لاستعبـاد الآخرين . . . ترىٰ معظم أوقاتهم مصروفة في العيش والبـذخ والترف ، من دون أن تعود ثرواتهم بالخير والفائدة على الضعفاء والمحرومين .

فبدلاً من أن تُصرف هذه الثروات في بناء المستشفيات ، ودور رعاية الأيتام ، والمؤسسات الخيرية ، تجدهم يقصرون همّهم على بناء القصور الفخمة ، وركـوب السيارات الراقية ، والملابس النفيسة . . .

إنّهم يصرفون أموالهم في طريق دحـر الشخصية الإنسـانية ، وسحق المُثـل .
ولقد بات من الطبيعي في العصر الحديث أن تستثمر رؤوس الأموال في بناء مصـانع الأسلحة الفتاكة ، وإنتاج آلاف الأفـلام السينمائيـة الخلاعيـة ، وتأسيس دور التـرف والبـذخ ، وبصورة مـوجزة في سبيـل الوصـول إلى كل مـا هو مُهلك ومُفسـد للنـوع البشري .

إنّ استغـلال الثـروة في الـطريق الصحيـح يمثـل السعـادة ، واستثمـارهـا في الـطريق الخاطىء يسـاوق الفناء والـدمار ، وسحق حقـوق مئات النـاس . وفي هذا يقول (جان جاك روسو) :

« إنّ جدران المُدن تُبنىٰ من أنقـاض أكواخ الفـلاحين ، ومتى شاهـدتم قصراً متطاولاً شامخاً ، فلا تنسوا أنّ جميع البيوت في ولاية كـاملة قد هـدّمت ليرتفـع هذا القصر عالياً » .

الشارح

والمستشفيات ، والجسور ، والآبار ، وتعمير الطرق ، ومئات المشاريع الاجتماعية والخيرية الأخرىٰ !! .

أمَّا إذا لم يخضع استغلال الثروة لتوجيهات الدين ، ولم يُستشر العقل في كيفية الاستفادة منها . . . فإنها تكون مدعاة للشر والفساد ، وتؤدّي إلى اختلال نظم الروح والجسد ، وتجرّ المجتمع والأمة إلى الانحراف والشقاء ، فتصرف هذه الثروة في بناء مراكز الفساد وبيوت الدعارة ، وتستغلّ في طريق اللهو والترف .

وكذا التمدّن !! .

الانتقال من حالة البداوة إلى الحضارة . . . نعمة عظيمة للنوع الإنساني ، بحيث لولا ذلك لبقي الإنسان معرّضاً لأخطار الوحوش الكاسرة ، وكان تحت رحمة الظروف البيئية القاسية ، ولظلّ محروماً من مزايا الحياة .

ويمكننا القول بأنَّ قيمة البشر تظهر في التمدّن فقط !!

أمَّا إذا لم تُرسَ دعائم التمدّن

والمجتمع على أساس قوانين الشريعة ، فإنَّ الهمجية والوحشيـة أشرف من هـذه المدنيـة سبعين مرة .

ومن أوامـر الدين : « عليكم بـالسواد الأعظم » .

أي يجب الانتقـال من حـالـة البـداوة إلى التحضّـر وسكنىٰ المدن ، فـإنَّ المـدن مراكز للعلم والمعرفة ، ومحاور للتكامل .

وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ **الأعرابُ أشدُّ كفراً ونِفاقاً ، وأجْدَرُ ألاَّ يَعلمُـوا حُدُودَ ما أَنزل الله** ﴾[1] .

فجعل السبب في كفر سكّـان الباديـة ونفاقهم ، ابتعادهم عن الأحكـام الإلـٰهية ، وجهلهم لمقوّمات الدين .

وبصورة موجزة فإنَّ التمـدّن والتحضّر يعتبران من موجبات كسب الكمال والوصول إلى جمـال الإنسانيـة ، كما أنهمـا يـوجبـان السلامة والأمان والاستقرار .

وكمـا نشـاهـد ، فـإنَّ هــذه الأدوات

---

(١) سورة التوبة/ الآية : ٩٧ .

والوسائل التي نستخدمها في حياتنا اليومية وليدة التعاون في المجتمع المتماسك .

علينا الآن أن نُمعن النظر ، ونحكم بإنصاف !!

هل يستطيع الأشرار المسيطرون على الكرة الأرضية أن يجتمعوا حول بعضهم ويتعاونوا على بناء هذه الحضارة ، من دون الاستعانة بقوانين السماء وبعيداً عن الإيمان بالمبدأ والمعاد ؟! .

لا شك أنَّ ذلك محال وممتنع !!

لقد كان هدفنا الأول من التمدّن ، أن نتعاون جميعاً ونعيش بمأمنٍ من الحيوانات المفترسة والسباع الوحشيّة . . . أن نبني لأنفسنا بيوتاً تحمينا من الأخطار ، ونعيش بين جدرانها في راحة وأمان ، يسودنا الاستقرار والدعة وراحة البال .

ولكن هل حقّقنا هذا الهدف ؟!
أين التمدّن ؟!
أين الراحة والاستقرار ؟!
بل أين الحرّية ؟!

إنَّ المتمدنين اليوم أشدّ ظلماً وقسوة

من الوحوش الكاسرة ، وإنَّ أبناء المُدن أعنف وأعتىٰ من حيوانات الغاب ، إنهم أشدّ خطراً من النمر والفهد !! إنَّهم أسفك من الذئاب والحيتان !!

هذه الجرائم ، والخيانات ، والاختلاسات ، والاغتيالات ، والاعتداءات ، والسرقات . . . تصدر من المتشدّقين بالمدنيّة . إنَّ مخالبهم ملوّثة بدماء الضعفاء والمساكين ، وأيديهم ممتدّة إلى أعراض البؤساء وشرفهم . . .

لماذا ؟!

لأنهم بعيدون عن الدين .

ولأنهم لا إيمان لهم ، ولا يعتقدون بالله واليوم الآخر .

وإلَّا فإنهم يعرفون كل شيء ، وقد أنهوا الدراسات الجامعية العليا .

إذن ، فالدين هو الذي يمنح المدن زينة ورونقاً ، وهو الذي يجعل كل أحد وكل شيء مفيداً .

الدين هو الذي ينتج الرحمة ، والمروءة ، والشفَقة ، والعطف ، والكرم ،

والسخاء .

الدين هو الذي يأمر المتمدنين بالتعاون الحقيقي ، والمواساة ، والمساواة ، الدين هو الذي يمنح حياة البشر حلاوة ولذّة .

وأخيراً فيا أصحاب المدنيّة وأنصارها!! لا فخر لكم ولا مزيّة من دون الدين والإيمان واليقين ، ولا شيء يفضّلكم على الوحوش . . . وهذا ما يذعن به جميع المثقفين الواعين . حتى المتمدنين أنفسهم يعترفون بكون مدنيّتهم زائفة وتطوّرهم واهياً ، وكما يقولون ، فإنَّ الزمام قد أُفلِت من أيديهم ، فلا يهتدون سبيلاً .

يا أنصار التمدّن الحديث . . .

أنصفوا ، فقد كان أجدادنا حين يعيشون عصر الهمجيّة ، كانوا يأوون إلى كوخ من طين ، أو يختفون في غار بين الصخور ، فيحفظون أنفسهم من شرّ الحيوانات المفترسة والسباع . . . أمّا في عصرنا الحاضر ـ عصر المدنيّة الذهبي ـ فإنّ الإنسان البائس حتى لو عمد إلى باطن الأرض وسكن أعماق الآبار والأنفاق ، أو

حلّق في الفضاء هارباً ، فإنه لا ينجو من سطوة المعتدين الغاشمين ، ولا يكون في مأمن من الوسائل الفتّاكة المهلكة .

لقد اكتشف علماء الكيمياء لمكافحة كل مرضٍ مصلاً ولقاحاً ، بحيث يفيد هذااللقاح لمرض واحد ، أمَّا الدين فإنه علاج لجميع الأمراض الروحية والجسمية ، وهو بمثابة مصلٍ أخلاقي لجميع الأسقام .

أجل ، فإنَّ المصل الذي صنعه خالق الموجودات ، والدواء الذي أنزله إله الكون لأهل الأرض شفاء لكل علة ، ينسجم مع مزاج كل فرد ومجتمع . . لكن بشرط توفّر عنصر الإيمان والعمل .

قال تعالىٰ : ﴿ **ونُنزِّلُ مِن القرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين** ﴾[1] .

ولعلَّ بعض العلماء يعترضون قائلين : إنَّ العقل الإنساني يكفينا في الهداية وإراءة الطريق الصحيح ، بل هو كافل لإيصالنا إلى المطلوب . إنَّه يتعرف على محاسن الحياة ومساوئها على

---

(١) سورة الإسراء/ الآية : ٨٢ .

الصعيدين الفردي والاجتماعي ، ويقوم بترجيح المحاسن على المساوىء، ويحلّ مشاكل الحياة ، فتنتظم أمور المدنية .

أقول : فلماذا لم يقم العقل بخطوة في هذا المجال ؟!

لماذا هو واقف مكتوف اليد ؟!

أجل ، فمن بين ملايين البشر يوجد سقراط واحد ، يتعرّف على الحقيقة بواسطة العقل ، أمَّا عامة الناس فإنهم يحتاجون إلى منهج إضافي ، وعاجزون عن تدبير شؤونهم بأنفسهم .

إنَّ كيانكم بمثابة سيارة أو سفينة أو طائرة ، تستطيع قطع الصحاري والبحار والفضاء المترامي الأطراف ، عابرة الوديان والمفاوز التي تحيط بالعالم ، لكن يستحيل عليها أن تتحرك من دون قائد ودليل .

الدين هو الصراط المستقيم ، والطريق القويم ، الذي يجب أن تكون حركة الوجود الإنساني كله على ذلك الصراط وهذا الطريق الإلٰهي . وهَبْ أنَّ العقل سائق ماهر وملّاح قدير ، إلَّا أنه يعجز عن قطع فيافي الحياة من دون دليل سماوي

ومرشد إلـٰهي .

إنَّ الـدين هو الـذي يعلّم فنّ القيـادة والمـلاحـة الجـويـة والبحـريـة لعقـولكم ، ويـرشـدكم إلى الصـراط المستقيم . هـذا الـرسـول البـاطني[أ] يستلهـم من رسـل الظاهر .

إذا لم يقتبس العقل في جامعة التديّن تفسير الكتب السماوية ، فإنَّه أشبه مـا يكون بشاب ذكي ويمتاز بمواهب إلَّا أنه لم يدرس ولم يتعلّم .

هذه هي الرمـوز المقدّسـة التي يجب أن يطّلع عليها الإنسان .

وها قد عرفتم السرّ في كـون الجرائم والاغتيـالات والاعتـداءات في المـدنيّـة الشـرقية والغـربيـة ، والمنتسبـة إلى عقـلاء متمـدّنين أشـدّ ممَّـا كـان عليـه في عصـر الهمجية وعصور ما قبل التـاريخ ، وممَّـا هو عليـه في غـابـات الكـونغـو ومجـاهـل الأمازون ؟!

(أ) المقصود هو العقل . المؤلف

السبب هــو ابتـعــادهم عـن الــدين والإيمــان ، وجهـلهم الـمـطلق لحـقــائق الإســلام ، وتنكّرهم للخـالق العـادل وليـوم الجزاء . . .

والسلام على من اتَّبع الهدىٰ





الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنَّ إرشاد الضالّ من أشرف واجبات الإنسانية .

﴿ كنتم خير أمَّةٍ أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[1] .

يقوم عدد من الأخيار والمحسنين المسلمين بدور الحفاظ على النظام والأمن العام بدلاً من الشرطة ، وهم لا يتقاضون راتباً أو أجراً على قيامهم بهذا الواجب[2] .

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ١١٠ .

(٢) من أركان التمدن المهمّة : رعاية واحترام الحريات الفردية ، والانتقاد الصحيح البنَّاء لأعمال الدولة من قبل الأفراد . لقد روعي هذا الجانب في الشريعة الإسلامية بصورة ممتازة .

يتجلّى الانتقاد الصحيح في الإسلام بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أعطي الأفراد الحق في الإشراف على سلوك الآخرين عن طريق هذه الفريضة الدينية ، ولكن بشرط معرفة المعروف والمنكر ، وتوفر سائر الشروط المبيّنة في الفقه . =

إنَّهم يرشدون الناس إلى الطريق الصحيح ، ويمنعونهم من السير في طرق

= يعتبر العمل حراً في العالم الأوروبي ، إنَّما تكتفي الدولة باستيفاء الضرائب من الدخل السنوي ، ولكن الحالة تختلف عن ذلك في الإسلام ، إذ يشترط في العمل أن لا يكون ممنوعاً ، وأن لا يكون ضمن دائرة المكاسب المحرمة .

فالكسب الذي يؤدّي إلى هدم الفضيلة وإشاعة الرذيلة غير مباح في الإسلام ، فمثلاً لا يحق لأحدٍ أن ينشىء مراكز للقمار أو لبيع الخمور في الدولة الإسلامية . ومن حق المسلمين أن يعترضوا ويُعلنوا عن رفضهم لذلك ، إذ يحق للجميع في حدود الوعي والفهم الصحيح لقوانين الإسلام أن يعارضوا نشوء المراكز التي تدعو إلى الفحشاء والمنكر .

ففي النظام الإسلامي تمتاز الدولة بقوّتها وتمتّعها باحترام الأفراد وطاعتهم ، كما يمتاز أفراد الشعب بالإشراف والمساهمة في إدارة دفّة الحكم .

إنَّهم يستطيعون أن يقدموا احتجاجاً ، أن يعترضوا ، أن يناقشوا في صلاحية بعض الأعمال التنفيذية ، وكنموذج على ذلك نسرد القصة التاريخية الآتية :

لقد اتَّفق الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مع امبراطور الروم على الهدنة والتخلّي عن الحرب مع المسلمين ، فكتب امبراطور الروم رسالة بهذا الشأن إلى عمر وأرسلت زوجة الامبراطور مجموعة من الهدايا إلى زوجة عمر ، فقابلتها زوجة الخليفة بإرسال شيء من العطور واللوازم النسائية إلى ملكة الروم ، وكان من بين الهدايا التي بعثت بها ملكة الروم عقد ثمين . جاء عمر بالهدايا كلها إلى المسجد وطرح الموضوع أمام المسلمين ، فقال بعضهم : إنَّ هذه الهدايا تعود إلى زوجتك ، في حين عارض البعض الآخر قائلاً : إنَّ هذه الهدايا قدّمت إليها بعنوان أنها زوجة خليفة المسلمين فيجب أن تضمّ إلى بيت المال .

ولقد ارتضىٰ عمر هذا الرأي وأمر بأن يضم العقد وسائر الهدايا إلى بيت مال المسلمين ، ثم أخذ من بيت المال قيمة تلك الهدايا وسلّمها لزوجته .

الشارح

الشقاء ، وينقذون المجتمع من النكبات العديدة بشتّىٰ الوسائل ، آملين في جرّهم نحو السعادة والرقيّ ، ورأس مالهم في ذلك كله هو الإيمان بالله واليوم الآخر فقط .

إنَّ القرآن الكريم يمدح الأمة الإسلامية في الآية المارّة الذكر لهاتين الخصلتين ، كما يأمرهم في آية أخرى بوجوب القيام بهذا الواجب الديني المقدس .

يقول تعالىٰ :

﴿ ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . . ﴾[1] .

إنَّ المؤمن المنصف والواعي يبدأ بنفسه وأعضائه وجوارحه فيأمرها بارتكاب الخير والمعروف ، وينهاها ويحذرها عن الشر والمنكر .

أيّتها العين الباصرة :

يا شمع مجلسنا العامر ، لقد خلقك

(١) سورة آل عمران/ الآية : ١٠٤ .

الله البارىء المصوّر لأجل القراءة والكتابة ، لتكــوني أداة للتعليم والتعلّم ، واكـتســاب الفضيلة . . خلقـكِ لتلاوة صفحـات الكتب السمـاوية ، وأوراق المجـاميع والكـراسـات العلمية . . .

خلقكِ لمشاهدة جمال الوالد الـرحيم والأم الحنون ! !

خلقـكِ لـلاستفـادة من النـظر إليهمـا وإلى الأهـل والأولاد والأصـدقــاء والعلمـاء العاملين والمؤمنين المتّقين ، خلقك للتمتّـع بمجـالســة أهـل المعـرفـة ، والاشتـراك في محافل الأنس .

خلقكِ للنظر إلى المناظر الجميلة في الأرض والسماء .

فــلا ينبغي لـــك ـ إذن ـ أن تشتـغلي بـالنظر إلى غيـر المحارم ، وتخـوني عرض الإخـوة في الإيمـان وتعـرضي وجـودك إلى الأمواج المتلاطمة ، والزوابع الثائرة .

* * *

أيّتها الأذن السامعة :

يا أعظم حـاسّة في الجسـد ، يا أهـم

وسيلة لكسب العلم والمعـاش ، ينبغـي أن تتعـرفي على الألحان السمـاوية ، وتعتـادي على أصوات الأنبياء وعظماء الأخلاق .

يـجب أن تـدقّ طبـلة الأذن أمـواج الملكـوت والهدايـة ، ويُثير أعصـابهـا نسيم الإلهام والرشاد .

ما أبعدكِ عن استماع الألحان المثيـرة للشهوة !!

ومـا أغناك عن ألحـان أهـل الفسـوق والمعاصي !!

إنّ مجـالس العبث والغيبـة واللغـو محرّمة عليك ألم تسمعي قول الله تعالىٰ :

﴿ والّـذيـن هـم عـن الـلغـو مُعرضون ﴾[1] .

* * *

أيُّها اللسان الناطق :

أيهـا العضـو الـذي يعبّـر عن ضميـر الإنسـانية ، والـذي بـه يحصـل التمييـز بين الإنسـان والحيوان ، عليـك بالاجتنـاب عن الكـلام الذي لا يفيـد ، واحذر من الكـذب

---

(١) سورة المؤمنون/ الآية : ٣ .

والبهتان والغيبة والسباب وقول الزور .

لقد جُعلت للتعليم والتعلّم ، خُلقت للموعظة والنصيحة ، وتربية الجهّال وجلب مودّة الناس ، وتليين العواطف بالكلام الهادىء اللين .

اعرف قدرك ولا تبذّر طاقاتك . . .

* * *

أيّتها اليد المقتدرة ، وأيّتها الرِجل المتحركة :

أنتما أداتان لنصرة الضعفاء ومساعدتهم وإنقاذهم ، حذارِ أن تبطشا بمسكين أو ضعيف !!

حذارِ أن تركلا بائساً !!

لا تصفعي أيتها اليد رأس يتيم ، ولا تدوسي أيتها الرِجل على نملة . . .

لا تدخلي في دار مغصوبة ، ولا تسوقي صاحبك نحو الفساد . لا يصدر منكِ إلاّ التصرف الصحيح اللائق .

* * *

ويا عاصمة مملكة الجسد[أ] .

يا أشرف عضو في بدن الإنسـان ، يا مسيّـر عجلة الـجسـم ، يـا أيهـا الـبيت الحرام . . .

يا موطن التكبير !!

ويا جوهر التوحيد !!

إنَّ مقامكم أسمىٰ من أن يكون موطناً للأوثان ، ومركزاً لحبّ الأوباش . . .

ليس الحـقـد والعـداء ، والـبخـل والحسـد ، والجبن والانتـقـام ، والكـبـر والغرور من اختصاصك . . .

إنَّك منزل المحبوب ومأواه ، فعليـك أن تزرع في داخلك نبتة المحبة .

إنَّـك الكعبـة لسـائـر الأعـضـاء والجـوارح ، فيجب أن يـطهـر فضـاؤك من التصورات والأفكار القبيحة ، ومن الشرك ، وينبغي أن يعمـر بالتـوحيد ، وحبّ الحق ، والكـرم ، والشجـاعـة ، والصبـر والحلم ،

(أ) المقصود هو القلب .

المؤلف

والعاطفة والحنان ، فإنها براهين وجودك وآياتك .

* * *

وهكذا بعد أن ينتهي المؤمن من تهذيب نفسه ، يهتمّ برعاية الأهل والأولاد والعشيرة ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

يجب أن يدرّب الأطفال من فترة الرضاعة والطفولة على الصدق والاستقامة والإيمان ، ويدعوهم إلى الفضائل والحسنات ، فتربية الأولاد ومن يتولّىٰ الشخص أمورهم تعتبر من أهم الواجبات الإنسانية في هذه الدنيا ، ومن أشدّ العقبات في الآخرة .

قال تعالىٰ :

﴿ يَـٰأَيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودُها الناس والحجارة . . . ﴾[1] .

---

(١) سورة التحريم / الآية : ٦ .

لقد ورد في الحديث أنَّ الولد يمسك بتلابيب أمّه وأبيه يوم القيامة ويشكوهما لدىٰ محكمة العدل الإلٰهي لتقصيرهما في تربيته على المنهج الصحيح . حتّىٰ انه يشكوهما في التسمية ، فلماذا لم يختارا له أسماء الأنبياء والأئمة والصالحين ، وتركا ذلك إلى أسماء أهل الشرك والنفاق ؟!

* * *

وأمّا في المرحلة الثالثة :

فيجب على جميع أفراد الأمة الإسلامية أن يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، مع مراعاة الشروط التي أهمها أن يكون الأمر بالمعروف عاملاً به ، والناهي عن المنكر مرتدعاً عنه ، فإنَّ الله تعالىٰ يقول في كتابه المجيد مهدّداً :

﴿ أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم ﴾ [1] .

إنَّ السبب الرئيس لعدم تأثير مواعظ كثير من الخطباء والوعّاظ في الجماهير هو

---

(١) سورة البقرة/ الآية : ٤٤ .

عـدم رعايتهم لهـذا الشـرط . بـل إنَّ هـذا الفسـاد الشـامـل والحـركـة التشكيكيـة في العقائد وأصـول الإيمان ، التي تسيـطر على المجتمع الإنساني مـردّه إلى الوعّـاظ الذين لا تتفق أفعالهم مع أقوالهم .

والشـرط الآخـر هـو العلم بمـوارد المعروف والمنكر ، وإلَّا فعلىٰ الشخص أن يمتنع عن أداء هذه المهمة الرسالية .

فقد يُقدم الجاهل على الأمر بالمنكـر والنهي عن المعروف. . .أو يكون المجلس غير مستعـدّ للتقبّل غيـر مؤهـل للصـلاح ، فـلا يلقىٰ التأثير المـطلوب ، بل قـد يثمر ضـرراً بدلاً من النفع والفائدة .

لقد صادفت خطيباً ينفعل وينزعج من رائحـة الدخـان أثناء حـديثـه على المنبـر ، ولكنـه كـان يثيـر الصخب والفـوضىٰ أثنـاء مواعظ زميل له بأصـوات النرجيلة التي كـان يدخّنها .

قـد يتأثّـر الخـطيب من سمـاع كـلام هادىء لأحد المستمعين أثناء حديثه ، ولكنَّ ارتفاع صوتـه بالقهقهـة وسط حديث خطيب غيره من عاداته التي لا تنفكّ عنه .

لا تـنـــهَ عن خُـلُقٍ وتــأتـي مـثـله
عــارٌ علَيــك إذا فعلت ، عــظيمٌ
ابـدأ بنفسـك فــآنهها عن غيِّهــا
فــإذا انتهت عنــه فــأنـت حكـيم

* * *

ولا ننسىٰ دور الخــطبـاء الــرسـاليين والمتّعظين ، الذين يرتفع مستـواهـم العلمي إلى درجـة جيـدة ، وتتــطابق أفعـالهم مــع أقوالهم أيضاً .

وفّق الله الجميع للعلم والعمل الصالح





الـدنيـا سجـن المـؤمن ، وجـنّـة الكافر .

إنّ تـفـسـيـر هـذه الـجـمـلة العظيمة ، بـالصورة المقبـولة عنـد الخواص والعوامّ ، هو أن الحيـاة الدنيـا مع وصفهـا المشاهد لو قيست بالمقام الأخروي للمؤمن حيث مقـرّه الـدائم هنـاك ، فهي تشبـه السجن[1] .

(١) الإِهتمام بالحياة الدنيا يشغل بال كثير من المفكرين ، فان ظـاهرة الحيـاة تستحق الاهتمـام من الجـوانب المختلفـة . فبعضهم ينـظر إليهـا بـالمنـظار المـادي والطبيعي فقط ، ويتصوّر أن الحياة هي الأكل والنوم ، والطعـام والشراب ، وارضـاء الشهوة والغريزة .

ويتصور البعض الآخر أن الحياة حقيقة يجب أن تسير الموجودات نحوها حتى تكون أهلاً للادراك والعلم والقدرة .

أما في المنطق الـديني فان الحيـاة تفسّر بشكـل آخر ، انهـا عبارة عن مـزرعة الآخرة . أي أن كل عمل صالح أو طالح تظهر نتيجته في الآخرة ، وعالم الآخرة من السعة بحيث لا تعدّ الدنيا بالنسبة إليه إلّا سجناً ضيقاً .

أجل ، فان الإِنسان أسير شهواته وغـرائزه في الجـانب الحيواني ، وعلى هـذا فاذا نظرنا إلى الحياة من هذه الزاوية ، فانها لا تعدو كونها سجناً موحشاً . =

وحتى لو كانت حياة هذا العارف بالله هادئة ونيّرة ، ومليئة بالأفراح والمسرّات ، وخالية من المشاكل والهموم والمصائب ، فانها بالقياس إلى جنّة الخلد التي يصفها القرآن بقوله : ﴿**وجنة عرضها السماوات والأرض**﴾ ، تشبه سجناً ضيّقاً مظلماً !!

وعلى عكس ذلك تماماً الكافر وصاحب السلوك الرديء ، فانه مهما كانت حياته مليئة بالمشاكل والمصائب ، ومحاطة بالمآسي والشقاء ، لو قيست بالعذاب الأبدي والجحيم ، تُعتبر جنة ورخاءً .

= وفي هذا الصدد يروي الإمام الحسن العسكري عن آبائه عن جده علي بن أبي طالب عليه السلام قوله :

« والصراط المستقيم هو صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة .

وأما الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلوّ ، وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل ، وأما طريق الآخرة فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة » .

إذن فالتعادل بين الغلوّ والتقصير مطلوب في الشريعة ، والذين يختل توازنهم فينجرّون الى الإنحراف ، ولا يتورعون عن أي جريمة في سبيل تحقيق مشتهياتهم لا طريق لهم إلى الجنّة .

إن هدى النفس والغرائز والشهوات تشبه الجحيم المشتعل الذي يحرق كيان الإنسان ، ويؤدي إلى السقوط والتسافل .

ولذا ينبغي للعاقل اللبيب أن لا ينخدع بمظاهر الحياة الخلاّبة , بل يفكّر في العالم الأرحب للآخرة حيث الحياة الأبدية والخلود .

الشارح

كان الإمام الحسن المجتبى سلام الله عليه يمرّ ذات يوم في أزقّة المدينة المنورة ، في موكب حافل بالعظمة والجلال ، حيث المركب الفاخر والمرافقون في وقار وبهاء ، وإذا بيهودي مسكين بائس ، عليه ملابس رثّة يعترض طريق الإمام .

قال اليهودي للإمام الحسن (ع) :

لقد قال جدّك أن الدنيا سجن لكم أنتم المؤمنون ، وجنّة لنا نحن الكفار ، ولكن انظر إلى وضعنا في الوقت الحاضر ، فهو على العكس تماماً ، فأنت في عزّك ونعمتك ورخائك ، وأنا في بؤسي وشقائي ومحنتي !!

فأجابه الإمام الحسن عليه السلام :

إنَّ هذه الدنيا التي تعجبك تُعتبر سجناً وجحيماً بالنسبة إلى الدرجات العالية التي وعدنا إياها الباري جل وعلا في الجنّة . . . وهذا الوضع المزري الذي أنت عليه يُعتبر فردوساً ونعيماً بالقياس إلى السجّين ودركات الجحيم التي هي المقر الدائم للكفّار والمنحرفين .

فهذا يؤيد صدق ما قاله جدي رسول

الله صلّى الله عليه وآله .

* * *

وللجملة التي ذكرناها في مطلع الحديث معانٍ وتفسيرات أعظم وأدقّ مما ذكر .

منها : إنَّ المؤمن حليف المصائب والمشاكل في الدنيا !! وكأن الخالق الحكيم شاء أن يكون أحباؤه محاطين بالبلاء والمحنة في حياتهم دوماً .

إنَّ عليهم أن يرزحوا تحت وطأة البلاء !

وكما جاء في الحديث القدسي : « **مَنْ أحبّني فليستعدّ للبلاء** » .

وفي المثل المعروف : البلاء للولاء .

فكما يهدي النَّاس إلى بعضهم البعض هدايا وتُحف ، يهدي الله تبارك وتعالى لعباده المقربين البلايا والمصائب .

من الواضح إذن أن تكون هذه الحياة الفانية سجناً ودار مصائب للمؤمن ، وإذ يتحمّل هذه المشكلات والمِحَن بقوة الإيمان وبالصبر واليقين ، فانه يلاقي بعد الموت عالماً رحباً من الألطاف الإلّهية .

إلتقى مَلَكـان في الفضاء ، فسـأل كلّ منهما عن الواجب الذي كلّف به الآخر !

فقال أحدهمـا : تمنّى كافـر لحظات موته سمكة نادرة ، فـأمرني ربّ العـزّة ، أن أحضـر له تلك السمكة النـادرة من البحار البعيدة حتى يتناولها .

وقال الآخر: لقـد حصـل مؤمن على الزيت الذي كان يشتهيه لحظة موتـه ، وكان يريد تناوله ، فأمرني الباري جلّ جـلاله بـأن اكفىء إناء الزيت على الأرض بجناحي !!

هكذا يعامل الله تعالى محبّيـه بالبـلاء والمحنـة !! ولا نصيب للكافـر والملحد في شيء من هـذا القبيل . . . إنـه خـائض في لهوه ولعبه .

وأقول :

عندما يمتحن الباري جلّ وعـلا عباده المـطيعين وأهل الإيمـان بأنـواع المصـائب والمحن فذلك عين اللطف والرحمة .

إن الإنـســان إذا احـتـضـن الـثـروة والصحة والمقام فسيُصاب بالغرور ، سيتجه نحو الطغيـان !! سيبدأ خـطواته نحـو الظلم والتعدي ، وسينسى ربّه . . .

بل يقتدي بفرعون في قوله (أنا ربّكم

الأعلى) . . . ويشقى في الدارين ويصاب بالخسران المبين !!

وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم في قوله :

﴿ إنّ الإنسانَ ليطغىٰ أن رآه استغنىٰ ﴾[1].

أما لو وقعت هذه النفس الشرسة في وادي البلايا والمصائب ، وواجه الإنسان الغافل أنواع المحن وضروب المآسي ، فأصيب بالمرض والبؤس والفقر والوحدة والغربة ، فانه سيبحث عن العَون والعضد . . .

وحيث لا يجد ضالته في أمثاله وأقرانه يصاب باليأس ، ويتوجه إلى ما وراء الطبيعة ، فيتعرف على مسبّب الأسباب ، والبارىء الخالق المصوّر سبحانه .

إنه كلما يشاهد من الدنيا وأهلها ظلماً وجفاءً يقترب إلى الله أكثر، ويتوجه بحاجاته إلى قاضي الحاجات يسأله قضاءها . وبذلك يضمن السعادة لنفسه أيضاً ، لأن القلب المنكسر مهبط رحمة الله ، ومحطّ العناية الربانية ، وهذا هو

---

(١) سورة العلق /الآية : ٦ـ٧ .

أعظم ما يناله العبد عند دنوّ الله تعالى منه .

ففي الحديث القدسي :

« **أنا عند المنكسرة قلوبهم** » .

أجل ، فلا يوجد مقام أسمى ، ورتبة أعلىٰ من أن يحطّ سلطان الكونين ، وخالق العوالم كلّها في الكوخ المتواضع لهذا الفقير البائس الذي لا يملك شيئاً !! وفي الحقيقة ما ذلك كله إلّا من نفحات البلاء والمحنة .

* * *

معنى ثالث من معاني هذه الجملة العظيمة هو أن نفس المؤمن سجينة في قلعة الإيمان ، ومقيّدة بأغلال التكاليف الشرعية وقيود العبودية ، على خلاف الكافر الذي يعيش حياة الإنفلات والحرية .

يلتزم المؤمن عدة مرّات يومياً بالإعراض عن كل شيء في أوقات الصلوات اليومية ، والتوجّه إلى محراب العبودية للمثول بين يدي الرَّحْمٰن . كذلك يقضي شهراً كاملاً من السنة (شهر رمضان) في العطش والجوع نهاراً والدعاء والإبتهال ليلاً . . .

إنـه يؤدي الخُمس والـزكـاة ، ويقـوم بالحج والجهاد . . .

ويلتـزم بالـواجبات الأخـرى وبسـائـر المستحبات ، بل إن جميع ساعـات المؤمن ودقـائقه ، وأقـواله وأفعـاله خـاضعة لمنهـج دقيق تنظمه الشريعة الإلّهية .

إن أعضاءه وجوارحه الخاضعة لإرادته يجب أن تنقـاد لأوامر الله تعـالى ، فلكل من العيـن والأذن واللســان والـيــد والــرجــل واجبـات[أ] ، فعين المؤمن لا يحقّ لهـا أن تمتـدّ إلى الأجنبية أو تنـظر إلى مـا هـو حق لـلآخــريــن ، الـلســان مـمـنـوع عــن الـغـيـبـة ، ومـحـجـوز عــن الـسـبّ والـقــذف ، ومـحــظور عــليـه الـكــذب والبهتــان . . . الأذن يجب أن تـرتــدع عن

(أ) لقـد نظّم الإسـلام حدود وحقـوق كلّ عضـو من أعضاء الإنسـان بصورة دقيقة وواضحة .

وترى في (رسالة الحقوق) للإمام السجّاد علي بن الحسين عليه السلام وصفاً شاملاً لواجبات كل عضو ، وكيفية استخدامه في المهمّة المنوطة به .

إنـه سلام الله عليـه يرسم ـ بـدقة ـ أسـاليب ممارسـة الإنسان حقـوقه الفـرديـة والاِجتمـاعية ، المـالية والمعنـوية ، إذ لكـل عضو من بـدنه حقـاً عليه ، فهـذا حق اللسان ، وذاك حق العين ، وذلك حق السمع . . . الخ .

وإذا أردت التفصيـل فـراجـع (الـخـصــال) لـلشيـخ الـصــدوق ، بــاب الخمسين ، و (بحار الأنوار) للعلامة المجلسي ضمن تاريخ حياة الإمام السجاد عليه السلام .

المؤلّف

سماع الأكاذيب والألحان المثيرة للشهوة .

حتى الضحك العالي والقهقهة من الأمور التي يُحاسب عليها المؤمن ! !

وأخيراً فقلبه يجب أن يقترن بالنية الطاهرة ، ولا يخطر بباله إلاَّ الفكر النيّر الخيّر .

قال تعالى :

﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم ، إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾[1] .

والأهّم من ذلك أن المؤمن عندما يعترض طريقه في أداء العبادات اليومية أو الليلية مانع ، فكأنه على أحرّ من الجمر ليزيل ذلك المانع ، ويجدّ بكل قواه للتخلّص من هذا العائق حتى لو كان ربحاً مادياً عظيماً ليتفرغ للعبادة .

ولو زلّت قدمه فقام بعمل غير مباح في الشريعة فانه يكاد يتفجر همّاً وغماً تحت وطأة الضمير والوجدان الحي ، ويعضّ على أنامله نادماً على ما صدر منه . . . على خلاف الكافر الذي يجد نفسه طليقاً إزاء هذه القيود والحدود ! !

---

(١) سورة الاسراء/الآية : ٣٦ .

لهذا صحّ قول رسول الله (ص) :

« الـدنيـا سجـن المـؤمن ، وجـنّـة الكافر» .

وهناك قصص وحكايـات عديـدة تؤيد هـذه الحقائق وتـدعمهـا في كتب الحـديث والسيرة .

* * *

ومن معاني هذه الجملة الناصعة : أن الإنســان المؤمن الــذي يــطلب النعيم في الآخرة والتقرّب إلى الباري جلَّ وعلا، يجب أن يشتغـل بخدمـة الـدين وخـدمـة إخـوانـه المؤمنين والمجتمـع الانسـاني ، ويحمــل هموم أبناء جنسه ، ويتصدى لقضـاء حوائـج الموحدين ، بل يتعاطف مع قضايا الآخرين وهمومهم .

عليه أن لا يضيق ذرعـاً بــالتضحيـات والجهــود في هـذا السبيــل فكمــا ورد في الأثر :

« الجنّة حُفّت بالمكاره» .

إن القيام بهذه المهمّة الخطيرة يستلزم جهوداً كبيرة ، ويقترن بالتعب والأذى ، ولـو قيس بمن لا يهتم بشؤون الآخـرين فهو في سجن !!

لكن التفسير الأعمق والبيان الأرقى لهذه الجملة أن الدنيا نفسها حجاب سميك بين المؤمن وحضرة الربّ تعالى ، لذلك فان الذي يبلغ الكمال في حبّه لمولاه ، غايته القصوى ، ومُنيته السامية هي البلوغ إلى مقام الوصال مع الحبيب !!

عندئذٍ يرى الحياة الفانية ضيقة ومظلمة ، فهي تشبه السجن، ولا يريد المؤمن في تلك الحالة شيئاً غير لقاء ربه الكريم .

كان شعيب النبي عليه السلام يبكي ليله ونهاره حتّى فقد بصره ، فأعاد الله تعالى بصره إليه ، ومع ذلك فقد بصره من شدّة البكاء ، وهكذا منّ الله عليه بالنظر حتّى المرة الرابعة . . . وعندها خاطبه الرب الجليل قائلاً : يا شعيب ، إذا كان بكاؤك خوفاً من النار فقد حرمت الجحيم عليك ، وإذا كان شوقاً إلى الجنّة فقد وهبتك النعيم الأبدي فيها . . . أما آن لبكائك أن ينقطع ؟!

فأجاب شعيب : ما دمت لم أودّع الدنيا ولم أنل لقاءك فسأبقى دائباً على هذا العمل ، فليس بكائي جزعاً من النار ، ولا لوعتي شوقاً إلى الجنة !!

وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام ، لمّا ضربه ابن ملجم المرادي على هامته بسيف مشرّب بالسمّ ، نادى بأعلى صوته :

« **فزت وربّ الكعبة** » .

يعني أنه تخلّص من سجن الدنيا ، وفاز بلقاء الحبيب !!

أما ولده سيد الشهداء عليه آلاف التحية والثناء فإنه كان يناجي ربّه يوم عاشوراء وهو في مصرعه ، والمحن والمصائب حافّة به من كل جانب ، فكان يقول في الساعات الأخيرة من حياته الشريفة :

تركت الخلق طرّاً في هواكا
وأيتمت العيال لكي أراكا
لئن قطّعتني في الحبّ إرباً
لما مال الفؤاد الى سواكا

* * *

وفي الحقيقة فان الدنيا الفانية تعتبر لأهل اليقين سجناً وحصاراً مقيتاً .

إن الجسد الذي يطالب بالطعام واللباس دائماً ، ويستدعي منهجاً للمأكولات والمشروبات ، ويوجّه همّ صاحبه نحو النوم

والـراحة والغفلة واللهـو واللعب ، ويحصـر اهـتـمـام الإنـسـان فـي الـصـحـة والسقم ، والـراحة والتعب. . . حـائل كبيـر بين المحبّ وحبيبـه . . . بـل هـو أسمـك الحُجب !!

وكما قال الشاعر الإيراني :

إن حجـاب القـوام الـظاهـري غبـارُ يغطّي جسدي .

فما أحلى تلك الساعة التي ألقي فيها هذا الحجاب جانباً .

إن هـذا القفص الضيّق ليس عـشـاً لطائرٍ غرّيدٍ مثلـي .

إذ عليّ أن أطير إلى روضة الخلد، فأنا طائر تلك البساتين .

* * *

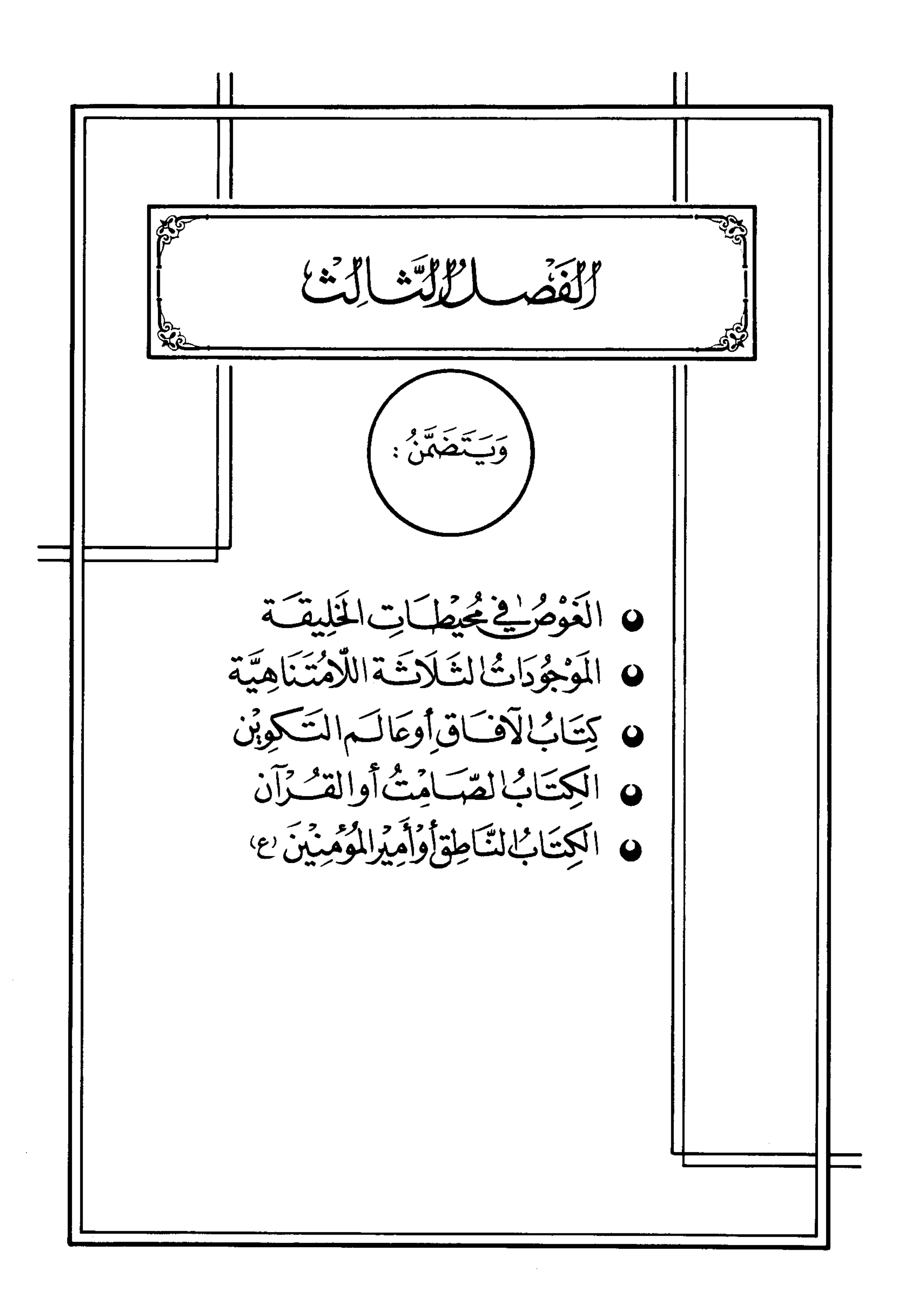
وقـد ورد عـن أبي الـحـسـن عـليـه السـلام : « **الـدنيـا سجن المؤمن ، والقبـر حصنه ، والجنة مـأواه. والدنيـا جنة الكافر، والقبـر سجنه، والنار مأواه** » .

علمـاً بأن لقـاء الربّ تعـالى لا يتيسّر بـالصورة الحسنـة إلاَّ مـع الإيمـان الكـامـل والعمـل الصالـح ، وإلاَّ فـان لقـاءه يـوجب الحسرة والندم.

﴿ فمن كـان يرجوا لقاء ربّـه فليعمل عمـلاً صـالحـاً ، ولا يُشـرك بعبـادة ربـه أحـداً ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف / الآية : ١١٠.



الفصل الثالث

وَيتضمّن :

- الغوص في محيطات الخليقة
- الموجودات الثلاثة اللامتناهية
- كتاب الآفاق أو عالم التكوين
- الكتاب الصامت أو القرآن
- الكتاب الناطق أو أمير المؤمنين (ع)





الغوص في محيط الخليقة

قال تعالى :

﴿ ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلاَّ بما شاء ، وسع كرسيُّه السَّمٰوات والأرض ﴾[1] .

الغوّاص الذي يريد النزول إلى أعماق البحر ليطّلع على ما يوجد هناك ويحصل على الذخائر في قاع المحيطات ، مهما كانت قواه الجسمية عظيمة فانه يبدو ضعيفاً وعاجزاً في مواجهة ضغط الكميات الضخمة من الماء المتراكم على رأسه، ولا يكون لجهوده أثر سوى التعب واليأس .

لقد وفقني الله سنة ١٣٦٤ هجرية لحج بيته الحرام وزيارة المدينة المنوّرة عن طريق الكويت . وفي طريق العودة ذهبنا إلى مدينة (الهفوف) بدعوة من أصدقائنا الأحسائيين . لقد كان في ضواحي تلك

---

(١) سورة البقرة /الآية : ٢٥٥ .

المدينة عيون غزيرة وينابيع كثيرة المياه .

وذات يوم كنت استحمّ في واحدة من تلك العيون ، التي كانت تسمى بـ (الأخدود) ، وكان الإخوة المضيّفون يسبحون . . . كان كل واحد منهم يغوص إلى أعماق العين التي كانت تبلغ حوالي خمسة عشر متراً ويقترب من منبع العين ، ثم يعود إلى سطح الماء .

لقد كنت أجيد السباحة ، لكن لم تكن لي خبرة بالغوص . فلما رأيت أصدقائي يغوصون في تلك المياه إلى قعر العين حصلت لي رغبة في الإنحدار تحت وابل المياه الصافية ، والوصول إلى الحصى الصغار الخُضر التي كانت في قعر الأخدود .

اتجهت الى الأسفل بعزم راسخ ، لكن ضغط الماء أخجلني وأجبرني على العودة إلى سطح الماء من عمق متر واحد . وكلما حاولت مرة ثانية وثالثة ازداد ضعفي وعجزي .

لقد أحدث ضغط الماء صداعاً شديداً في كياني ، كنت أشعر أن رأسي ينفجر . . . وأخيراً تملكني الخجل واستولى عليّ الذهول فوجمت واقفاً في مكاني .

وعندما استعدت وقاري سألت شاباً قريباً مني ، كان ماهراً في السباحة ، وكان يقفز من مترين أو ثلاثة امتار إلى داخل الماء ويقوم ببعض الحركات الفنية : كيف تتغلبون على ضغط الماء ؟! في حين أن قحف رأسي يكاد ينفجر ؟!

تبسّم بوجهي ، وأجاب بلحنٍ مؤدب : إننا نغوص أحياناً في الخليج وبحر عمان سعياً وراء اللؤلؤ ، وننزل إلى أعماق ثلاثين متراً ، ونستخرج من تلك الأعماق اللآلي الثمينة .

في بعض السنوات نذهب إلى جزيرة السيلان ونستفيد من مزارع المحار هناك ، وننزل إلى مسافات أعمق . .

وأنتم تستطيعون ذلك أيضاً ، وتقدرون على تحمّل النَفَس العميق فالنزول إلى الأعماق ، إلاّ أنه يجب أن يتمزق الغشاء الذي داخل الأذن حتى يتم التغلب على ضغط الماء .

قلت : وكيف يتم تمزيق الغشاء الداخلي للأذن ؟

قال : انه سهل جداً ، لا تخافوا من الصداع ، وعليكم بمقاومة الضغط الداخلي قدر المستطاع ، إلى أن يظهر عِرق في

الجبين، عند ذاك عليكم بضرب لكمة قوية على ذلك العِرق . . . فيتمزق الغشاء الداخلي للأذن ، وتستطيعون الغوص إلى أعماق الماء .

علماً بأن ذلك لا يضر حاسّة السمع ، فان أغشية آذان كل الغوّاصين ممزقة ، وما أن اكمل حديثه هذا حتى سدّ فمه وأمسك بأنفه وتنفّس نَفَساً عميقاً ، وعندما أخذ الزفير يخرج من رئتيه خرج صوت خاص من أذنيه . وكان يدعي أنه لم تصب سامعته بأذى .

عند ذاك أعرضت عن الغوص ، ولم أجد ضرورة لتمزيق الغشاء الداخلي لأذني .

* * *

فيا أيها الحكيم ، إن الغوص في محيطات الخليقة كذلك تستوجب ضرب لكمة قوية في البداية إلى الجبين ، وتمزيق غشاء الفكر .

بعد ذلك إذا عملت باجتهادك الشخصي ، وبدأت السير والسلوك بنفسك فانك ستصاب بالذهول في مقابل الكميات المتراكمة من الماء والظلمات . . . أما إذا كنت خاضعاً لتوجيهات المعصوم ومستفيداً

من تعليمات ملّاح محيطات عالم الإمكان ، فانك تقدر على الغوص في الأعماق والوصول إلى النتائج باماان .

وكما نشاهد غواصي العصر الحاضر يغوصون إلى أعماق المحيطات بفضل الغواصات الضخمة ، ومع ذلك لا يحتاجون إلى تمزيق الغشاء الداخلي للأذن ، فان عملية الغوص تسهل بمعونة الأدوات الفنية واستخدام الأجهزة التي توصّل اليها العلم الحديث مع الأساليب والتعليمات الدقيقة للمتخصصين في هذا المجال .

إذن ، فالغوص في محيطات الخليقة ، واكتناه اسرار عالم الوجود غير ممكن من دون دلالة **(الأدلّاء على الله)** .

لقد أصيب كل من أفلاطون ، وأرسطو، وبوخز ، وداروين، ونظراؤهم من فلاسفة الشرق والغرب بصداع شديد مؤلم، أثناء غوصهم في أسرار المعارف، لقد اعترتهم الحيرة ، وانتابهم القلق . . . ضربوا لكمات قوية على جبينهم ، ومزّقوا غشاء آذانهم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الغوص أكثر من المسافات القريبة ، فلم يصلوا إلى الحقيقة .

. . . وكانوا من الغارقين التائهين ! !

أجل ، فان حقائق الخليقة ، ورموز الكون المودعة في أعماق الآفاق والأنفس لا يمكن التوصل اليها إلّا بتعليم الرسل والأنبياء الذين تلقّوا علومهم في **جامعة الجبروت** !!

ورغم سرعة حركة الخيال (إذ قبل أن يصل ضوء الشمس بسرعته الفائقة الى الأرض ، فان الخيال يستطيع أن يصل إلى أبعد من تلك المسافة بسبعين مرة) فانّه عاجز عن الوصول إلى أعماق الكون ومعرفة أسراره ودقائقه !!

وحتّى الوهم !! مع ما هو عليه من سرعة الإنتشار ، والحرص الاكيد على التتبع مثل الشياطين والأبالسة التي تريد الإطلاع على أخبار السماء ، أو تسترق السمع من حديث ملائكة سرّ عالم الوجود، فانه يعود خاسراً ، وقد أصيب بشهاب الردّ واليأس ، وعاد بسرعة أشدّ من البرق الخاطف ليرتطم بأرض الطبيعة . . .

﴿ إلّا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين ﴾[1] .

﴿ ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾[2] .

---

(١) سورة الحجر /الآية : ١٨ .

(٢) سورة الملك / الآية : ٤ .

حتى روح ذلك النبي العظيم ، لم تقوَ على الثبات أمام تجلّي النور الإلّهي ، فأصيب بالدهشة والذهول ، وزال عن صفحة الوجود كل شيء . . .

﴿ فلّما تجلّى ربّه للجبل جَعَله دكّاً وخرّ موسى صِعقاً ﴾[1].

أي جبل عظيم ، وأي طورٍ شامخ يستطيع الثبات أمام التجلّي الإلّهي ؟!

انه يتلاشىٰ وينهار حتماً.

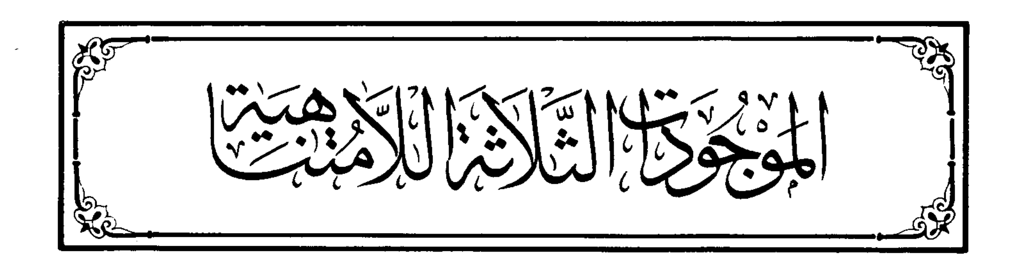
إنّ صاحب المعراج ، وخاتم النبوّات ، ووريث الولاية والإمامة وبقية المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين هم أساتذة هذه الجامعة ، وقادة هذا السبيل . . .

« انتم السبيل الأعظم والصراط الأقوم ، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة ، والآية المخزونة، والأمانة المحفوظة، والباب المبتلى به النَّاس» .

الزيارة الجامعة الكبيرة

---

(١) سورة الأعراف /الآية : ١٤٣.



الموجودات الثلاثة اللامتناهية

قال تعالى :

﴿ وَكُلَّ شيءٍ أحصَيْناهُ فِي إمامٍ مُبينٍ ﴾[1] .

ثلاثة موجودات لا محدودة ، هي برهان حكمة الخالق القدير ![2]

ثلاثة كُتب عجيبة ، هي دليل هيمنة البارىء العليم !!

ثلاثة موجودات هي علائم قدرة

---

(١) سورة يّس / الآية : ١٢ .

(٢) توصّل المؤلّف العارف والمحقّق القدير من خلال إحاطته وعمق بصيرته في العلوم الإسلامية ، خصوصاً في مجال الفقه والتفسير والعرفان ، إلى هذه النتيجة ، وهي أن مطالعة ومعرفة الموجودات اللامحدودة الثلاثة واجبة على كل من له مسكة من العقل والإدراك .

إنه اذا أعمل عقله فسيرى ضرورة التبحّر في سرّ الموجود اللامحدود؛ والتوصّل من خلال ذلك إلى قدرة البارىء المصوّر جلّت أسماؤه .

هذه الموجودات اللامحدودة الثلاثة هي عبارة عن : كتاب الآفاق ، والكتاب الصامت ، والكتاب الناطق .

الشارح

المشيئة العالية لحضرة البديع !!

ثلاثة كتب ، هي دلالات لإحاطة إرادة السميع البصير !!

ثلاثة موجودات تاهت الخلائق في النظر إلى جمالها الأخّاذ !!

وثلاثة كتب تحيّر البشر في مطالعة كمالها اللامتناهي . . .

الموجودات الذهبية الثلاثة . . . والكتب الثلاثة التي يفسّر بعضها بعضاً !!

الموجودات الثلاثة التي لم يحط بكنهها غير الخالق الأزلي !!

والكتب الثلاثة التي لا يعرف رموزها غير الكاتب الأزلي السرمدي !!

هذه الكتب الثلاثة التي لا يلحقها شيء هي :

كتاب الآفاق والكتاب الصامت والكتاب الناطق .

وبتعبير آخر هي :

عالم التكوين ، والقرآن المجيد ، وأمير المؤمنين علي عليه السلام .

الكتاب برهان علم الكاتب

ومعـرفتـه وكمـالـه ، فكـلّمـا كـان أفصـح ، وأبلغ ، وأبـدع . . . كـان على عظمة المؤلف أدلّ .

والله عـزَّ وجـلّ أوجـد بـقـدرتـه البالغة ، ولإثبات عظمتـه ، الكتب الجامعـة العجيبة الآتية :

أ ـ الكتـاب التـدوينـي (القـرآن المجيد) .

ب ـ الكتـاب التكـويني ، وهـو على قسمين :

١ ـ الآفـاقـي : وهـو عـالـم الكون .

٢ ـ الأنفسي : وهو مولانـا أمير المؤمنين عليه السلام [أ] .

(أ) ليس الكتـاب الأنفسي منحصراً في سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام ، بل إن جميع النفوس التكوينية ، حتّى أوراق الأشجار تعتبر جزءاً من الكتاب الأنفسي.

يقول الشاعر :

فـانظره في حجـر ، وانظره في شجـرٍ   وانـظره فـي كـل شـيء إنّـه الله !

وتختصّ النفوس البشرية برتبة سامية من بينها ، لأنها حجة الله ، ونموذج العالم الأكبر ، كما يقول علي عليه الصلاة والسلام :

أتـزعم أنـك جـرمٌ صغيـر   وفيـك انطوى العـالم الأكبـر

وأنت الكتـاب المُبين الـذي   بـأحـرفـه يـظهـر المُضمـر =

. . . .

= ولكن كـل واحـد من هـذه الكتب نـاقص من جهـة ، بحيث لا يقـدر على أن يكون بـرهـانـاً كـامـلاً على التـوحيـد ، إلاَّ المعصومين الأربعـة عشر سـلام الله عليهم أجمعين ، فانّهم حافظوا على فطرة الـوجود كمـا هي ، وأصبح كـل منهم مـظهراً أتّم لـربّ الأرباب جلّت اسمـاؤه ، ونخصّ بالـذكـر منهم سيّـدهم ومـربيّهم الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآل وسلّم .

ولكن حيث كان إمامنا أمير المؤمنين عليه آلاف التحية والثناء مَظهر العجائب ومُـظهر الغـرائب ، وقد عُـرف من بينهم بالقـرآن الناطق ، لـذا فقد اختـرناه حسب اختيار الله والرسول وسائر المعصومين .

المؤلّف



كتاب الآفاق أو عالم التكوين

لا أحد يجهل هذا الكتاب الضخم ، فحتّى الأمّيون يفهمون شطراً منه حسب مواهبهم وشعورهم . . .

إذن فكل فردٍ من أفراد البشر يستطيع قراءة هذا الكتاب ، سواءَ أكان عالماً أم جاهلاً ، مثقّفاً أم بعيداً عن الثقافة[1] .

---

(١) **كتاب الآفاق :**

يسمّى عالم الطبيعة ، والقيم الروحيّة ، بكتاب الآفاق والأنفس استناداً إلى قوله تعالى : ﴿ **سَنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم** ﴾ ومعنى ذلك أننا سنعرض العلائم والآثار في عالم الطبيعة وفي خلقة الإنسان لكلّ مطالعٍ ، كي يطّلعوا عن طريق ذلك على عظمة الباري عزّ وجلّ .

من الأمور التي يختص بها الدين الإسلامي الحنيف أنه أرسىٰ قواعد الإيمان بالله على أساس مطالعة الكون والوجود ، ودعانا إلى التعرّف على عظمة الخالق عن هذا الطريق .

هذا المنهج هو أفضل الأساليب للتمييز بين التوحيد والمادّية .

إن الموحّدين والماديّين بعد اعترافهم بأن هذا العالم ومن ضمنه الإنسان لم يوجد بنفسه ، يختلفون في أن وجود هذه الموجودات هل يستند إلى مبدأ أعلى واجد للعلم والحكمة ، أو أنه يستند إلى الصدفة والطبيعة الفاقدة للشعور والوعي . . . والطريق الصحيح هو مطالعة كتاب الوجود ، إذ من يتصفح النظام العام السائد في الكون ، ويشاهد الحكمة الدقيقة ، والعلم الواسع ، يــع أن يداً قديرة عليمة واعية =

إنَّ علماء الفلك الجالسين في المراصد خلف التلسكوبات الثقيلة يرصدون تحرّك القوافل السماوية في الفضاء ، ويراقبونها عن كثب ، يغوصون كل يوم في أعماق هذا الفضاء الرحب والكون الفسيح ، ويطّلعون على رمز جديد . . .

= هي التي أوجدت هذا العالم ورتّبت نظامه .

لقد كشف القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في ٧٥٠ آية منه ، وأزاح الستار عن جمال الخلق ، والأسرار العظيمة في السماوات والأرض ، والأشجار والنباتات ، والأزهار والرياحين ، والجمادات والصخور ، والحيوانات والطيور ، وفي خلقة الإنسان . . . كي يتوجه ذوو الألباب إلى قدرة البارىء المصوّر الخبير البصير .

يقول مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة رقم ١٨٥ من (نهج البلاغة) وهو بصدد شرح مفردات البيان الآنف الذكر :

«فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه التلال ، وتفرّق هذه اللغات والألسن المختلفات . . .» .

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن التوسّع العلمي والتقدّم التكنولوجي لم يستطيعا بعد ، من الإحاطة بأسرار الخلق ، والوصول إلى رموز الخلقة .

وعلى سبيل المثال لاحظوا أن عدداً كبيراً من علماء الطبيعة ، صرفوا جهداً كبيراً في سبيل معرفة كيفية توصل الحيوانات إلى تعيين المسار ومعرفة الاِتجاه ، ولكنهم لم يتوصلوا بعد إلى النتيجة القطعية . . . فلا يعرفون كيف تميّز بعض الحيوانات طريقها نحو موطنها الأصلي ، حتّى إنهم وضعوا بعض هذه الحيوانات ليلاً داخل صندوق وأخذوها إلى مكان بعيد ، ولكن بعد ان تركوها عادت إلى مكانها الأول .

يقول أحد العلماء المعروفين الذي قضىٰ أكثر من عشرين عاماً في الكونغو باحثاً عن حياة (العثّة) واسمه (شارل دوفور) :

عندما لاحظت بعض أعشاش هذا الحيوان وجدت انه يزيد عن ستة =

ولكنهم كلّما تقدّموا في أبحاثهم ، وحلّقوا في تحقيقاتهم ، وكلّما تعرّفوا على عالم أرحب ، واكتشفوا كوكباً أشدّ ضياءً تزداد حيرتهم ودهشتهم ،ويُصابون بالدوار لمشاهدة العالم الأرحب، والفضاء الأوسع !!!

من الرموز الكثيرة الباعثة على الحيرة والذهول في هذه المجموعة : التوازن بين المجرّات والثوابت والسيارات ، وحفظ المسافة بينها ، إذ أنه من الأسرار العجيبة . . .

وأعجب من ذلك كلّه قانون الجاذبية ، ودقّة عمل التوازن والتعادل في حفظ النظام بينها.

عندما تسقط نجمة أو ينهار كوكب ، أو عندما تخرج عائلة جديدة من مصنع الإيجاد ، وتستقر وسط قافلة

=أمتار ، وهو من القوّة والرصانة بحيث لا تؤثر فيه المعاول والفؤوس .

العثّة تتغذى من الخشب . . . وقد حاول بعض العلماء السويديين في الحرب العالمية الثانية حيث أصيب العالم بنقص في المواد الغذائية ، أن يصنعوا من الخشب غذاءً ، ولكنهم لم يوفقّوا في ذلك ، في حين أن العثّة تعمل منذ قرون على استخلاص الغذاء الطيّب الهنيء لها ، من الخشب.

. . . وفي هذا دليل على عظمة الصنع ، ودقّة الإبداع .

الشارح

الموجودات الفلكية[أ] فإنَّ المسافة التي يجب أن يقطعها الجسم آلاف الآلاف من السنين مع سرعة الضوء ، يؤديها قانون الجاذبية في لمحة ولحظة . . . وبذلك يضمن السلام والإستقرار في الكون ، دون أن تصاب الكرة الأرضية بأذى ، أو يُخدش وجه القمر ، أو تتصدع الشمس !!!

وإذا لم تكن هذه السرعة (كلمح البصر) كان يختّل التوازن في الموجودات الفضائية ، وكان ينهار بناء الوجود بصورة كاملة . . .

﴿ صنع الله الذي اتقن كلّ شيء ﴾[1].

* * *

أقول :

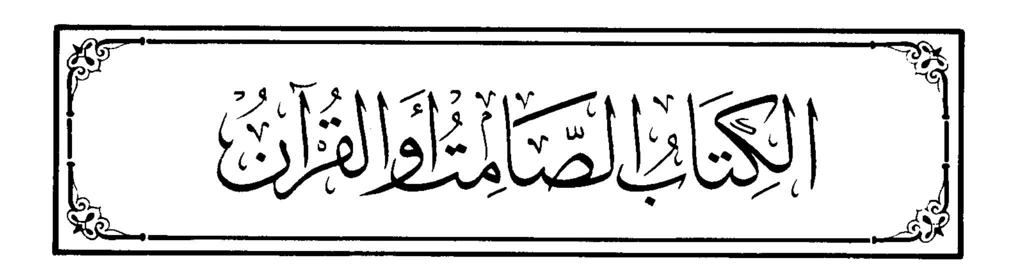
ليس سرّ الاستحكام وطول العمر ودوام هذا البناء المليء بالأسرار الغامضة مكتوماً عن كلّ أحد ، فحسب . . . بل إن صفاته اللامتناهية أسمىٰ من أن تنالها دراسة المخلوقات ، وإحصاء هذه الأوراق يعتبر لأمثالنا من قبيل المحالات .

(أ) أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة الفلكية بقوله تعالى :

﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنَّا لمُوسعون﴾ المؤلف

---

(١) سورة النمل / الآية : ٨٨.



الكتاب الصامت أو القرآن

ما من صنعة أو اختراع يكون سرّها بيد الصانع أو المخترع ، إلاَّ وينكشف سرّها من قبل الآخرين ، فيصنعون مثل ذلك حتَّى لو كان باخرة ، أو غوّاصة ، أو طائرة .

إنَّ روّاد الفضاء ، وصانعي المكائن والآلات ، ومخترعي المصانع والأدوات الكهربائية والإلكترونية المختلفة يضيفون أنواعاً جديدة إلى اختراعاتهم كل يوم . . . (١)

---

(١) يوم قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، فحطّم المنطق الديكارتي ، والأفكار الثورية لفرانسيس بيكون ، والكتابات الجذّابة لفولتير ، والخطب الحماسية لفيكتور هيغو . . . كلّ أسس المذهب المسيحي ، وبنقلة سريعة اكتشفوا الطاقة البخارية ، وقانون الجاذبية !!

يومذاك . . .

حلّ العلم محلّ الإيمان بالله .

وراح الأشخاص الذين كانوا يئنّون طوال العصور والأعوام تحت سياط اختبار العقائد والآراء من قبل الكنيسة ، يثأرون لكرامتهم ، ويظهرون ردّة الفعل باحتقار الدين والمذهب ، وكانت النتيجة أنهم ذبحوا الدين قرباناً أمام هياكل العلم !!!

أجل ، فالعلم أداة حيّة من أجل الوصول إلى حياة أفضل ، وإذا سقط هذا =

فهذه الأجهزة تتكامل باستمرار.

وهكـــذا ســائــر العلوم ، كـــالنحــو

= العلم بيد المجانين وقطّاع الطرق فكل شيء سيتعرض للخطر .

عند ذاك ، لا حرية ولا سلام .

وإذا كـانت الفلسفـة المـاديـة قـد اجتـذبت أنـظار العـالم في العصـر الحديث ، وتقبّلها الناس عقيدةً وفكراً حياً ، تاركين الإنجيل وراء ظهـورهم ، فيجب أن لا ننسىٰ أن القرآن يختلف عن الإنجيل ، وأن الدين الإسلامي يختلف تمـاماً عن المذهب المسيحي المُنهار .

إن الكتـاب الخـالـد لـلإسـلام ، أعني القـرآن الكـريم ، كتـاب العقـل والحكمة ، والتأمل والتدبّر ، وقد تحـدث عن العقل ومشتقـاته ٥٤ مـرة ، في حين لا نجد في الكتاب المقدّس عند المسيحيين ذكراً للعقل مطلقاً .

القـرآن هـو الكتـاب الجـامـع الـذي يجـذب القلوب ، ويتضمن العلوم المختلفة ، بيد أنه ظهر على لسان رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة .

يقول المستشرق الفرنسي الكبير (سنت هيلر) :

« كما ندرك جمال الفصاحة في القرآن من خلال ترجمته ، كذلك ندرك جمال (مزاميرداود) عن طـريق الترجمـة ، مع فـارق أساسي هـو أن مجمـوعـة داود تفتقـد الأبحاث المدنية والقوانين، بينما يشتمل القـرآن على مسائـل عديـدة ، ففيه القـانون المدني ، والتاريخ ، والأبحاث العلمية والحمد الإلهي ، والنشيد الديني » .

ويقول (فريد وجدي) : يرى الكتاب أن اعجـاز القرآن في بـلاغته ، في حين أن أثر البلاغة محدود ، ويـزول عند التكـرار ، لكن القرآن يحتفظ بـطراوته، وتسلّطه على النفوس دوماً ، وكلّما ازدادت تلاوته ازداد تأثيره .

وذلك لأنَّ القرآن عبّـر عنه بـالروح ، وهـو من أمر الخـالق البارىء ، يقـول تعالى في سورة الشورى / الآية : ٥٢ :

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ .

ويقول (محمد الغزالي) : لا أتصوّر أحداً يحمل فكراً سليماً وباطناً نقيّاً ، يقرأ القرآن ، ويتصوّر أنه لم يتأثر به .

الشارح

والصرف ، والفقه والأصول ، والمنطق والفلسفة ، والحساب والهندسة ، والطبّ وعلم النبات ، وعلم النفس، والاطلاع على خفايا الكون . . . كلّ هذه العلوم تتكامل فيضيف اللاحقون إلى تأليفات الماضين وتحقيقاتهم مباحث جديدة ، وتجارب عميقة ، فتقترب من الواقع أكثر.

يُستثنى من ذلك القرآن الكريم الذي نسخ التوراة والإنجيل وجميع الكتب السماوية ، ولم يوجد حتَّى الآن ما ينسخه ، ولن يجيء ما ينسخه أبداً.

لقد أودع خالق القرآن وربّه سراً خفيّاً في فرقانه بحيث يمتنع على النَّاس الإحاطة به ، ولقد حيّر جميع العلماء والعرفاء ، وفطاحل الفصاحة والبلاغة من جميع الشعوب والأمم .

هذا السرّ هو (روح القرآن) الذي نزل من **عالم الأمر** ، وهو أسمى من قدرة المخلوق **وعالم الخلق**.

حتَّى الإتيان بسورة أو آية واحدة مثل القرآن إنما هو فوق قدرة الإنسان وجميع ما سوىٰ الله . . .

إذن ، فهو الكتاب الكامل الذي لا نقص فيه . . .

لا نقص في كلماته وجُمله .

ولا في الصور الموضّحة فيه ، ولا في المعاني .

لا في ظاهره ، ولا في باطنه .

لا في الأخلاق ، ولا في الأحكام .

لا في الأمثال ، ولا في القصص.

لا في الإشارات ، ولا في الكنايات .

كلّ ما فيه غاية في الدقة والإتقان ، ونهايةٌ في الصحة والإيقان ، وهو أسمىٰ وأعلى من مستوى عباد الله .

وكلّما اتسعت العلوم والمعارف، اتّضحت حكمة هذا الكتاب، وعظمة الإعجاز فيه أكثر.

ولا يزال القسط الأكبر من هذا الكتاب التدويني كالكتاب التكويني غير مكشوف ، ومستتراً عن أفهام الناظرين والباحثين . . . فلم يكشف النقاب إلاَّ عن جزء ضئيل من حقائقه :

﴿ وما يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم﴾ [1] .

---

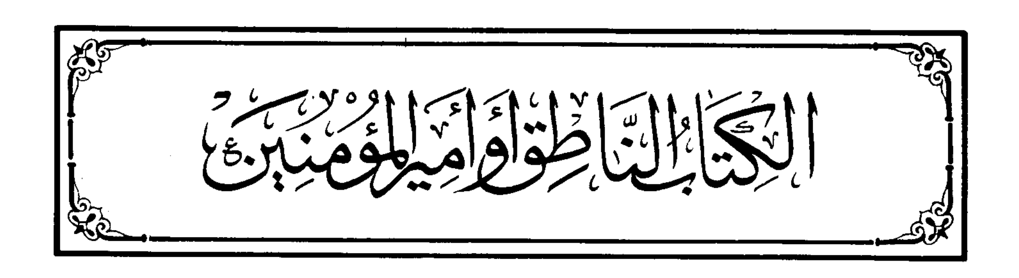
(١) سورة آل عمران / الآية : ٧.

وأقل درجات الإعجاز فيه هو الإعجاز البيــاني والنــظم الـخــاص بــالعـبــارات والألفــاظ ، بحيث اعتــرف الفصحــاء من العرب بعجزهم عن مجاراته .

﴿ قُــلْ لئن اجتمعــت الإنسُ والجــنُّ على أن يـأتوا بمثــل هــذا القـرآن لا يـأتـون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [1] .

(١) سورة الاسراء / الآية : ٨٨.





إحصاء فضائل هذا الكتاب الناطق ، وتعداد مناقبه ، والوصول إلى مقامه الشامخ يتجاوز مقدرة الإنسان !!

لم يعرفه غير الله العليم ، ورسوله الكريم ، كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم :

« يا علي ، ما عَرَفك إلاَّ الله وأنا» .

ولقد قال بنفسه عليه الصَّلاة والسلام :

« ظاهري إمامة ، وباطني غيبٌ منيعٌ لا يُدرَك»(أ) .

وتكفي هاتان الكلمتان في بيان اللاتناهي في مقامه الشامخ .

* * *

(أ) صحيفة الأبرار للمرحوم حجة الإسلام ميرزا محمد تقي التبريزي المامقاني .
المؤلّف

وبصـورة عـامـة ، فلسـان كـل متكلّم يكلّ عن وصفه ، وقلم كل كاتب يعجـز عن الوصول إلى كنهه .

وكلّ ما يقال عن الآية الكبرىٰ ، والنبأ الـعـظيـم ، فـإنـمـا هـو قـطرة مـن المحيطات ، وذرّة في مقابل الشمس[1] .

* * *

كـلّ مـا يـذكر من عـظمة علي عليـه السلام فليس مبالغة وغلوّاً ، فحسب بل هـو إقلال من شأنه وحطّ لعظمة صانعه[أ] .

(أ) ففي الأثـر الصحيح : « نـزّلونـا ـ نزّهـونا ـ عن الـربوبيـة ، وقولـوا فينا مـا شئتم ، ولن تصلوا ـ وما عسىٰ أن تقولوا ـ » .

فهم ليسوا آلهة ، وليسوا شركاء لله تعالى، وليسوا وكلاء عن الله ، ولم يفوّض أمـر الإيجـاد إليهم ، وليس لهم دون أمر الله ومشيئته، أمر ومشيئة. يصلهم الفيض والمدد الإلّهي من المبدأ المتعـال باستمـرار ، وهم يحتاجـون الخالق دائمـاً ، وكما يقولون : « لو لم نزدد لنفد ما عندنا) .

يدلّ ذلك على أنهم يستمدوّن علمهم من الله عزَّ وجلّ .

المؤلّف

---

(١) إن عـظمة أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب عليـه السـلام أسمىٰ من أن ينـالها الفكـر الإنساني ، أو يسهـل على البشر أن يتعـرفـوا على حقيقتـه ، ويحيـطوا بأغواره .

إنه البطل الذي تشير إليه الكتب والمؤلفات بالبنان ، ويخضـع أمام جلالـه كل شيء . وكفى به فخراً قول الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيه :

«يا علي ما عرفك إلاّ الله وأنا» . =

إسمعه يقول : « **سلوني قبل أن تفقدوني** » .

فكلامه هذا يدلّ على إحاطته بنواميس العالم الأكبر ، وتعمّقه في عالم التكوين والنشأة .

ويتضح من تفسير قوله تعالى :

﴿ **قُلْ كفىٰ بالله شهيداً بيني وبينكم ومَنْ عنده عِلمُ الكتاب** ﴾[1] .

ان جميع الحقائق والدقائق ، وتفسير الكتاب الصامت ـ القرآن الكريم ـ وتأويله ، وظاهره وباطنه عنده .

يفهم من ذلك أنه تعلّم رموز الكتاب المعجز في جامعة الجَبَروت .

* * *

إذن ، فكلّ ما في الكتاب التكويني والتدويني ، مدوَّن في صدر هذا الكتاب الأنفسي ، الذي هو وعاء للعلم والإحاطة !!

= وكذلك قوله (ص) :

«لو كانت البحار مداداً ، والأشجار أقلاماً ، والأوراق قرطاساً ، والملائكة كتّاباً ، والجنّ حُسّاباً ، لم يحصوا فضائلك يا أبا الحسن» .

الشارح

(١) سورة الرعد / الآية : ٤٣ .

ما عسىٰ أن يقول القائل في نطقه وبصره وسمعه ، وهو لسان الله الناطق ، وعين الله الناظرة ، وأذن الله الواعية !!

ماذا أقول في يقينه وإيمانه وهو القائل :

« والله لو كُشِفَ لي الغطاء ما آزددْتُ يقيناً» .

وحيث كان مصدر الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة ، مُظهر الصفات الربوبية ، فكلّ ما قيل في عدله وكرمه ، وشجاعته ، ورحمته وعطفه، لا يعدّ شيئاً في الواقع .

نستنتج من ذلك : أن كلّ ما تواتر عنه من المعاجز والكرامات ، وعجائب الأقوال وغرائب الأفعال ، وما ظهر عنه فهو من آثار إمامته الظاهرية ، المنسجمة مع فهم وشعور ما سوىٰ الله . . . وإلّا فإنَّ أشعة حقيقة هذه الحجة البالغة لله تعالى ، وأنوار الجبروت لهذا الوليّ الخالص للربّ ، الذي كان قلبه وعاءً للمشيئة الإلّهية أعظم وأسمىٰ من أن ينالها حتَّى الأنبياء والأولياء[1] .

---

(١) يقول ابن شهر آشوب المازندراني ـ وهو من علماء الامامية في القرن =

ويقول سلام الله عليه في ذلك :

« نحـــن صـــنـــايـــع ربّنا ، والخَلقُ ـ
بعدُ ـ صنايعُ لنا» .

* * *

أجل !

فأنّى لسماء العقول أن تتحمل إشعـاع
شمس الولاية ؟!!!

وأنّى لأفق بني البشـــر أن يقــوىعلى
اجتذاب أنوار الإمامة ؟!!!

فمقام ذلك أقصر ، ومجال هذا أضيق
من هذا الرحب الفسيح . . .

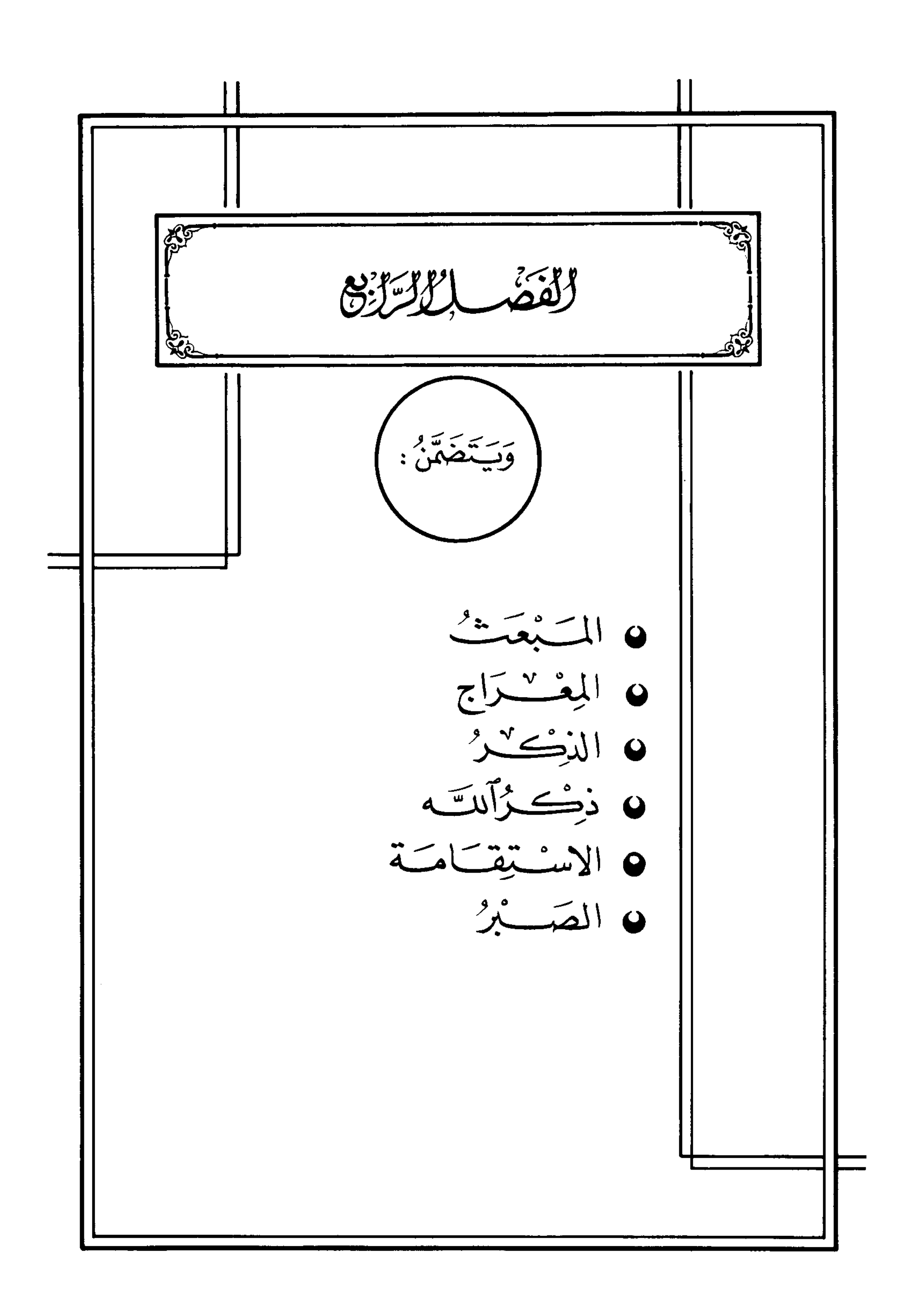
وتنزّهت ذات البارىء الخالق المصوّر
المهيمن ، الذي خلق هذه الحقيقـة التي لا
ندَّ لها ولا شبيه .

سُبحان ربّي العظيم وبحمده!!

= السابع الهجري ـ : عندمـا كنت أكتب في مناقب أميـر المؤمنين عليه السـلام ، كان
في حوزتي ألف كتاب في فضائل علي عليه السلام .

الشارح



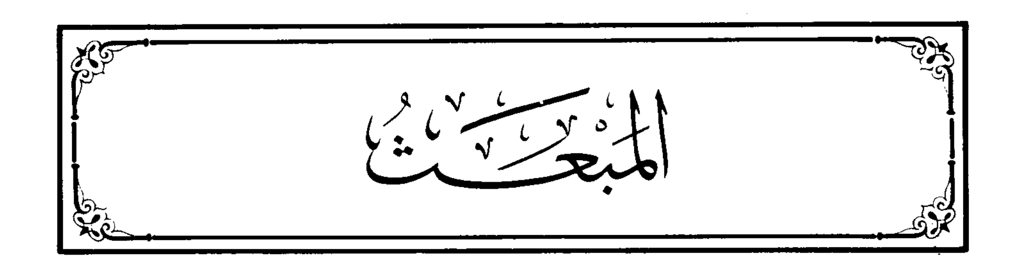


الفصل الرابع

ويتضمن:

- المبعث
- المعراج
- الذكر
- ذكر الله
- الاستقامة
- الصبر





المبعث

قال تعالى :

﴿ **اقرأ باسم ربّك الذي خلق** ﴾[1].

نزلت هذه السورة المباركة ـ حسب رواية الشيعة ـ في السابع والعشرين من شهر رجب قبل هجرة الرسول صلّى الله عليه وآله بثلاثة عشر عاماً ، ومنذ نزولها بُعث محمَّدٌ (ص) بالرسالة .

يحتفل الشيعة الأثنا عشرية جميعاً بهذه المناسبة كل عام ، ويعتبرونها عيداً كبيراً من أعيادهم ، فيقيمون الحفلات والمجالس العظيمة لذلك .

وهناك رواية أخرى تقول بأن الإسراء أو المعراج حصل في مثل هذه الليلة قبل سنة من الهجرة ، ويقيم كثير من المسلمين احتفالات تخليداً لهذه الذكرى .

وإذ كان الشيعة قاطبة يعرفون فضل

---

(١) سورة العلق / الآية : ١ .

هـذه الليلة ، وعظمـة هذه المنـاسبة ، وقـد قرأوا أو سمعوا عنها الكثير. . . فـلا نتحدث عن الجانب التاريخي من هذه الليلة .

لكن نريد إثارة بعض الأسئلة هنا :

هل السرور والفرح، وإقامة الحفلات والمهـرجـانـات ، واشتـراك الحكـومـات والشعـوب ، وصـرف المـلايين في هـذا السبيل ، وتوزيع الحلوى والشربات، وقراءة المديح وإلقاء الخطب ، لأجـل تكريم بعثة النبي أو لهدف آخر ؟!

إن كـان كل ذلـك تكريمـاً لبعثة النبي (ص) ، فـان مـبعثـه الحـقيـقي مـطابـق لخلقتـه ، ونحن نجهل زمـان خلقـة العقـل الكلي ، والصادر الأول ، بل نـوره المستمد من نـور الله ، كـان ثـابتـاً قبـل خلق الأيـام والليالي .

« كنــت نبيّـاً وآدم بيــن المــاء والطين» .

هذا الحديث المتفق عليه بين الخاصة والعامة يثبت أن نبـوّة نبيّنا العـظيم كانت في غيب الـزمان ، وأسبق بكثيـر من هذه البعثـة الظاهرية .

ولو قلنا بأن البعثة الحقيقيـة كانت في عـالم الذّر والنفـوس ، الذي هـو بعد عـالم

العقل والروح فهو صحيح أيضاً .

إذن فهذا العيد وهذه الفرحة لأجل الرسول (ص) أو من أجلنا ؟!

ليست هذه البعثة محدودة بعد انبعاثه حجة على الكون بأسره منذ صدر الخليقة فخراً ومنقبة له .

الذي أتصوّره أن هذا العيد والفرح والحبور إنما هو لأجل أن بعثة الرسول العظيم نقلت البشرية من ظلمات الوحشية والجهل إلى النور والتمدن الواقعي ، وأن الله تعالى أراد إسعادنا بذلك .

سرورنا وابتهاجنا إنما هو بمعرفتنا المربي الأعظم، وتعرّفنا على قائد عالم الإمكان ، والأمير المطلق لجموع البشر، إذ بفضله عمّ نور الهداية كل مكان ، وانتُشل الإنسان من حضيض الشقاء إلى قمة السعادة.

إن تعاليم هذا الأستاذ اللاهوتي ، واستخدام جناحي العلم والعمل كان السبب الأول للتحليق من هوّة الناسوت إلى قمة الجبروت ، ومن ساحة الملك إلى فضاء الملكوت ، بل العروج إلى رتبة ـ أو أدنى ـ من رُتب الإنسانية .

فثمرة هذا التحول العظيم

أمران : الأول ـ التوحيد الكامل ، ومعرفة آل الله ، والثاني ـ الاِقتداء بأقوالهم وأفعالهم في إطاعة أوامر القرآن للوصول إلى السعادة و السيادة في الدارين .

يأتي سلمان من فارس ، ويتهذب في ظلّ هذه البعثة ، فيصل إلى درجة يمدّ يده إلى الثريّا فينال العلوم والمعارف والحكم ، ويصل إلى الدرجة العاشرة من الإيمان(أ) .

ويأتي أبو ذر من الربذة ، من بين مجموعة من قطّاع الطرق فتشمله أشعة الهداية ، ويصل إلى الدرجة التاسعة من الإيمان ، وينال وسام الصدق(ب) .

وهكذا يصبح عمار والمقداد، وميثم ورشيد، وجابر وهشام ، وشهداء الطف وسائر الشهداء والمجاهدين، والعلماء العاملين ، والوعّاظ المقتبسين من علوم آل محمد ـ عليهم السلام ـ بفضل الاِقتداء

(أ) وضع رسول الله صلّى الله عليه وآله يده على كتف سلمان وقال : « لو كان العلم في الثريّا لتناوله رجال من فارس» .

(ب) وقال صلّى الله عليه وآله : « ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر» .

المؤلف

بأئمتهم نجوماً لامعة في سماء الإسلام ، وكواكب مضيئة للشيعة .

أجل ، مع بعثة هذا الرسول الحبيب ، نتعرف على الهدف الأصلي للخلقة والعلة الغائية للإيجاد.

نتعرف على عبادة الله ، ومعرفة حبيبه وأولاد حبيبه ، وذلك أكمل الطرق وأسلمها في معرفة الله .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾[1].

« كنتُ كنزاً مخفيّاً ، فأحببت أن أُعَرف فخلقت الخلق لكي أُعَرف » .

حديث قدسي

وقد ورد عنهم عليهم السلام :

« بِنا عُرِف الله ، وبنا عُبد الله» .

* * *

إذن ، هذا العيد السعيد مبروك على كل مسلم يجد في نفسه تهيؤاً لمعرفة أمناء الله ، وطيّ مدارج التوحيد والعمل بأركان الدين الحنيف ، وكفاءة لبلوغ المراتب الإنسانية العالية ، ويعدّ نفسه للوصول إلى ذينك الهدفين . . .

---

(١) سورة الذاريات / الآية : ٥٦ .

ولولا ذلك التوجه نحو الكمال المطلوب ، فلا يتصوّر عيد !! بل هذا السرور والفرح لا يتعدى كونه ضجيجاً وصخباً !!

والآن ، ما هو ادّعاء مسلمي عصرنا الحاضر ؟!

انهم لم يواكبوا حركة سلمان وأبي ذر ونظرائهما كي يصلوا إلى رتبة معنوية ومقام سامٍ في الهداية . . . ولم يشابهوا الجهّال الذين دخلوا في الإسلام في عصره الأوّل ويستفيدوا من المظاهر الدينية !!

حتى أولئك المسلمين الذين تخلّوا عن القيادة الحكيمة للامام أمير المؤمنين عليه السلام ، وخالفوا خط **أسد الله الغالب** ، فحرموا من هدايته وتوجيهاته . . . كان لهم حظ من التعاليم الظاهرية للإسلام ، فاستعانوا بها في نيل الفتوحات ، والسيادة على أكثر الأقاليم .

أما مسلمو عصرنا فهم مشرّدون ، لا يعرفون عن الإسلام غير اسمه ، فلا ظاهر لديهم ولا باطن ، لا دنيا ولا آخرة ، لا صورة ولا واقع ، وأخيراً فقد حرموا من الخيرات والآثار الطيبة ، وابتعدوا عن النتائج المعنوية ، فخسروا راحة البال

والاِستقرار أيضاً ، وحُرموا من السعادة المادية .

وإذا كنّا واقعيين فيجب أن نعقد مجالس التأبين والعزاء في مثل هذه الأيام بدلاً من أن نتظاهر بالسرور والفرح !!

وذلك لأن المسلمين لم يغتنموا هذه الفرصة الذهبية . . . ولم يقتبسوا نوراً من هذا السراج الوهّاج !!





قال تعالى :

﴿ **قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يُوحىٰ إليّ أنّما إلهكم إلٓه واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يُشرك بعبادة ربّه أحداً** ﴾[1] .

إن أهمّ الكلمات الواردة في هذه الآية الشريفة ، والتي تحتاج إلى الشرح والتفسير هما جملتان : ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾ و ﴿**فمن كان يرجوا لقاء ربّه**﴾ .

علينا أن نوضح في البداية حقيقة الانسان والقدرة الجسمية ، ثم نرى أن الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله أيّ بشرٍ كان !!

لقد خُلقت طينة الإنسان وحقيقته الجسمية ـ على ما يصرّح به القرآن الكريم ـ من الطين والتراب . وهذه حقيقة لا مجال للمراء فيها . إذ يصرح القرآن

(١) سورة الكهف / الآية : ١١٠ .

بذلك في قوله تعالى :

﴿إنّي خالقٌ بشراً من صلصال . . . فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[1] .

ان قدرة ومواهب الإنسان ، هذا المخلوق الترابي ، تتجلّى في عالم الملك والناسوت ، ومهما أعمل جميع قواه التي منحه الله إياها فانه لن يستطيع تجاوز حدود المادة والجسم .

إن مجال تحليق هذا الهيكل البشري هو الفضاء الناسوتي وحسب . فإذا أراد الطيران إلى القمر والمريخ والمشتري فانه يستعين بالوسائل المادية أيضاً .

نعم ، يستطيع التطلّع إلى العوالم العلوية ، والتعرّف إلى المقامات السامية ، ولكن ليس بهذا الجسم ، بل يحلّق في عالم الجبروت بالعقل ، وفي عالم الملكوت بالروح والنفس القدسيّة .

إذ ليس للهيكل المادي والجسد الترابي مجال في تلك المناطق السامية ، وأخيراً فهذه طينة الإنسان، وهذه قدرته !!

في حين خُلقت الذات

---

(١) سورة الحجر / الآية : ٢٩ .

المحمدية - باجماع المسلمين والتواتر بين جميع الفرق - من نور الله جلّ جلاله ، وكان موجوداً قبل خلقة آدم عليه السلام ، بل كان ممتازاً بالنبوة أيضاً في ذلك العالم بدليل قوله صلّى الله عليه وآله :

« كنتُ نبياً وآدم بين الماء والطين» .

لقد أودع الله تعالى ذلك النور الطاهر ، والأنوار القدسية للمعصومين سلام الله عليهم أجمعين في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة ، فكانت تنتقل من صلب إلى صلب حتّى ظهرت بمظهر بشري لأجل هداية الناس ، وهذا ما نص عليه في زيارة الإمام الحسين المعروفة بزيارة وارث :

« أشهد أنك كنتَ نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة ، لم تنجّسك الجاهلية بأنجاسها ، ولم تلبسك من مدلهمّات ثيابها» .

فلا مجال لإنكار أن الوجود المقدّس لمحمّد وآله الأطهار خُلق قبل جميع الموجودات بارادة الله تعالى ، وقد طفحت الكتب والمصادر الموثوق بها بذلك .

إذن فالحقيقة النورية للرسول الأعظم (ص) تختلف عن الطينة البشرية !!

وأما قدرات هذا الرسول ومواهبه التي

منحه الله تعالى فهي عظيمة وسامية ، فلا أكتفي من تلك المجموعة الهائلة من الكرامات والمعاجز بهذه العبارة :

« **لولاك لما خلقتُ الأفلاك** » .

كي لا يتصور قاصر أن ذلك من اختراعات الشيعة ، أو يزعم مقصّر أنه من مجعولات الغلاة !! بل أختار قصة المعراج التي صرح بها القرآن الكريم ، بحيث أن الاعتقاد بالمعراج من ضروريات الدين الحنيف ومنكره خارج عن ربقة الإسلام .

وحديثنا هنا مع المسلمين .

﴿ سُبحان الَّذي أسرىٰ بِعبدهِ ليلاً مِنَ المسجد الحَرام إلى المسجد الأقصا الَّذي باركنا حوله لنُرِيه مِن آياتِنا إنه هو السميع البصير ﴾[1] .

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلاَّ وحيٌ يُوحىٰ ، علّمه شديد القوى ، ذو مِرّةٍ فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحىإلى عبده

---

(١) سورة الاسراء /الآية : ١ .

ما أوحىٰ ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على مايرى ولقد رآه نزلةً أخرى، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السِدرة ما يغشى ما زاغ البصر ، وما طغى. لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾[1].

عقيدتنا أن الرسول الأعظم صلَّى الله عليه وآله حصل له المعراج بهذا الجسد المبارك ، واللباس الذي كان لابساً إياه ، والعمامة التي كان معتماً بها ، والحذاء الذي كان منتعلاً به .

لقد طوى عالم الإمكان بدعوةٍ من الخالق العظيم ، وقدرته ، وكما تصرّح به الروايات فانه سار في ليلة واحدة من مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى ، ومن هناك الى السماوات ، وفلك الأفلاك ، وتجاوز حدود عالم الملك ، فقطع عالم الملكوت والجبروت ، وبلغ عالم اللاهوت فكلّم ربّ الأرباب قاب قوسين أو أدنى ، دون وساطة جبرئيل وميكائيل وإسرافيل .

﴿ علّمه شديد القوى ، ذو مِرّةٍ

---

(١) سورة النجم /الآية : ١ ـ ١٨ .

فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى﴾ .

لعله كان إلى هذه المرحلة يرافقه الملائكة وأمين الوحي . (ففي بعض الروايات أن المراد من شديد القوى هو جبريل ، لكن التفسير الأصح والمناسب لشديد القوى هو أنه الله تعالى ، لأنه ذو القوة المتين) وعلى أية حال :

﴿ ثم دنا فتدلّى ، فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

هنا تعدّى حدود الملائكة المقربين ، ودخل إلى ساحة الخلوة الإلٓهية ، حيث لا أثر لِسوى الله تعالى ، حتى حملة العرش تندثر وتنمحي هنا ، ولا تستطيع أن تكسر هذا الحصار وتقترب أكثر . فقد قال جبرئيل : « لو دنوت أنملة لاحترقت» .

فالحبيب بجسده المادي، وهيكله الظاهري اقترب من جناب المحبوب وكلّمه بلا واسطة ،وهناك :

﴿ فأوحىٰ إلى عبده ما أوحى﴾ .

ما الذي شاهده في ذلك الجوّ النوراني ، والمحيطات الهائلة اللامتناهية من النور والضياء والعظمة ، وما الذي سمعه ؟!

لا أحد يدري غير الله ورسوله ، ونفس رسوله الذي هو حامل علمه ، يعني علياً أمير المؤمنين عليه السلام .

بينما يصرح القرآن :

﴿ **لقد رأىٰ من آيات ربّه الكبرى** ﴾ .

ونحن نعلم أنه لا آية أكبر من علي وذاته المقدسة في حرم الكبرياء . إنّ بصيرة الرسول نافذة ، وباصرته لا ترى إلّا الحق ، فلا ريب هناك ولا مَين، ولا زيغ ولا ضلال :

﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾ .

إن المعاند المفتري ، وصدره الضيق هو الذي لا يتحمّل الحقائق فيشكك فيها . بينما يقول الباري تعالى :

﴿ **أفتمارونه على ما يرى؟!** ﴾ .

ثم يجيب بصراحة ، قائلاً انه لا يخطىء، ولم يزغ عن الحق :

﴿ **ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾ .

والخلاصة أن هذا الموجود اللاهوتي طوى جميع العوالم الإمكانية خلال ليلة أو دقائق (على اختلاف التعابير في الروايات)

بجسمه الشريف ، وهذا الكيان البشري ، ولم يبق موضع في عالم الكون إلّا ووطئه بقدمه الشريفة :

أي فيلسوف ، أو فلكي ، أو محاسب قدير يستطيع معرفة سرعة حركة الرسول ليلة المعراج ؟! ويقدّر المسافة التي طواها ؟!

لا أحد يستطيع ذلك ، فلا مدقق حسابات ، ولا رياضي ، ولا عقل الكتروني ، ولا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب يستطيع ذلك !!

إن حساب ذلك وإحصاءه خارج عن قدرة ما سوى الله فالله أعلم بذلك ورسوله وأولياؤه .

أيها القارىء الكريم :

تصوّر أن المسافة التي لايستطيع أن يقطعها الضوء مع سرعته العجيبة في ملايين السنين الضوئية ، قطعها هذا الموجود الفذّ في فترة قصيرة جداً .

فانظر إلى هذه الموهبة ، واعجب لهذه العظمة ، ودقّق في هذه السرعة !! ثم أذعن بقدرة الله اللامتناهية .

فيا أيها المسلم :

أين مقام البشر، ومقام خير البشر ؟!

إن الطينة النورانية لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، والتي شاركه فيها علي وفاطمة وأبناؤهما الأحد عشر ، هي التي خُلقت من نور الله تعالى ، فعاد ذلك الوجود النوري ليصل إلى مقام أو أدنى من النور الإلهي الذي عمّ كل الوجود.

لقد عاد إلى مهده الأول ، فرأى الآيات الكبرى !!

هناك حيث لا طريق للملائكة المقربين ، ولا مجال لحملة العرش . . .

هناك ، حيث الحبيب ومحبوبه !! ومن عنده علم الكتاب .

أجل : صاحب البيت ، والضيف العظيم ، ووليد البيت !!هؤلاء هم المطّلعون على سرّ تلك الخلوة . . .

* * *

نفهم من هذه المقدمات أن الحقيقة الطاهرة للرسول الأعظم هي أسمى من طينة البشر ، بل لا مجال للمقارنة !!

إنه كان موجوداً لاهوتياً تردّى رداء البشرية بارادة الله ليقوم بهداية الناس، كما كان جبرئيل أمين الوحي يتردى برداء البشرية أحياناً ويظهر بصورة دحية الكلبي

قال تعالى :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ولَلَبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[1] .

هذه المعجزة العظيمة تفوق كل معاجز الأنبياء والمعصومين عليهم السلام .

وإذا أنكر أحد فضائل المعصومين ومعاجزهم ، فلا يسعه إنكار هذه المنقبة العظمى التي صرّح بها القرآن الكريم .

وحتى لو قلنا بالمعراج الروحاني ، فان ذلك يدلّ على سمو منزلتهم لأن سائر الأرواح لا طريق لها إلى مقام (أو أدنى) . . . في حين ان المعراج الجسماني من ضروريات الإسلام ، ومنكره بمنزلة الكافر وإن تظاهر بالإسلام .

* * *

إن قصة المعراج تثبت إحاطة علم الرسول وهيمنته على جميع العوالم الإمكانية ، وشرفه على جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين .

ومع ذلك فهو عبد مطيع ، ومحتاج إلى حضرة ذي الجلال ، ونموذج قدرته السامية ، وإحاطته اللامتناهية .

---

(١) سورة الانعام / الآية : ٩ .

فقولهم عليهم السلام :

« **نزّهونا عن الربوبية ، وقولوا فينـا ما شئتم ، ولن تبلغـوا**» . منسجم مـع الأدلـة والبراهين المحكمة .

فمـا عسى المرء أن يقـول تجـاه هـذا المقام المنيع ؟!

أجل ، غاية ما نستطيع قوله في شـأن المعصـومين عليهم السـلام أنهم عــالمـون بالغيب ، وعلمهم حضوري وإحاطي .

وقـد جرى بحث مفصـل واستدلالات عميقـة حـول هـذه المسـألـة بينمـا مســألـة المعـراج تحـلّ الاشكـال وتـأتي بـالجـواب القطعي .

لماذا ؟!

لأن صـاحب المعراج شـاهـد جميـع زوايـا الوجـود بعينيه اللتين في رأسـه ، فـلا يبقى مجال للعلم الإرادي .

في هذا التجوال المبارك لم يبق مكانٌ حتى يخفى على الـرســول ، ويــأتــي دور السؤال : هل يعلم أو لا يعلم ؟!

إن أشـدّ الـمسـائـل غـوراً فــي الغيب : الجنَّــة والنـار ، ومــع ذلـك فقـد شــاهــدهمــا رســول الله (ص) في أثنــاء المعـراج ، وحكى طـرفــاً من اخبــارهمـا

للأصحاب بعد ذلك .

لقد أخبر بوجود بعض الناس في النار ، رغم أنهم كانوا أحياء في عصره ، فالمسألة تجاوزت طيّ المكان الى طيّ الزمان أيضاً .

فلم يبق موضع يغيب عن ناظريه .

فمهما نقول في حق هؤلاء ، لا نزال مقصّرين عن اللحوق بشأوهم ولذلك قالوا عليهم السلام (ولن تبلغوا)!!

أجل ، لا يبلغ أحد وصف الحقيقة .

* * *

هل نستطيع إذن فهم سرّ المعراج ؟ واستيعاب السرعة الهائلة في هذا السر والسلوك ؟!

هل نتوصل إلى آلاف الأسرار التي تفوق الوهم والخيال والحدس ؟!

كلا !!

غاية ما نقوله ، أنهم ليسوا آلهة ، ولا يشاركون الله تعالى في فعله ، ولا يفعلون شيئاً دون إذن الله جل وعلا ، بل إنهم عباد مقرّبون ، ومظاهر للصفات الربوبية ، والسفراء بين الله والبشر ، لا يستقلّون بأمر مطلقاً .

﴿ بل عبادٌ مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾[1].

هذه هي العقيدة الصحيحة والنمط الأوسط الذي يختلف عن عقيدة الغالين، ومذهب القالين .

* * *

وبصورة موجزة ، فان للمعصومين عليهم السلام ثلاث مراتب :-

١ - المقام الحقّي : حيث الملائكة وجميع ما سوى الله مأمورون بالخضوع للمعصومين عليهم السلام في هذه المرتبة . علمهم وارادتهم يستمدان من علم الله تعالى وارادته ، وقدرتهم مكتسبة من قدرة الباري جل وعلا .

لا شيء في الوجود خارج عن دائرة سلطتهم وولايتهم الكبرى . وفي هذه المرحلة حتى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين يجهلون عظمة مراتبهم المعنوية .

ولقد ورد عنهم عليهم السلام :

« لنا مع الله حالات ، لا يحتملها ملك مقرّب ، ولا نبيّ مرسل ، ولا مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان» .

---

(١) سورة الأنبياء /الآية : ٢٦ - ٢٧

٢ ـ المقام الملكي : في هذه الرتبة يحلّقون كالملائكة نحو السماوات في خفّة ولطافة ، وتُطوى لهم الأرض ، وينفذون في الأجسام الصلبة ، ويعبرون الجدران السميكة ، ويدخلون من الأبواب المغلقة .

٣ ـ المقام البشري : إنهم في هذه الرتبة يأكلون كما يأكل الناس ، ويشربون وينكحون ويستريحون كغيرهم من أفراد البشر .

تتأثر أجسامهم بالسمّ والسهام ، وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ .

ولقد عبّر صاحب الولاية الكبرى في رسالة له إلى معاوية عن هذه الحقيقة حيث يقول :

« لولا ما نهىٰ الله من تزكية المرء لنفسه ، لذكر ذاكرٌ فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فانّا صنايع ربّنا ، والخلق بعدُ صنايع لنا . لم يمنعنا قديم عزّنا ولا عادي طولنا أن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الاكفاء ولستم هناك» .

دقّق في هذه العبارة الموجزة ، الصادرة من أمير المؤمنين عليه

السلام ، وهو لا يبالغ ، ولا يدّعي جزافاً ، لترى صحة ما نعتقده .

علماً بأنهم عليهم السلام في المقام البشري واجدون للمقام الحقي والمقام الملكي أيضاً .

* * *

وأخيراً ، فان الله تعالىٰ جعل حبيبه ورسوله المختار يطّلع على عظمة الخلق وأسرار التكوين ، وكشف له عن مرتبة عين اليقين وحق اليقين .

وقد نطق القرآن الكريم بأنه :

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾[1] .

ويقول في موضع آخر :

﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً ، إلاّ من ارتضى من رسول﴾[2] .

فمن الواضح أن المحبوب تعالى جعل حبيبه يطّلع على كلّ ما في الغيب منذ

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ١٧٩ .

(٢) سورة الجن /الآية : ٢٦ .

اللحظة الأولى ، وكانت مسألة المعراج مرآة لانعكاس تلك المراتب في ذاته .

* * *

وأما تفسير «لقاء الرب» :

لقد ورد في تفسير لقاء الرب أنه بمعنى لقاء رحمة الرب ، فحذف المضاف كثير في اللغة العربية ، وقد استعمل في القرآن الكريم أيضاً ، كقوله تعالى :

﴿ وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً ﴾[1] .

أي جاء أمر ربك .

اما إذا قلنا أن لقاء الرب يعني لقاء الرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلم فهو مناسب للمقام ، لأنه رحمة الله الواسعة ، ورحمة للعالمين ، ووجه الله الباقي .

ومن البديهي أن اللقاء مع شخص لقاء مع وجهه لامع ذاته وحقيقته ، وإذ كان الرسول (ص) الوجه الباقي لذي الجلال ، حيث يقول : « من رآني فقد رأى الحق» ، صحّ التعبير .

---

(١)سورة الفجر / الآية : ٢٢ .

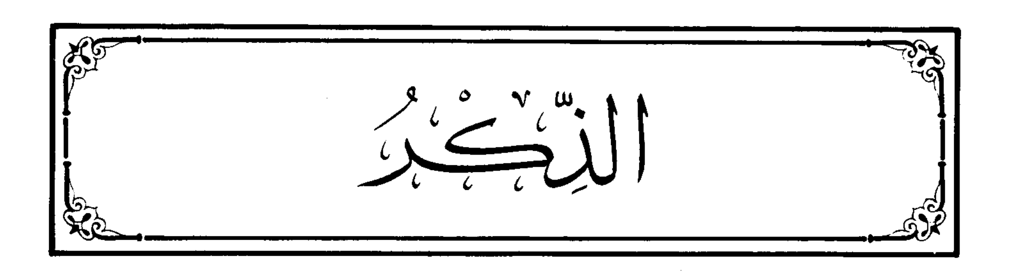
وقد ورد في الحديث الصحيح أن من يواظب على زيارة عاشوراء كل يوم فكأنه زار الله فوق عرشه .

وهناك حديث مشابه حول زيارة أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً .

إذن ، معنى الآية : أن كلّ من يريد لقاء رسول الله وأمير المؤمنين في الجنّة عند حوض الكوثر ، فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .

إذ من البديهي أن لقاء ذات الله تعالى محال من قبل المخلوقين !!





الذِّكْرُ

قال تعالى :

﴿ الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذِكر الله ، ألا بِذكر اللهِ تطمئنّ القلوب ﴾[1] .

لا وجهة في الواقع ، يتوجّه إليها الإنسان ، ولا هدف تنتهي إليه غاياته ومقاصده غير الباري سبحانه .

يستطيع الإنسان أن يحصل على الهدوء والإستقرار ، وينعم بالدعة والطمأنينة تحت ظل **لا إله إلاّ الله** فحسب .

وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[2] .

---

(١) سورة الرعد / الآية : ٢٨ .

(٢) الذكر أو راحة الضمير :

تتحقق راحة الضمير ، ويحصل الِاستقرار بذكر الله تعالى .

لقد استعمل (الذكر) في القرآن الكريم في موارد عديدة . وهو في اللغة ضدّ الإهمال والغفلة ، كما سُمّي القرآن الكريم نفسه بالذكر في قوله تعالى :

﴿ **إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون** ﴾ سورة الحجر / الآية : ٩ . =

أجل ، فالإعراض عن ذكر المحبوب تعالى يقود إلى حياة موحشة . . .

ولو قضى الإنسان عمره العزيز سعياً وراء حبيبه من الآدميّين ، وكرّس حياته ذاكراً إيّاه ، وغارقاً في هواه ، فانه سيُصاب بالخيبة يوماً . . . وذلك لأن كل ما سوىٰ الله فهو فانٍ ، وعرضة للزوال.

= وكما يشير المحقّق القدير ، فان لكلمة الذكر عدّة معانٍ ، أهمّها وأعلاها عند العلماء والعرفاء هو ذكر الله تبارك وتعالى وعدم الغفلة عنه . إذ ذكره يوجب راحة الضمير ، والطمأنينة ، واستقرار البال.

لكن كثيراً من الماديين يعجزون عن فهم هذا المعنى ، أو أنهم لم يحاولوا فهمه .

إن التفسير البسيط لهذا الموضوع هو أننا متى كنّا ذاكرين لله تعالى فلن نرتكب ذنباً أو جرماً ، وذلك لأن ارتكاب الجرائم يقود النفس الإنسانية إلى الاضطراب والقلق ، وإن اتّباع أهواء النفس الأمّارة بالسوء والانقياد للشهوات والغرائز يملأ كيان المرء اضطراباً وقلقاً.

إن الحقيقة التي لا مجال لتجاهلها ، هي أن الأشخاص المصابين بضعف الإيمان ، يمدّون أيديهم في المحن والفتن والمآسي إلى أناس أضعف منهم . غافلين عن أن الله القدير هو القادر على إزالة المشاكل وإنقاذ بني البشر من المحن .

عندما تتعلق مشيئة الله بإبادة شخص ، فانّه لا مردّ لذلك ، ولو كان متحصناً في القلاع المحكمة والحصون المنيعة ، إذ يسيطر عليه القلق رغم الحرّاس والاحتياطات المشدّدة.

يقول تعالى بالنسبة إلى قلاع الفراعنة وقصورهم العالية :

﴿ **ودمّرنا ما كان يصنع فرعونُ وقومُه** ﴾ سورة الأعراف /الآية : ١٣٧ .

وهكذا دُمّرت القصور المشيدة ، ولم تكن لتضمن لساكنيها الدعة والاستقرار.

الشارح

كل ما سوى الله فهو
أناني ، ومسكين ، وضعيف، وغير وفيّ !!

إن الاِنشداد نحو هذه الأهداف الناقصة ، وتعليق الآمال على هذه الموجودات الضعيفة ، واللذائذ المنصرمة ، يعني معانقة الهموم والأحزان .

إنّها لا تزيل القلق والاِضطراب عن البال !!

* * *

يصادف الإنسان في سبيل وصوله إلى الدرجات العالية، والمقامات السامية موانع وعقبات صعبة ، ويواجه مشاكل ليس من السهل اختراقها. فإذا كان هدفه أداء واجبه الإنساني، وتحقيق الهدف الإلّهي ، فان جميع تلك الصعوبات تسهل أمامه ، حتّى الموت يصبح طيب المذاق عنده ، وتكون كؤوس المآسي والمشاكل هنيئة ومريئة لديه .

أما إذا كان هدفه عادياً أو شخصياً ، أو فاسداً ـ والعياذ بالله ـ فحياته تصبح جحيماً ، ولا يجني غير الحسرة

والندامة[أ] .

وأخيراً، فان الإعراض عن ذكر الله تعالى إعراضٌ عن الواجب الخاص بالبشر. . .

﴿ وما خلقت الجنّ والإنسَ إلاَّ ليعبدون﴾[1] .

بناء على هذا فان من يُعرض عن أداء واجبه يُصاب بوخز الضمير ، ويُحاط بتقريع الذات .

وإذا كان غافلاً في هذه اللحظة ، لا بدَّ أن يستيقظ يوماً ويعي ، فيندم على ما مضى منه .

﴿ إنَّا نحن نزّلنا الذكر وإنَّا له

(أ) يقول أرباب المعنى : إن القلب المعنوي ، أو النفس الناطقة القدسية ، أو عقل الإنسان ، لما كان من عالم المجرّدات فهو لا يأنس بالماديّات ولا يطمئن إليها، ولذلك فلو أعطي الدنيا وما فيها للإنسان فهو لا يشبع ، وذلك لأن ضالّته ليست في الأمور الماديّة .

وإذ يغفل أكثر النَّاس عن هذه الحقيقة ولا ينتبهون إليها ، فهم يجهلون مطلوبهم .

لذلك فان الطمأنينة تحصل مع ذكر الله فقط ، إذ هو الأصل في جميع المعنويات .

المؤلف

---

(١) سورة الذاريات / الآية : ٥٦.

لحافظون﴾[1] .

* * *

لقـد استعمل الذكر في القرآن الكريم وأحـاديث أهـل البيت عليهم السـلام في معانٍ أُخر.

فعن يونس بن عبد الرحمٰن عن الإمام الرضا عليه السلام ، حين سأله عن المشيّـة والإرادة، والقدر والقضاء والإمضاء .

قال عليه السلام :

« تعلم ما المشيّة ؟

قال : لا .

قـال عليـه السـلام : هي الـذِكـر الأول» .

كمـا أن الذكـر من أسمـاء رسـول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، يقول تعالى :

﴿ أنزل الله إليكم ذكراً، رسولاً ﴾ .

وهو من أسامي القرآن ، قال تعالى :

﴿ وإنه لذكرُ لكَ ولِقَومك﴾ .

﴿ إنـا نحن نزّلنـا الـذكـر ، وإنّـا لـه لحافظون﴾ .

---

(١) سورة الحجر / الآية : ٩.

أما في قوله تعالى :

﴿ وَمن يَعشُ عن ذكر الرحمن نقيّضْ له شيطاناً فهو له قرين﴾[(١)] .

فالمراد منه أمير المؤمنين عليه السلام ، كما ورد في تأويل الآية الأخرى :

﴿ وإنَّه لذكر لك ولقومِك وسوف تُسألون﴾

إذ أوّل مرجع الضمير في الهاء بعلي عليه السلام ، ومتعلق السؤال هو ولايته .

* * *

المؤمن الحقيقي ، والسعيد الواقعي هو الذي يؤمن بجميع أقسام الذكر ، ولا يُعرض عن شيء منها ، ولا يخالف أمر الله تعالى ، ورسوله ، والإمام ، والقرآن . . . فالكل ينتهي إلى نقطة واحدة في الحقيقة[(٢)] .

---

(١) سورة الزخرف / الآية : ٣٦ .

(٢) الحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن بال أحد أن آل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلَّم كانوا المصداق الجلي الكامل للذاكرين الله كثيراً والذاكرات . ولذلك فانهم كانوا يواجهون المحن والمشاكل بقلبٍ هادىء ، ورباطة جأش .

إنهم كانوا يملكون أحاسيسهم في الظروف الحرجة حتّى إنهم كانوا يُذهلون العدو.

يقول السيد ابن طاووس : لما دخلت العقيلة زينب سلام الله عليها على عبيد الله بن زياد بالكوفة ، قال لها الشقي :

=

قال تعالى :

﴿ إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلت قلوبهُم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ [1].

هناك نوع آخر من الذكر :

الإنسان الكامل يتوجّه إلى الله تعالى في جميع أقواله وأفعاله ، بل في جميع مدركاته بالحواس الظاهرة والباطنة . . . ولا يمرّ بالأحداث مروراً سطحياً .

مسموعاته، ومُبصراته، وملموساته . . . كلّها دلائل على التوحيد، وعلائم لمعرفة الخالق .

إنه يرى الخالق الباريء المصوّر جلّ وعلا في جميع الحالات، بل لا يحسّ بشيء إلّا ويحسّ بوجود الله معه .

= أرأيت صُنع الله بأهلك ؟!

فتمالكت زينب عليها السلام نفسها ، وردّت عليه بكل هدوء :

«ما رأيت إلّا جميلاً ، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم»

مرحباً بهذه الروح العظيمة .

وسلاماً على تلك السيدة الجليلة التي هزّت عروش الطغاة ، منطلقة من المدرسة التربوية التي نشأت عليها ، على يد المربي القدير ، أبيها علي بن أبي طالب عليه السلام .

(١) سورة الأنفال / الآية : ٢ .

الشارح

وإذا كمل إيمان المرء فانه يرى الخالق تعالى قبل أن ينظر إلى الشيء المحسوس، يراه بعين البصيرة والقلب ، كما قال سيد الموحّدين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

« ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله معه ، أو قبله».

وهذا هو الذكر المقدس الذي يوصل الإنسان عند إرتفاع الحُجب النفسيّة إلى مقام الكمال، ويخرجه من حالة الغفلة ليكون متجهاً إلى الله تعالى في كل حال.

﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبهم ، ويتفكرون في خلق السّمٰوات والأرض ، ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً ، سُبْحانَك فقِنا عذاب النار﴾[1] .

وعندما يصل المرء إلى هذه المرتبة، يتحقق فيه قوله تعالى:

﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات . . . ﴾.

يصبح إنساناً حسب المنطق القرآني، ويؤدي واجبه الإنساني كما هو حقّه.

---

(١) سورة آل عمران / الآية : ١٩١.

وإلاَّ فهو خارج عن ربقة بني البشر ، ويعدّ من البهائم :

﴿ إنْ هُمْ إلاَّ كالأنعام ، بل هم أضلّ سبيلاً ﴾(1) .

إنّهم كالبهائم، بل هم أحطّ وأدنىٰ منزلة منها ،وأضّل . . . وذلك لأن الحيوانات تملك لأنفسها ذكراً خاصاً بها ، في حين أن هؤلاء الأشخاص يتمتعون بظاهر بشري ، وواقع حيواني .

إنهم أناس بمنطق الظاهر ومقاييس الخلق، وليسوا من مصاديق الإنسان حسب المنطق القرآني . . .

ولذلك فلا مقام لهم في الجنَّة ، ولا زلفى لهم لدى مالك يوم الدين .

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ، لهم قلوبٌ لا يَفقهون بها ، ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام، بل هم أضلُّ ، أولئك هم الغافلون ﴾(2) .

---

(1) سورة الفرقان / الآية : ٤٤ .

(2) سورة الأعراف / الآية : ١٧٩ .





ذكر الله

قال تعالىٰ :

﴿ ومَنْ أعرضَ عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ ﴾[1].

الذكر على أنواع ، يمكن تلخيص أهمّها في ثلاثة :

١ ـ **الذكر اللساني** .

٢ ـ **الذكر القلبي** .

٣ ـ **الذكر العملي** (ويسمّىٰ بالذكر النفسي أيضاً) .

إنَّ تأثير الأذكار المختلفة بواسطة أسماء الله تعالىٰ مدوّن ومسطور في كتب العرفاء وعلماء السير والسلوك ـ على وفق الشريعة الإسلامية طبعاً ـ فلكل اسم من الأسماء الحسنىٰ تأثير خاص .

على طالب العلم والمعرفة أن يقول :

---

(١) : سورة طٰه/ الآية : ١٢٤ .

يا عالم ، ويا عليم .

وعلى طالب الغنىٰ والثروة أن يـردّد : **يا غنيّ ، ويا معطي ، ويا كريم .**

أمَّـا المـريض والمبتلى فـإنَّـه يستعين بذكر : **يا شافي ، ويا معافي .**

ويتـوسل المـظلوم باسم : **يـا عدل ، ويـا حكيم ، ويا قـاهـر ، ويـا قـادر ، ويـا مقتدر .**

ولنشاط الروح وتصفية الباطن يحتـاج الإنسـان لترديـد ذكر : **لا إلـه إلَّا الله ، ويـا حيُّ ويا قيّوم .**

وأمَّـا الذكـر المشترك المنـاسب لكـل الحـوائـج فهـو الصلوات على محمـد وآل محمد ، فإنَّ تأثيره يصل إلى حدّ الإعجاز .

إنَّ مـا نهدف إليـه هنا هـو أنَّ الـذكـر اللساني الخالي من الوعي وتوجّـه النفس لا أثر له ولا فائدة فيه ، ولا يوصل الذاكـر إلى رتبة من الكمال .

لو ردّد شخصٌ ذكر الله وناداه بقولـه : يـا كريم ، ويـا غنيّ مائـة ألف مرة ، وكـان يقصـد الغنىٰ والثروة لكنـه لم يكن متـوسـلاً

بالغني المطلق ، أو كان توجّهه إلى فلان وفلان ، فإنَّه لا يوفّق في حصوله على المراد .

وهكذا الشخص الذي يردّد التسبيحات الأربع (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر) ولكن قلبه مشغول بزينة أصحاب الدنيا وجاههم ومناصبهم فإنَّه لن ينال شيئاً .

هذا الإنسان المسلم نفسه يردّد التسبيحات في فرائضه اليومية الخمس ، ويتلوها في تعقيبات الصلاة ، ولكنه لا يزداد إيماناً ، ولا يزداد قوّة في روحه .

إذن فالشرط الأهم لتأثير الذكر هو توجّه النفس .

﴿ واذكر ربَّك في نفسِك تضرّعاً وخيفة ﴾[1] .

وأهم من كلا الذكرين : اللساني والقلبي ، الذكر العملي . أي ينبغي أن يكون مراقباً لنفسه في أقواله وأفعاله وأفكاره ، ولا ينسىٰ الحق تعالىٰ حتى يكون

---

(١) سورة الأعراف/ الآية : ٢٠٥ .

مرشداً وقائداً وناصراً ومعيناً له في جميع الأحوال .

ومعنى ذلك أن يكون كل عمل تنوي القيام به ، وكل كلام تريد أن تقوله ، وكل نية تريد لها أن تطبّق . . . ترجّح في ذلك رضى المحبوب على رضاك ورغبتك ، ورضى جميع المخلوقين .

وهذا هو سرّ السعادة في منطق أهل البيت عليهم السلام .

بناءً على ذلك فإنَّ أهم ذكر يقرّب العبد إلى مولاه ، والمخلوق إلى خالقه ، ويجعله من المقرّبين لديه هو الذكر النفسي أو العملي . فإنَّ الذكر اللساني والذكر القلبي لا أثر لهما من دون العمل وترجيح رضى الله تعالىٰ .

قد تقول : سبحان ربي العظيم وبحمده ، ويذعن قلبك بعظمة العظيم جلَّ وعلا ، ولكنك لا تنوي الإطاعة ، وترتكب المعاصي . . . فإنَّ إقدامك على المعصية لا ينسجم مع الذكر ، ويمنع من تأثيره بلا ريب .

إنَّ الذكر العملي أو النفسي هو

الوسيلة الوحيدة لرقيّ مدارج الكمال الإنساني ، وهو الذي يقرّب العبد من باريه ، ويخصّه بالزلفىٰ في رحاب ملك السماوات والأرض .

﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربّه فلْيعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً ﴾[1].

ولكي ندرك أهمية الذكر العملي نقول : هذا النوع من الذكر وهو العمل بالأخلاق الإنسانية والسيطرة على النفس الأمَّارة ، وقد يكون مفيداً ومنتجاً حتى من دون الذكر اللساني والقلبي ، ويجعل صاحبه بمنأىٰ عن العقوبة والأثر الوضعي ، ويمنع من انتقام المنتقم حول معاصيه الأخرىٰ . ففي أحاديثنا أنَّ عدالة كسرىٰ وسخاء حاتم في الدنيا كانت السبب في الذكر الطيّب في الدنيا ، والخلاص من عذاب الجحيم في الآخرة .

﴿ مَنْ أعرضَ عن ذكري فإنَّ لَه معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ ﴾[2].

---

(١) سورة الكهف/ الآية : ١١٠ .

(٢) سورة طه/ الآية : ١٢٤ .

قد يثور إشكال حول هذه الآية عند إلقاء النظرة السطحية عليها ، فلا بدّ من التعرض له والإجابة عليه .

كلنا نشاهد أنَّ كثيراً من الظالمين والبعيدين عن الله ، يعيشون في رفاهية ودعة وسعة رزق ، بل قد تكون معيشة آلاف المسلمين الطيّبين أصحاب العمل الصالح بأيديهم ، مع أنَّ هؤلاء الجبابرة معرضون عن ذكر الله ، بتمام معنىٰ الكلمة ، ولا تربطهم بالله العظيم أي صلة .

هنا ينبغي أن نعرف معنىٰ (المعيشة الضنك) .

المعيشة الضنك تعني الحياة المرّة ، المليئة بالمصائب والآلام ، والعمر المقترن بالفوضىٰ والاضطراب . والكلّ يعلمون أنَّ أي شخص ذي إحساس وشعور فإنّه يعاني من الآلام والمآسي ، وينتابه القلق لمشاهدة آثار الانفلات والظلم والاضطهاد ، يستثنىٰ من ذلك الأطفال الصغار والمجانين والسفهاء ، وما عدا هؤلاء فالعالم كله مليء بالآلام والمحن .

إنَّ من الخطأ الفاضح أن يتصور الشخص المبتلى محنته كبيرة ، ويتمنىٰ حياة فلان ومقامه وثروته .

إن تمنّي الفقير البائس لثروة فلان الغني خطأ محض ، إنَّه يشكو من فقره وضيق معاشه فيتصوّر أنَّ الخلاص في الثروة والغنىٰ . . . ولكنه لا يدري أنَّ الأغنياء غارقون في بحر المحن والآلام ، وحتى أن بعضهم يتمنّىٰ حياة الفقراء الهادئة .

إنَّ الفقير غالباً ما يشكو من علة واحدة ، ولكن ما أن يبلغ مرحلة الغنىٰ والثروة إلاَّ وتتقاذفه أمواج الهموم والغموم ، ويقع في ورطة المحن والآلام .

كان عبد الملك بن مروان في أعلىٰ درجات العزّ والمقام ، تمتع بما لم يتمتع به أحد من الخلفاء الأمويين قبله ، ولكنه في أواخر أيام حياته كان يتمنىٰ أن يكون راعياً لأغنام الآخرين ولا يتحمل أعباء الخلافة . . . ولقد نُقل عنه ـ وهو الذي خاض غمار الحروب ودبّر أمر الدولة الإسلامية في زمانه ـ أنه كان يبكي أحياناً من فداحة ثقل الرئاسة .

وقد يُقدم بعض أصحاب الثروة على الانتحار نتيجة للمشاكل والمحن الاقتصادية ، في حين تعوّد البائس الفقير على التوفيق بين نفسه وبين ظروفه المعيشية .

إذن لا صلة للمعيشة الهنيئة الهادئة والعيشة الراضية بالغنىٰ والثروة والشهرة والرياسة ، كما لا صلة للحياة الصعبة بالفقر والحاجة .

لقد ورد في أحد أدعية شهر رمضان المبارك :

« اللهمَّ إنِّي أسألك إيماناً تباشر به قلبي ، ويقيناً صادقاً ، حتى أعلم أنه لن يصيبني إلاَّ ما كتبت لي ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الراحمين » .

إذ أنَّه العلاج الناجع لراحة الجسم والروح .

فمعنى السعادة هو أن يكون الإنسان صاحب هدف مقدسّ ، ويؤدي واجباته الإنسانية مع إنشداد إلى الحي القيّوم . فمن يؤمن بالحق تعالىٰ ويؤدي واجبه

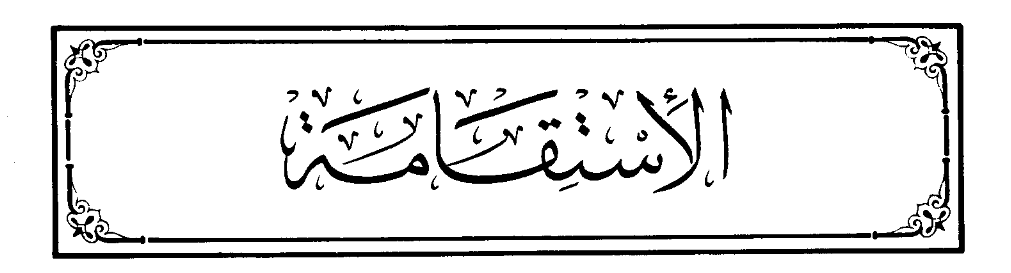
الإنسـاني ، ويرضي وجـدانه وضميـره فهو حميد وسعيد مهما كان وأيًّاً كان .

ومن يفقـد هذين العنصـرين فهو في زمرة الأشقياء التعيسين .

إنَّ من لا يستنـد إلىٰ **الله الحي القيوم** ولا يـوثق الصلة به دائمـاً ، ولا يذكـره في كـل حـال ، يعيش حيـاة النكـد والضنـك والضيق ، وحـريّ بـه أن تتقـاذفـه أمـواج الـمحـن والبـلاء ، ويُـصـاب بـالـقـلق والاِضطراب .

﴿ ومن أعـرض عن ذكـري فـإنَّ لـه معيشـة ضنكـاً ونحشـره يـوم القيـامـة أعمىٰ . . . ﴾ .





قال تعالى :

﴿ **فاستقم كما أُمِرتَ ومن تَاب معك** ﴾[1] .

الإِستقامة من الصفات التي تساعد الفرد والأمة ، والحزب والجماعة، والشعب والدولة على بلوغ أهدافها . . . وتجعل شجرة الآمال والطموحات مثمرة .

ما ان يخطط المرء لعمل ، أو تقرّر جماعة القيام بشيء ، وتمهّد له بإعداد الوسائل والأدوات اللازمة ، حتّى يأتي دور الثبات والإِستقامة في انضاج المشروع وانجاحه .

يجب عدم الاعتناء بالمشاكل والصعوبات ، وعدم القلق تجاه العقبات والموانع ، بل ينبغي الإِستمرار والمواصلة بخطة صحيحة ، وعزمٍ راسخ ، وثبات واستقامة .

---

(١) سورة هود / الآية : ١١٢ .

وإذا استثنينا الظروف الطارئة والحوادث المفاجئة التي تبطل مفعول المشاريع أحياناً ، فإني أعتقد أن الصعوبات والمشاكل تشحذ عزم المرء أكثر وتدفعه الى المضي نحو الهدف بخطى ثابتة ، فتكون نسبة إصابته الهدف عالية .

ومن الطبيعي أن الكائن الحي ، والجسم المزوّد، بالروح ، هو الذي يتفاعل مع الأحداث فيحمرّ خدّه من اثر الصفعة ، وتتورّد وجنته تجاه الأحداث ،على العكس من الجسد الميّت الذي لا يستجيب للتغييرات والحركات ، ولا نشاهد فيه غير الجمود والتسليم اثراً .

أجل ، فالنجاح والتعالي ليس أمراً جزافاً ولا اعتباطاً ، فمن لا يكدّ لا يحصل على النتيجة .

إنْ لم تصمد الخشبة التافهة لتعذيب المنشار والمبرد على يد النّجار الماهر فانها لا تصبح مشطاً أنيقاً يداعب شعر الفتيات اليافعات !!

وإذا لم يتحمّل لعاب فم دودة القزّ حرارة الماء المغليّ ، ولم يخضع لأصابع العمّال الخشنة ، فانه لا يتحول إلى حرير

ناعم يلامس جسد النواهد الحسناوات !!

والحديد إذا لم يتعرض لوهج النار وألسنته المتقدة ، ولم يخضع لضغط الأجهزة الثقيلة في المصانع ، ولم يصمد أمام هذه الضربات الموجعة لا يستطيع أن يكون طائرة أو باخرة .

انظر إلى ذي الفقار !!

تحمّل النار الشديدة في كورة الحدّادين ، وصمد أمام ضربات المطارق الثقيلة ، فصار حليفاً لقبضة **أسد الله الغالب** ، واخترق صفوف المحاربين ، وقدّ هامات المشركين والمعاندين ، وجنَدل أمثال عمرو بن عبد ودّ . . . فوصل إلى رتبة سامية اقترن فيها اسمه باسم اعظم رجال التاريخ ، حيث النداء السماوي :

لا فتى إلاَّ علي ، ولا سيف إلا ذو الفقار !!

* * *

لقد وصل القادة الدينيون ، والرؤساء السياسيون إلى المقامات التي نالوها في ظل الإِستقامة .

وأصحاب الاختراعات ، إنما استطاعوا أن يخلّدوا ذكرهم في تاريخ

الصناعات والفنون بفضل الإِستقامة .

والـذين أسّسـوا السـلالات الملكيـة فحكموا بلاداً عريضة ، وأورثوا بنيهم الملك أيضاً ، نالـوا ذلك كله على أثـر الاستقامـة والصمـود .

* * *

كذلك رسول الله صلّى الله عليه وآلـه وأصحـابه من المهـاجـرين والأنصـار اتّبعـوا الوحي الالهي المنزل :

﴿ **فاستقم كـمـا أُمِـرت ومن تـاب معك** ﴾ .

فأخضعوا الأراضي الواسعة والممالك الشـاسعـة لـكسـرى وقـيصـر لسيـطرة الإِسلام ، وجعلوا راية التوحيد تـرفرف على تلك الربوع ، وفتحـوا القلوب على الهدايـة والإِسلام ، فدخلت الشعوب القوية الواعيـة في الإِسلام ، كما أخضعوا العرب البعيدين عن المدنية الى القيم الإِسلامية العليا .

وبعـد انتصـار أبي سفيـان وصنـاديـد قـريش ، واستيـلاء اليـأس والضعف على المسلمين ، وفرار عدد كبيـر منهم من ميدان القتـال ، وجـرح الـرسـول القـائـد وبقـائـه وحيداً . . . كانت استقـامة **أسـد الله الغالب**

علي بن أبي طالب عليه السلام وثباته إلى جانب الرسول ، العامل الوحيد لفلّ جيوش المشركين ، وانتصار الاسلام ثانية على تلك الزمرة الفاسدة المشركة .

وإذا نظرنا إلى تاريخ شيعة علي عليه السلام نجدهم صامدين أشد الصمود، وفي أعلى درجات الإِستقامة بوجه الحكام الجائرين من بني أمية وبني العباس ، رغم أنهم كانوا أقلية . . . فاستطاعوا بفضل هذه الإِستقامة أن ينخروا أساس هاتين الامبراطوريتين الجائرتين .

اذا قورن التعذيب والإِضطهاد الصادر من غاصبي الخلافة الإِلّهية والمسيطرين على مقدّرات الأمة ، تجاه شيعة امير المؤمنين ومحبّيه ، بأي اضطهاد في التاريخ ، فانه أشدّها جميعاً !!

كانت الضربات قاضية ، واللكمات موجعة ، والاضطهاد شديداً . . . تتبعوهم وتتبعوا أئمتهم تحت كل حجر ومدرٍ . فقتلوا منهم من قتلوا ، وشرّدوا من شرّدوا !!

هذه النماذج للاضطهاد كانت تكفي لمحو أمّةٍ بأسرها ، وكانت قمينةً بازالة آثار ومعالم الدين الحنيف ، لكن ذلك كله لم

ينجح ، بل ازداد عدد الشيعة يوما بعد يوم ، وانضّم الى الموالين لأهل البيت عليهم السلام جمع غفير ، فازدادوا قوّة وتماسكاً وتألّقاً .

لقد بلغوا في ظلّ الإيمان العميق ، والواقع الطاهر ، والتربية المعنوية الى الدرجات العالية .

وبفضل الصمود والتصدّي ، والإستقامة والثبات، تغلّبوا على خصومهم ، ورفعوا لواء التوحيد والتشيع الذي رفعته لأول مرة في التاريخ سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ، سلام الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها . . . وبعدها قائدنا العظيم فلذة كبد الزهراء ، الإمام الحسين عليه السلام ، حين صمد في الطف بوجه الطغيان والانحراف . . .

وظل الأئمة المعصومون سلام الله عليهم أجمعين يرفعون هذا اللواء واحداً بعد الآخر ، مثبتين بذلك حقانية المذهب ، واستقامة الصراط .

* * *

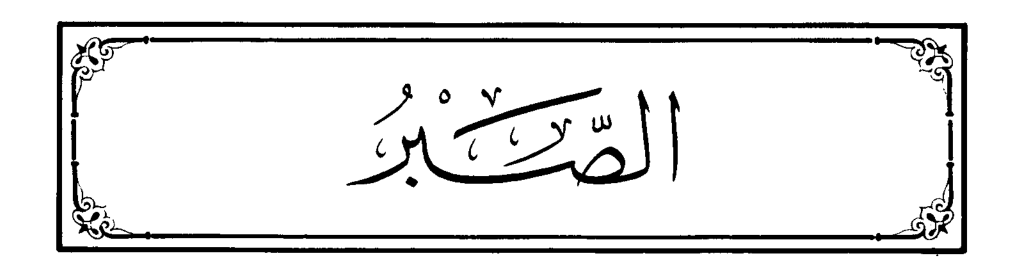
هذه الأمة العظيمة وحّدت جهودها في ما مضى لمواجهة تحدّيات الأعداء والخصوم، ولكن ما يؤسف له أن القرن

الأخير شهد تأثير الأيدي الآثمة التي استطاعت تفتيت وحدة الصف ، فبدلاً من توحيد القوى والجهود نحو الخصوم ، تحوّلت الخصومات إلى الجماعات المختلفة في الأمة الواحدة ، فراح بعضهم يسدّد سهامه نحو اخوته ، ويشهر السلاح بوجه ابناء أمته .

وهذا ما يؤدي إلى الخراب والدمار، والضياع الذي لا يُعالج ، ويؤدي إلى محق الدين وضعف المذهب ! !

ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم .





الصَّبْرُ

قال تعالى :

﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة ، قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾[1] .

إن المصائب والمِحَن التي تصيب الإنسان كثيرة، وكلّها توجب الأذى للجسم والروح ، ولكن البعض منها مقبول لدى جماعة ، والبعض الآخر غير مقبول .

وبصورة عامة فان المصائب والأحداث التي يتنبأ بها الإنسان ويستعدّ لمواجهتها فيعدّ لها الأدوات المناسبة لا تكون مؤلمة كثيراً ، بينما المحن الطارئة والمصائب التي تهجم فجأة عليه تكون موحشة وأليمة .

فمثلاً : الشتاء في المناطق الباردة ، والصيف في المناطق الحارة ، يعتبران من المصائب المهلكة للضعفاء والمساكين ، أما بالنسبة إلى

---

(١) سورة البقرة / الآية : ١٥٦ .

الأغنياء وأصحاب الثروة الذين يتمتعون بالتحصينات المناسبة من البرد والحر في بيوتهم ودوائرهم فان الشتاء والصيف لون من ألوان التنزّه والإستمتاع .

كذلك الجوع فانه عدوّ البؤساء ، ومحبوب أصحاب الثروة !!

إن ميادين القتال تعدّ بالنسبة إلى الجبان مصيبة عظمى ،أما بالنسبة إلى الشجاع المقدام فانها مدعاة لانشراحه وسروره .

الامتحانات المدرسية تمثّل الكارثة العظمى والمصيبة الكبرى للطالب الكسول ، والضعيف، لكنها يوم عيد للطالب المجدّ النشيط.

وهكذا ... حتى يأتي دور المصائب والمحن العامة التي يفر منهما الناس ، ويجزعون أشدّ الجزع لمواجهتها ... فيبكون ويئنّون ، ويفقدون أعصابهم ، وأحياناً يقدمون على الإنتحار .

مثال ذلك : الفشل في الحب، والمرض ، والفراق، وموت الأحبّة، والإنكسار أمام الخصم، والإفلاس ، والفشل في الإمتحانات ، والحوادث العامة !!

في حين ان هذه المصائب أيضاً تشبه الحر والبرد، والجوع والعطش ، في امكانية علاجها والتصدّي لكفاحها .

إن الصبر والتحمّل ، والاِستقامة والصلابة . . . أدوات للنجاح والفلاح دائماً ، وهي أفضل الوسائل في مكافحة المصائب والمحن[1] ، وهذا ما نشاهده في

---

(١) الصبر من الصفات الممدوحة والخصال الحميدة . لقد أكّد الإسلام على الصبر تجاه الحوادث ، وإن الأفراد الذين يتّسمون بالصبر والثبات يكون نصيبهم الفوز والنجاح دائماً . إنهم لا يصابون بالفشل في الحياة أبداً .

لقد حاول العظماء الذين خلد التاريخ اسماءهم أن يحافظوا على توازنهم وثباتهم ولا يخافوا من الأخطار والحوادث المؤلمة ، لقد عوّدوا أنفسهم على عدم الجزع ، وهؤلاء قد يعدّون بالأصابع ، لكنهم على أي حال رجال التاريخ !!

يقول القرآن الكريم في سورة البلد / الآية : ٤ .

﴿ **لقد خلقنا الإنسان في كبد** ﴾ .

أي خلقنا الناس في حالة من الشدائد والمحن والصعوبات حتى تصقل مواهبهم في الموقد المشتعل ، وتذوب الشوائب من كيانهم ، فيشرقوا على صفحات التاريخ .

أجل فان الرجال الإلٓهيون يتحلّون بالصبر دائماً ويواجهون المشاكل والمصائب بروح عالية من الثبات والاستقامة .

أما رجال المادة والصناعة فان تفكيرهم ينصبّ دائماً على فتح المستعمرات والتسلّط على خيرات الناس ومواهبهم ، لذلك لايملكون روحاً قوية تجاه المحن والصعوبات ، بل ينكسرونَ لأول وهلة .

في ظل الصبر والاستقامة استطاع أئمتنا عليهم السلام من التغلب على أعدائهم ، وهدايتهم أحياناً .

جاء رجل إلى الإمام السجّاد عليه السلام وسبّه كثيراً ، ثم انصرف. عند ذاك توجّه الإمام إلى أصحابه قائلاً : هل سمعتم ماذا قال هذا الرجل ؟ قالوا : نعم يا ابن =

الأبطال الشجعان حين يردون ساحات القتال ببسالة ورضى، والابتسامة تعلو شفاههم .

إن الصابرين العارفين بالله يستقبلون المحن بصدر رحب ، وهم فرحون ، ويهتفون: مرحباً بشعار المؤمنين !!

وفي الحقيقة فان أرباب الصبر والحلم هم أبطال المجتمع المتحصّنون ضد المشاكل والمآسي .

إن أجر الإنسان الصابر هو النجاح والفلاح دائماً ، حتى لو خسر الجولة في مقابل المِحن ، وهو عند الله لا يعدّ ، في حين ان جميع الصفات البشرية تتمتع بأجر محدود ومكافأة معدودة .

= رسول الله . قال : اذن تعالوا معي لنجيبه على قولته .

تحرك الأصحاب مع الإمام السجاد عليه السلام حتى وصلوا الى باب منزل الرجل ، فطرق الباب ، وخرج الرجل وهو ينتظر سماع الردّ من الإمام ، والأصحاب مصغون لما سيقول . فقال له الإمام : ان كان ما ذكرته فيّ حقاً فأسأل الله أن يغفر لي ، وان لم يكن ما ذكرته فيّ حقاً أسأل الله أن يغفر لك .

عند ذاك تقدم الرجل وقبّل جبهة الإمام السجاد عليه السلام قائلاً : ما ذكرته ليس فيك ، وأنا أولى به .

هكذا يكون تأثير الصبر والتحمّل والحلم والأناة مع الجاهل .

الشارح

﴿ إنَّما يُوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1].

إن الرجل الصابر في ميدان المصائب كالفارس المقدام في ساحة المعركة !!

الرجل الصابر تجاه الصعوبات والشدائد يشبه ذلك الشخص الغني في مقابل الحر والبرد.

إذن فالحلم والصبر من الذخائر الإنسانية العظيمة ، التي يجهل أغلب النَّاس سرّ النشاط والفعالية فيها .

أجل، فمن دون سلاح الصبر، ودرع الاِستقامة ، وتُرس التحمّل لا يمكن مواجهة النوائب !!

على المرء أن يستخدم هذا الدرع الواقي ، وهذا السلاح القوي دائماً في مواجهة غول المصائب ، ومِحنة الشدائد. . . فانها تفتك به لو لم يكن متحصّناً !!

قال إمامنا الصادق عليه السلام :

«من أراد البقاء ، فليعدّ للمصائب قلباً صبوراً» .

* * *

لقد جعل الخالق الحكيم هذا العالم

(١) سورة الزمر /الآية : ١٠ .

المادي متغيّراً ومتحوّلاً ، ومركزاً لاختبار المخلوقات ، وقد جعل لكل داء دواءً ، ولكل آفة علاجاً . . . لكنّه جعل للحوادث غير المتوقعة والمِحن التي لم يفكّر فيها من قبل ، الصبر والأناة . . . كي يعيش الإنسان في هذه الحياة ، والحياة الأخرى ، حرّاً نشطاً ! !

إنّ الاِعتراض على الله في خلقه المصائب ناشىء من النظرة السطحية . . . إذ على هذا المعترض أن يقول : لماذا خلق الله الشتاء والصيف ؟ والجوع والعطش ؟ والضعف والشيخوخة ؟

لماذا خلق الرياح العتيدة ؟ والأمواج العاتية للبحار ؟

أية حكمة في ذلك كله ؟

انهم يريدون كل شيء ليكون في خدمتهم ، فكل ما يخالف رغبتهم يعترضون عليه ، انهم يريدون من الكون أن يسير على وفق هواهم ؟!

وأخيراً فان الحصول على الصبر والحلم الذي هو الحجر الأساس للنجاح والفلاح ، يحتاج إلى دُربة وممارسة ، إلى رياضيات روحية ومعنوية .

إن الطالب الذي رسب في امتحانات السنة الماضية ، يستطيع في ظل الصبر والاِجتهاد أن يحقق النجاح في السنة اللاحقة ، فلماذا اليأس والانتحار ؟!

كذلك التاجر المفلّس يستطيع في ظل العمل والصبر والاِستقامة والأمانة أن يستعيد ثروته الفائتة ، فلا داعي لليأس والذلة والجنون !!

وهكذا المريض والمسكين والبائس وسائر المصابين بالمِحَن والاِبتلاءات فانهم يستطيعون تحقيق السعادة لأنفسهم بفضل الصبر والاِستقامة .

صحيح أن الصبر مرّ ، ولكن ثمرته حلوة !!

هناك العشرات من الآيات ، والمئات من الأحاديث التي تتحدث عن فضيلة الصبر، وأهميته ، وتحث عليه ، لكننا لم نذكرها اختصاراً :

ولقد أجاد الشاعر حيث قال :

بنى الله للأبرار بيتاً سماؤه
همومٌ وأحزان وحيطانه الضرّ
فأدخلهم فيه وأغلق بابه
وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

وقد ورد في الحديث : أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : هل تريد أن يدعو لك كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر ؟

قال : بلىٰ .

قال : اصبرْ على خلقي وجفائهم ، كما صبرتُ على من أكل رزقي وعَبَد غيرِي !!

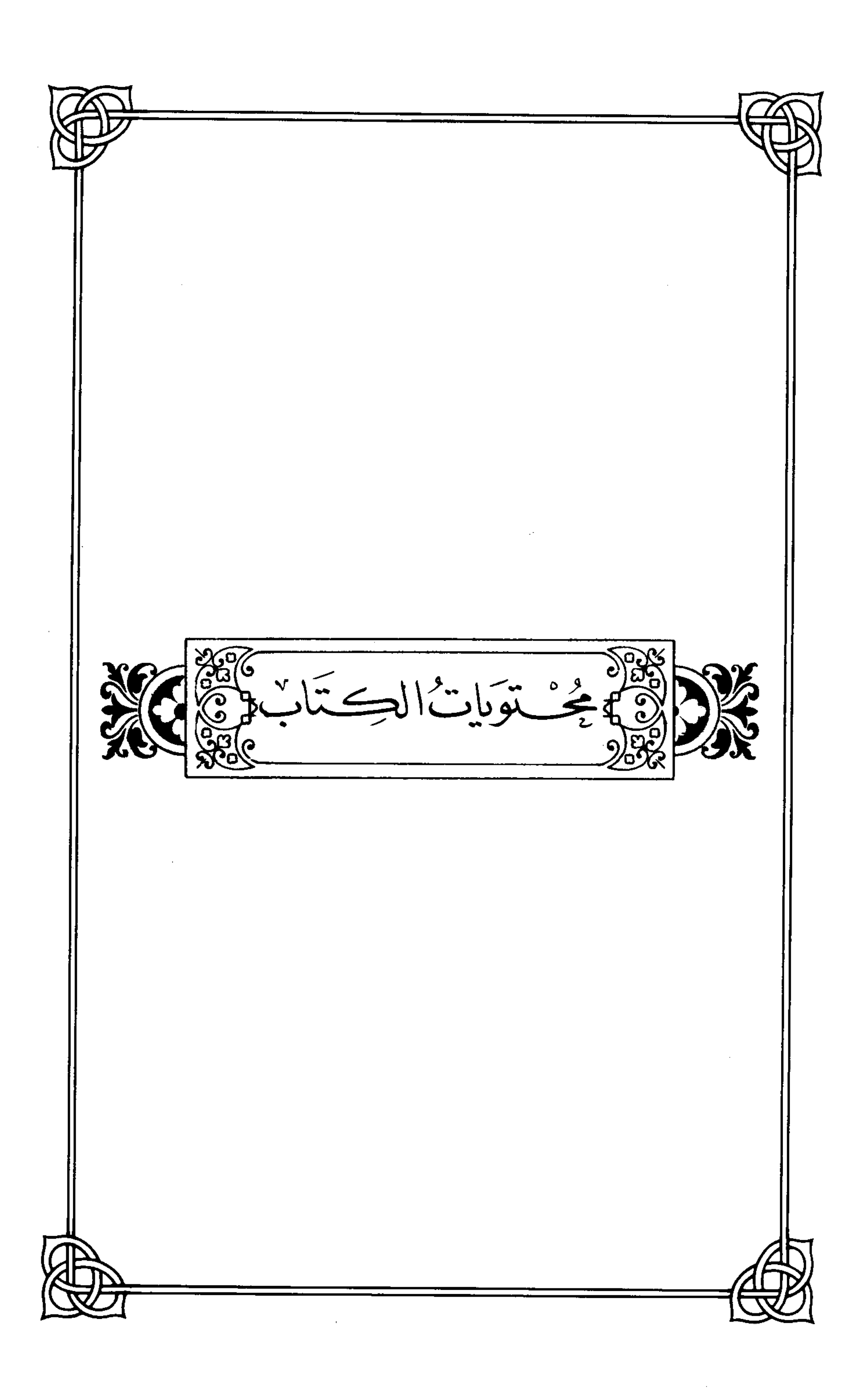
والسلام علىٰ من أتبع الهدىٰ ، وصلّىٰ الله علىٰ محمَّد وآله الطاهرين ولعنة الله علىٰ أعدائهم أجمعين .

الرّاجي عفو ربّه :

حسن بن موسى بن محمّد باقر بن محمّد سليم الحائري الأحقاقي الأسكوئي

الحائري الإحقاقي

رجب المرجب ١٣٩٠ هجرية


مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ

محتويات الجزء الأوّل





مُحْتَوَيَاتُ الجُزْءِ الثَّانِي